

سَادَةُ الْقَبْرِ

الطبعة الأولى

1440 هـ

2018 م

اسم الكتاب: سادة القَبْو

التأليف: أساء الصياد

موضوع الكتاب: رواية

المراجعة اللغوية: عبدالقادر أمين

عدد الصفحات: 408 صفحة

عدد الملازم: 25.5 ملزمة

مقاس الكتاب: 14x20

عدد الطباعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2018/00000

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 000 - 0



يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلم



elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com



01152806533 - 01012355714

سَادَةُ الْقَبْرِ

(صَرْخَةُ ضَمِيرٍ فِي وَجْهِ مَجْتَمَعٍ مُتَنَاقِضٍ)..

رواية

أَسْمَاءُ الصَّيَّادِ

مَنْشُورٌ فِي الْمَدِينَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِلتَّقَاتِ وَالْعُلُومِ

تنوية هامّ جدّا..

إنّ أسماء شخصيّات هذا العمل؛ هي من وحي خيال الكاتبة، ولا تمّت إلى الواقع بأدنى صلة.. وأيّ تشابه بين أسماء شخصيّات هذه الرواية، وأسماء أناس موجودين على أرض الواقع؛ هو بكلّ تأكيد «أمرٌ غير مقصود» مُطلقاً.

الكاتبة/ أسماء الصياد

ابني الحبيب..

ابنتي الحبيبة..

إذا فُتشتما عن الحبِّ الصادق يوماً؛ فلنُ تجداه - بأسمى معانيه - إلا بقلبٍ أمٍّ، أو أبٍ.. فانها منه ما استطعتما، وتعلماً حينها كيف يكون الحبُّ، والعطاء بلا مصلحة، أو غرض.. فكلُّ حبٍّ له ثمن، عليكما أن تسدّداه، حتى تحصلا عليه.. إلا حبُّ أبويكما لكما؛ فهو مجانيٌّ مدى الحياة.

(ياسمين، فرح، شهد، مصطفى)..

وشوشاتُ النسيم، التي تفتّحتُ لها زنابق قلبي؛ أنتم.. نسماتُ الربيع العليلة، المعطرة على هجير عمري؛ أنتم. شقشقاتُ العصافير الشّجيّة بأفنانِ روحي؛ أنتم.. بلسمُ آلامي، وذخّرُ حياتي؛ أنتم، ولا سواكم.

اعلموا أنّي عندما أقول لكم «رفقاً بأنفسكم»؛ فما لرجائي هذا من معنى سوى «رفقاً بقلبي»..

أحبّكم

إهداء

إلى أمي، الأمية العظيمة، التي ملأت عينيها دموع الفرح عندما رأت أول كتاب لي بين يديها، دون أن تعرف أن تتهجى عنوانه، أو تقف على محتواه، فزغردت، ثم أمطرتني بالدعوات، فأضأت دربي برضاها.

إلى أستاذي المحترم جداً أ. أحمد عبد السلام..

لن أنسى مواقفك الطيبة معي، وأشهد الله أنك لم تتخل عني متى كنت بحاجة إلى توجيهك ونقدك البناء، ولغتك الرصينة التي رشت من معينها ما استطعت، كم بثتني صبراً، أملاً في غدٍ سيأتي، وقد خرجت سطوري للنور، تنفع الناس، وتسعدهم.. أطل الله عمرك، ونفع بعلمك، وبارك لك في نفسك وأحبابك يا رب، دام نبعكم ذاخراً فياضاً.

إلى الأستاذ الفاضل زكي محمد

الأخ الفاضل، مدير النشر بدار البشير للثقافة والعلوم.. أشهد الله أنك ما أدرت جهداً لمناقشتي في كل صغيرة وكبيرة تتعلق بعملٍ روائي لي، وإن لم يُنشر لديكم.

وقد كانت آراؤك النقدية في محلها حقاً، فمن كرم الله لي أن تعرّفت إلى ناشرٍ خبير ذي نظرةٍ ثاقبة، وصائبة في الوقت نفسه مثلك.

جزاك الله عني كل سعادة، وردّ لك معروفك معي في زوجك وأولادك، وصحتك، ومالك، وكل ما تحب.

*(آسيا، وليلة الميلاد الخامسة عشر!!)

فيلا السيّدة «آسيا الميهي» بمدينة الشروق، مصر..

الأوّل من أكتوبر عام ١٩٩٥ م

دلفت المليارديرة «آسيا الميهي» إلى غرفة نوم ابنها الوحيد «لؤي»، بينما كان يغطّ في نوم عميق على إثر سهرة أمس، وقُبيل غروب شمس الأوّل من أكتوبر، أرادت إيقاظه لأمر هام.

«آسيا» تلك السيّدة الغامضة، التي تُفتح لها كلّ الأبواب الموصدة، وتُهدّ لها الطّرق الوعرة، وتُفرش أمامها بأيّنع الزهور، وكذلك لابنها الوحيد المُدلل «لؤي»

- استيقظ يا «لؤي»، كيف تنام إلى حتى هذه السّاعة، واللييلة هي ليلة عيد ميلادك؟!

تلملم المراهق في فراشه، وهو يغمغم بغضب:

- ماما، اطفئي الأنوار؛ أريد أن أنام.

لم يذهب إلى مدرسته اليوم، مدرسة اللّغات المتوسطة، التي لا يلتحق بها إلاّ أبناء صفوة الصفوة بالمجتمع، فكَم اعتاد الغياب، بينما لم تعترض أمّه مطلقاً.

فهي تأتي له بألع المدرسين حتى يظل مميزًا.

تغدقُ بهاها عليهم، وتهديهم ثمين الهدايا، حتى يولونه اهتمامًا شديدًا
الخصوصية.

اقتربت منه، وجلستُ إلى جواره بالفراش، وأخذتُ تمسّد كتفيه وظهره
بيديها، وتشاكسُ شعره الناعم، وهي تداعبه بقولها:

- حبيبي، نجمُ حفل الليلة، قمري الذي لا يضاهي تألقه قمرٌ آخر، هيّا
انفض حتى ترى ماذا أحضرتُ من أجلك بهذه المناسبة!!

نفضَ ببطءٍ، وفتح عينيه ببطء أكثر، فإذا هي تسحب صندوقًا كرتونيًا
كبيرًا، مغلفٌ بلفافةٍ لامعة من السّوليفان من خارج الحجرة إلى داخلها.
سألها بصوتٍ مازال يلفّه النّعاس:

- ماما، أنا لديّ لعب، وأجهزة إلكترونية تملأ حديقة عامّة، ولا أريد
المزيد.

- إلّا ترين أنّي كبرتُ كثيرًا على اقتناء مزيدٍ من اللعب؟! (سألها متأفّفًا)
فقد خطّ شاربه الوليد مكانه أسفل أنفه، فقام مُسرّعًا يتحسّسه أمام المرأة،
بينما هي تجلس بمقعدٍ وثير، تراقبه في صمت، وتضيء وجهها ابتسامة ذات
معنى ما.

- هل وجدت شاربك بموضعه، أم أكلته القطّة أثناء نومك؟! (قالتها
مدّاعبة)

استدارَ يرميها بنظرةٍ تنم عن غضبٍ ما يسكن ملامحه..

- يمكنني أن أحضرَ لك أيَّ شاربٍ تريده من آخر بلاد الدنيا. (قالتها «آسيا» مازحة)، أتريد شاربًا كشاربِ «هتِلر»، أم تُفضِّلُ شاربَ «شارلي شابِلن»؟!

أعقبتُ ما قالت بضحكةٍ مُجلجلة، وهي تفتح ذراعيها له تريد أن تحتضنه، وقد تجهم وجهه لسخريتها، ثم سار عدة خطوات نحوها، ثم ألقي بنفسه بين يديها،

- إلا تريد أن ترى هديتك؟! (سألتُه في حبّ)

دنا في هدوءٍ، وأخذ يزيل غلاف الصندوق الكبير، لقد كان أكبر صندوق جاءه كهدية منذ طفولته حتى هذا اليوم، ولكنه هلع، وانتفض قلبه عندما طالعته، شعر كثيف مُنتفش بُني اللون تتخلله بعض الخصلات السوداء داخل الصندوق، كما لو كان «شعرٌ مستعار فوق رأسٍ ضخّم»!!

تراجع إلى الخلف حتّى التصق بالحائط القريب..

كانت «آسيا» جالسة صامتة تراقب ردّة فعله في صمتٍ تام، لم يتحرك لها ساكن وهي تراه فرغًا هكذا، ولم تطمئنّه بكلمة كما لو كان هدفها من تلك الهدية أن ترى ما سينتابه عندما يقع ناظره على محتوى الصندوق!

بدت أمّه كمُعَلِّمة، تختبر قدرة تلميذ لديها على التحمّل واجتياز موقفٍ

عصيب!

نظرَ نحوها، يستجديها أن تتفوه بكلمة تفسّر له بها ما رأى بالصندوق، ولكنّها لم تفعل.

لم تتحرّك قيد أنملة من مجلسها؛ فهذه هي المرّة الأولى التي تخيفه عينها، ولا يجد ما يفسّر له ما يراه بمقلتيها الغائمتين، المحملتين بالغاز لا حصر لها!!



«آسيا»، سيدة الأعمال التي يُشار إليها بالبنان، وترفع بأنفة عن حضور أكثر الحفلات التي تضمّ كبار رجال الدولة، ووزراءها، صاحبة إمبراطورية مترامية الأنحاء من مصانع الأغذية، والحلوى، والملابس، والأثاث، والمشاريع المعمارية العملاقة، مصانع تجميع السيارات، وسلاسل الفنادق العالمية بمصر، وخارجها..

حتى تناثرت حولها الأقاويل، فمن الصحافيين من نشر بعضاً من سيرتها الذاتية؛ أنّها تزوّجت من رجل أعمال خليجي، وورثت بعد وفاته الملايين المملّينة التي نمت، وربّت بفضل جهدها، وذكائها المتّقد.

ومنهم من قال بأنّها لم تتزوّج، ولم تُنجب، وأنّ الولد الذي تُفرط في تدليله، وتنفق من أجله الغالي والثمين ما هو إلّا ابن أخت لها قد ماتت بعد ولادته مباشرة، ولم يُطق زوجها البقاء بالبلاد بعد وفاة زوجته، لا أحد يعلم الحقيقة، حتى مدير منزلها الدائم، وخادمها الأمين «عرفان»، وسائقها الخاص الذي تستبدله بآخر من آن لآخر، والخادمتين الآسيويتين التابعتين لها حيثما تقيم؛ كلّهم لا يعرفون عنها شيئاً سوى اسمها فقط؛ «مدام آسيا».

هي امرأة لا يستقرّ بها المُقام بمكان لعدّة أيام على مدار العام الواحد؛ تجدها تنتقل إلى أكثر من عشرين بلدًا، ما بين السفر خارج البلاد لمتابعة مشاريعها، وشركاتها، ومصانعها، وما بين الساحل الشمالي، وأشهر المنتجعات السياحية بمصر، وخارجها، وتنقلها الفنادق ما بين ما تملكه هي، وغيرها من الفنادق العالمية بفرنسا، وكندا، وسويسرا، وقبرص، وألمانيا، وأمريكا وأستراليا، وغيرها..

لقد أصبح «لؤي» يعرف معالم هذه البلاد بدقّة أكثر من معرفته بموطنه الأصلي «مصر».

سَفَرَاتُ «آسيا» الكثيرة جعلته شخصية تعشق التّرحال والمغامرة، فقد يسافر وحده صباحًا، ويتّصل بها ظهرًا ليخبرها بوجوده بمحافظة ساحلية بعيدة لحضور حفلٍ لمُطرب شهير، أو للتزلّج بضع ساعات على الجليد، أو لممارسة الغوص بفصل الشتاء بصحبة مراهقين من عدّة دُول جمعَتهم الفكرة، وربط بينهم هوسُ المغامرة!

أصبح في هذه السن الصغيرة أكثر جرأة ممّن هم بمثل عمره، ينطلق نحو المجهول، لا يحسبُ للعواقب حسابًا.

أضحى يحملُ ب صدره قلبًا لا يعرفُ الخوف، فلماذا إذاً قد انتابه كلّ ذلك الفزع اليوم، عندما فتح الصّندوق؟ وما الذي يُخويه صندوقُ هدية يوم ميلاده الخامس عشر؟!

(الهدية!)

ظَلَّ متوجَّسًا خيفةً الاقتراب من ذلك الصندوق، الذي أهدته أمه له
لدقيقتين تقريبًا، وهي تجلس وكأنَّ على رأسها الطير.

جالَ ذهنُه في غموض سلوكها، فهي التي لا تتحمَّل عليه شَكَّة شوكَة أو
عشرة قدم، فما لها الآن تراقبه كَمَنْ نال خرسٌ مُباغتٌ من لسانها اللُّبِق الذي
كم تحدَّث بعدة لغات؟!!!

خرجت عن صمتها، تقول بصوتٍ تغشاه الجدِيَّة، ويميزه الحزم:

- اقترِب، وأُخرج ما بالصندوق.

بخطواتٍ متردِّدة، أخذ يتقدَّم خطوة، ويرجع خطوة، حتى صاحت
غاضبة كما لم يرها من قبل:

- قُلْتُ لك اقترِب، وأُخرج ما بالصندوق.

تقدَّم، وهو لا يستطيع أن يكفَّ عن ملاحظة نظراتها الغامضة التي
ضَاعَفَت الرَّهبة داخله.

تنقَّلَ عيناه بين داخل الصندوق، وبين عينيها اللتين بدتا كعيني ساحرة
تريد به شراً.

مدَّ يده، يمسك بالشَّعر الخشن، ويرفعه إلى أعلى، وما أن التقت مُقلتاها
بعيني هذا الرَّأس الصناعي الكبير؛ حتى ألقي به بعيداً، ليجدَ أمه قد تَلَقَّفت

الرأس الكبير بين ذراعيها، فتطلق ضحكاتها، كضحكاتٍ عاهرةٍ لا تأبه لأحدٍ حولها.

- لماذا جئتني برأس أسدٍ يومَ ميلادي يا أمي؟ ألم تجدي أغرب من هذا الشيء القبيح؟! (سألها بصوتٍ مرتجفٍ)

- احتفظ بهذا الرأس، وإياك ثمَّ إياك أن تتخلَّص منه مدى حياتك. (أجابته وهي تسير بجسدها الممتلئ نحو باب الغرفة)

استجمع شجاعته، وسألها مرّةً أخرى:

- لماذا يا أمي؟!

قالت، وهي تطلق ضحكةً صاخبةً:

- عندما تكبر سأخبرك.

ثمَّ حانت منها التفاتةٌ نحوه مرّةً أخرى، وهي تؤكّد:

- إياك أن أدخل حجرتك، ولا أجذ هذا الرأس نُصب عينيك الجميلتين.

انعقدَ لسانه عن الكلام، فلم تكن أبداً بمثل هذا الغموض من قبل!!

يشعرُ بأنّها امرأةٌ أخرى لا يعرفها، ولم يلتقها يوماً!

تنهَّدت، ثمَّ ابتسمت، وقالت وهي تحديق بعينه:

- انظر إلى عيني ذلك الرأس مليّاً؛ ستجدهما تشبهان عينيك كثيراً، يا

صاحبَ العينين الرائقتين كالعسل المصفى!

ثم ذهبت وهي تقول في لهجةِ أمة:

— استعدّ لحفلة عيد ميلادك الليلة، بذلتك الجديدة مُعلّقة بخزانة الملابس،
واهبط بالثامنة تمامًا حتى تكون باستقبال ضيوفك، لا تتأخر.

التفت نحو الرأس الأشعث الذي وضعته أمه حيث كانت تجلس فوق
كرسي من القطيفة الخضراء الناعمة، فبدأ له وحشًا كاسرًا يترجّع بعينٍ تلفه
غابة خضراء.

أشاح بوجهه عنه بعيدًا، ولكنه أحسّ بأنّ هناك من يراقبه ويتابع حركاته،
يسحب هواء الغرفة بأنفاسه المتلاحقة؛ فأسرع ينظر لعيني الأسد تارةً أخرى،
ويقترّب منه شيئًا فشيئًا، وتأمل عيني الأسد اللامعتين كما نصحت أمه!!
أحسّ لبرهته، كما لو كان ينظر إلى نفسه، فربّما بداخله قسورةٌ غاضب،
سيركض على حين غرّة، ويفتك بفريسةٍ ما، ربما سيسبّ عن الطوق.

ربّما سيزار، يثور، يصبح سيدّ العرين عمّا قريب!

ربّما، ربّما، لم لا؟!

أطلّ «لوي نُعمان الرَّاجح» بطلعةٍ بهيّة تليقُ برجلٍ راشد، لا بمراهق
مازال بمنتصف عقده الثاني وحسب.

فهو طويل القامة، عريض الكتفين، رياضيّ البنية،

كان الحفلُ كبيراً، والضيوفُ من صفوة المجتمع، وخاصته..

جلبت الحلوى، والمأكولات، والعصائر، والمشروبات الروحية «الكحولية» من أشهر الماركات من خارج البلاد.

وقد توالى حضورُ أشهر المطربين، والمطربات المصريين، والعرب؛ لإحياء الحفل.

لقد أعدت السيِّدة الشهيرة «آسيا» كلَّ شيء في غضون يومين، من خلال مكالماتٍ أطولها لم تتعدَّ الخمسَ دقائق، فإنَّ مضاعفة الأجر جديرةٌ بتحقيق المآرب. والغايات، واستجلاب كلِّ ما لذَّ وطاب للروح والبدن!

من الآن من كبار رجالات الأعمال بمصر، وخارجها، لا يعرف نجم الحفل، وملياردير السَّاحة القادم «لؤي»؟!!

لقد باتَ اسمه أشهر من النار على العلم كما يُقال عنه..

من هؤلاء الضيوف من تمنى لو كانت لديه ابنة في مثل عُمر الفتى الثري حتى يحظى به صهرًا له! وكم من أمٍّ ودَّت لو كانت ابنتُها أصغر سنًّا من عُمرها الحالي حتى تفوز به دون غيرها، فهو ذو مالٍ، وجمالٍ، وصيتٍ ذائع، لا بدَّ وأن يكون محطَّ أنظار الجميع.

انتهالت الهدايا الثمينة على الفتى؛ سيارات أحدث موديل، هواتف محمولة «وارد الخارج» حديثة الإنتاج لم تظهر بالأسواق بعد، عطور عالمية، حجوزات مُسبقة بأجنحةٍ خاصَّة بفنادق عالمية بعدة دول أوروبية متى حلَّ

بها الفتى، أو والدته؛ وجداها بانتظار استضافتهم. وغيرها من الهدايا الثمينة التي تنحبس فور رؤيتها الأنفاس، وتحار أمامها الأذهان!!

كان الحفل أسطورياً بحق، وكم تعجب بعض الحضور - رغم ثرائهم الفاحش - مآراً من البذخ، وإنفاق الملايين من أجل فتى مازال بهذه السن!! «لؤي» نفسه، كم تعجب من صنائع والدته، فقد بات أقرانه يغبطونه على ما يتمرغ فيه من النعيم، نعم.. كلهم أبناء أسر ثرية، ولكنه أكثرهم ثراءً.

لقد ألف تلك الحياة، ولا يمكن أن يعيش بمستوى أقل منها، واعتاد على أن يصبح واجهة لامعة بمجتمع الصفوة والنجوم، ولكنه لم ينخرط بعد بعالم «البيزنس»؛ فأمه ترى أنه لم يحن الوقت المناسب بعد لإطلاقه على نوعية أعمالها، ومشاريعها.

جل ما يعرفه عنها؛ أنها سيدة أعمال ناجحة للغاية فقط..

لم يسألها يوماً عن أي شيء يتعلق بعملها.. ولماذا يسأل، وهو الذي يجد كل ما تشتهي نفسه قبل أن يفكر فيما يريد؟!



(إرث القبانى!!)

مطلّع شهر مايو، عام ١٩٨٠م، ذات ظهيرة..

ألقى «رشاد القبانى» بنفسه فوق كرسيّ خشبيّ قديم قد اتخذ مكانه أمام مقهى شعبيّ، ومازالت قطرات العرق تتلأأ على وجهه الأسمر، وتبلّل لحيته المتناسقة، بينما يتنفس ببطء، وقد أثقل صدره ذلك العبء الثقيل المنوط به منذ توفّي والده «محمّوظ القبانى»، فقد ترك «محمّوظ القبانى» له تركّة من ثلاث إناث، هُنَّ أمّه «بسيسة»، وأختاه «هبة»، وأميرة».

شمل الشارعَ بنظرةٍ لا تنمّ على شيء سوى الرغبة في تناسي رحلته الروتينية اليومية التي لا تُسفر على جديد، وتنقله بين مكاتب الموظفين برئاسة الحيّ، عساه يحصل على موافقةٍ حكومية رسمية ليتمكن من إقامة مشروعه الذي قد لا يعرف العملَ بغيره.

فمنذ شهر تقريباً، بدأ الخدر يزحف نحو ساقيه، ولم يُعر الأمر أدنى اهتمام لأنّ من هُنَّ وراءه أولى بالمال، كمّ أثر هُنَّ على نفسه دون أن يفصح هُنَّ ألماً أو مرضاً أصابه..

جاءه صبيّ المقهى مبتسماً، ذلك الفتى الذي قد تعرّف إلى «رشاد» لتكرار مروره بالمقهى كلّ يوم أثناء ذهابه أو عودته من المصلحة الحكومية:

- شاي كالعادة يا أستاذ «رشاد»؟!

فيومئ «رشاد» مؤكداً، بينما يهمس لنفسه:

— ولو كان هناك شراباً أعمق من الشاي لطلبتة!

غاب صبيّ المقهى لدقائق، وعاد بكوبٍ ساخن من الشاي، وضعه أمام الشاب الشارد..

لقد استعادت ذاكرته وجه أبيه وهو يفترش الأرض بحانوته الضيق، وحوله قد تناثرت برادة الحديد فوق التراب، وبعض القضبان الحديدية، منها ما هو صديء، ولا مع، ويده مطرقة يدق بها حواف بعض القضبان المتوهجة، بعد صهرها حتى تلين، ويستطيع تشكيلها حسبما تستدعي حاجته.

تحالف كل من صهيد النار وحر الصعيد القائظ عليه من أجل لقمة العيش، وعندما كان الجوع يداهم، فما من وجبة متوفرة سوى قطعة من الجبن القديم شديد الملوحة، ورقائق من الخبر الجاف كجفاف أيامه.

كان اسم «القباني»، صانع الموازين، اسماً متداولاً على السنة بعض التجار الأمناء ببعض أسواق الغلال، والمواشي، والمحاصيل الكبرى بسوهاج، قبل ما يقرب من ثلاثين عاماً مضت؛ فهو تاجر الموازين الورع، حيث لا يقصده سوى التاجر الأمين الذي يراقب ربه في ميزانه، وفيما يزن، ويكيل للناس. بينما تروج بضاعة غيره من صانعي الموازين المغشوشة لما بها من تلاعب بكتل الموازين، وطالبوا هذه الموازين هم هؤلاء التجار الساعين للربح المتنامي على حساب الزبائن؛ لذا كانوا يصدون عن موازين «محفوظ» الدقيقة، ورغم ضالة مبيعاته، إلا أن الرجل ظل يتقن صناعته، ولا يعنيه سوى مراقبة ربه

فيما يعمل، وزيادةً في الإتقان؛ نقشَ صانعُ الموازين التّقي على موازينه قولَ الله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾..

تلك الآية المحفورة على ذراع الميزان، أو على وجه أثقال الموازين؛ لكفيلة بأن توقظ ضميرَ التاجر المخادع، بساعة صحوة ضمير، أو قد تُنفّر التاجر الجشع من شراء أحدِ هذه الموازين منه طيلة عمره، فزيادة المال «الحرام» تُعمي بصيرة بعض الناس، وتُكَمِّم صوت ضميرهم الغائب، ولأنّ مَنْ يشتري ميزاناً قد يستخدمه أعواماً كثيرة دون الحاجة لميزانٍ آخر؛ فقد بارت تجارة «محموظ القبّاني»، وولّى وجهه، وزوجته، وطفله رشاد شطرَ «المحروسة»؛ فهناك بالقاهرة الكبرى يقيم أخ له منذ زمنٍ، لعلّ وعسى أن يجد الرجل رواجاً لصنعتة التي عفى عليها الزمن هناك، ولكن الحال صارت من سيئ إلى أسوأ، فإنّ تجار القاهرة الكبرى أكثرهم أشره لجمع المال من تجار الصعيد، ففي العاصمة الكبيرة قد بلغ الغش، والكيل المغشوش أوجّه..

تقاذفت الذكريات برأس رشاد، حتى انتبه إلى صوت صبي المقهى يقول مبتسماً:

— ماذا يا أستاذ «رشاد»، ألم يعجبك الشّاي اليوم؟! لقد بردَ الكوب، ولم ترشف منه رشفةً واحدة، سأحضر لك كوباً آخر على حسابي!

استشعر صبيّ المقهى اللّمّاح ما بالشابّ التّحيل من شكوى مكبوتة داخله، فقال مُداعباً إيّاه:

— هل زرعتها عنبًا فطرحَ بطيخًا؟!

ثم ربت فوق كتف «رشاد»، وهو يقول بابتسامة مفعمة بالرضا:

— ألقِ بحمولك على الله، فرج ربك قريب.

ثم مضى القهوجي، وهو يصيح مجيبًا نداء أحد رواد المقهى:

— نعم، أنا قادم.

لقد حصل «رشاد» على «دبلوم التجارة» من إحدى مدارس التعليم الثانوي التجاري، وأحس أبوه بقرب أجله، فخطب إليه «سناء جودة» ابنة عمه التي لم تحصل إلا على الشهادة الابتدائية فقط، ثم حالت الظروف بينها، وبين مواصلة التعلم.

رحل «محموظ القباني» عن الدنيا، ومرّ عامان أتم خلالها «رشاد» زواجه من «سناء» في ظل ظروف معيشية قاسية، دون أن يتقن صنعة أبيه التي كانت، ثم أضحت باثرة، باثرة جدًا جدًا!!!

لقد ضاقت برشاد سبل العمل كملايين غيره، حيث طرق كل باب شركة، ومصنع بحثًا عن عمل يعينه على الحياة، خاصة وأنه قد أصبح العائل الأوحـد لأمّه، وأختيه، بعد رحيل أبيه.

اعتزم إتمام أوراق طلب امتلاك «كشك» بقالة من رئاسة الحي، ولكن يومًا بالمصالح الحكومية كآلف عام على مواطن لا ظهر له، ولا سند، الروتين هو المتحدث المائل المتأهب دائمًا للوقوف في وجهه!

عَادَ مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ، وَقَدْ بُرِيَ كَعْبَاهُ مِنْ أَثَرِ صُعُودِ سِلَاحِ الْمَصْلُحَةِ، وَنَزَلَهَا، وَالْوُقُوفُ لِسَاعَاتِ أَمَامِ مَكَاتِبِ الْمُوظَّفِينَ حَتَّى يَسْتَصْدِرَ مُوَافَقَةً لِفَتْحِ الْكُشْكِ الَّتِي يَحْلُمُ بِهَا.

الْمُوظَّفُونَ كَعَادَتِهِمْ، ذَوُو وَجُوهِ جَامِدَةٍ، وَكَأَنَّ دِمَاءَهُمْ بَاتَتْ جَلِيدًا غَيْرَ قَابِلٍ لِلذُّوبَانِ، أَوْ الْجُرْيَانِ؛ مِنْهُمْ مَنْ يَتَنَاوَلُ «سَانْدَوِشَاتِ» الْفُولِ، وَالْفَلَافِلِ، وَالْبَاذَنْجَانَ الْمَخْلَلِ، وَيَمْتَلِئُ فَمُهُ عَنْ آخِرِهِ، حَتَّى أَنْ أَحَادِيثَهُ بَدَتْ كَصَوْتِ مَذْيَاعٍ مَشُوشٍ، يَصْعَبُ عَلَى الْمُسْتَمْعِ أَنْ يَفْكَ شَيْفَرَاتِهَا.. وَمِنْهُمْ مَنْ يَرِشِفُ الشَّيْءَ مُسْتَمْتَعًا بِسَخُونَتِهِ الْإِسْعَةِ بِفَمِهِ، وَالْبَخَارِ يَتَصَاعَدُ مِنْ الْأَكْوَابِ الزَّجَاجِيَّةِ، فَيَشْعُرُ الْوَافِدُ عَلَيْهِمْ بِمَزِيدٍ مِنَ الْإِخْتِنَاقِ، وَانْسِيَابِ الْعَرَقِ عَلَى وَجْهِهِ، خَاصَّةً بِأَوْقَاتِ الذَّرْوَةِ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى مَكَاتِبِهِمُ الرَّتِيَّةِ، أَمَّا عَنْ الْمُوظَّفَاتِ، فَحَدَّثَتْ، وَلَا حَرَجَ؛ فَمِنْهُنَّ مَنْ رَاحَتْ تَكِيلُ الدَّعَوَاتِ بِالْهَلَاكِ وَسُوءِ الْخَاتِمَةِ، وَالْوَيْلِ وَالْثُبُورِ عَلَى حِمَاتِهَا الَّتِي تَحْرُسُ زَوْجَهَا عَلَيْهَا، وَتَوَسُّوسَ لَهَا بِالتَّقْتِيرِ فِي الْإِنْفَاقِ عَلَى الزَّوْجَةِ بِحُجَّةٍ أَنَّهَا أَمْرَةٌ عَامِلَةٌ، وَتَكْتَسِبُ الْمَالَ الْوَفِيرَ مِنْ عَمَلِهَا بِرِئَاسَةِ الْحَيِّ.

تَحْكِي الزَّوْجَةَ الْبَائِسَةَ، وَتَنْدُبُ حَظَّهَا الْعَسِرَ لِرَفِيقَاتِ الْمَصْلُحَةِ عَلَى مَسْمَعٍ مِنْ كُلِّ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ، حَتَّى أَنْ بَعْضُ صَاحِبَاتِ الطَّلِبَاتِ بَتْنَ يَحْمَدَنَّ رَهْبَنًا عَلَى حَالِهِنَّ كُلَّمَا سَمِعْنَ بِأَفَاعِيلِ بَعْضِ الْحُمُوتِ الْفَاتِنَاتِ «بِلِ الْكَائِدَاتِ» لَزَوَاجَاتِ أَبْنَائِهِمْ.

وَمُوظَّفَةٌ أُخْرَى أَخَذَتْ تَقْشُرَ الْبِطَاطُسِ، وَثَانِيَةً تُقَمِّعُ الْبَامِيَّةَ، وَثَالِثَةً تَقْطَعُ الْكُوسَةَ وَوَرَقَ الْمُلُوخِيَّةِ، بِحُجَّةٍ أَنَّ «سَيَّ السَّيِّدِ» زَوْجَهَا سَوْفَ يَصَبُّ جَامَ غَضَبِهِ عَلَيْهَا إِذَا لَمْ تُعَدِّ لَهُ الطَّعَامَ فِي مَوْعَدِهِ الْيَوْمِيِّ الْمَعْتَادِ بِالْدَّقِيقَةِ وَالثَّانِيَّةِ؛

أما مصالح الناس فلتذهب إلى الجحيم، فكل شيء يهون أمام خراب البيوت وتشريد الأطفال، «وكُلُّهُ كُوم، وزعل سي السيد كُوم آخر»، وأخريات أخذن يناقشن الزيادة المستمرة في أسعار الملابس، والأجهزة الكهربائية، والذهب، والأراضي، وغيرها..

بينما تتخلل أحاديثهن مصمصّة شفاههن؛ حسرةً على راتب لا يكفي أبسط الاحتياجات، والأمنيات المستقبلية كالحصول على شقة تملك تريجنهن من عبء الإيجار القابل للزيادة كل عام.. وعدم قدرتهن على امتلاك بعض قطع الحلي ليتباهين بها أمام الأقارب، والجيران بالمناسبات.

لفت انتباه «رشاد» تلك البقع الملونة التي تحيط بعيني «مدام سيّدة» الموظفة المعنية بالمرحلة الحالية من إجراءات الموافقة على امتلاكه الكشك، فقد كانت المسكينة تبكي، وتقصر على زميلاتها كيف كالأ زوجها البدن اللكها المتتالية لأنها لم تسدد فاتورة الكهرباء من راتبها الذي لم يتبق منه شيء أمس؛ فقد عادت إلى البيت بعد موعد الانصراف من العمل حاملة الخضروات، واللحم، وأكياس الشاي والسكر، بأخر ما كانت تملك من راتب الشهر الذي أوشك على الانتهاء، لولا بضع قطع نقدية معدنية لا تكفي لشراء إفطار الصباح التالي، وقد خلد الزوج إلى نوم عميق عقب عودته من العمل حتى تنتهي «سيّدة» من إعداد الطعام.. ولحظها البائس؛ فقد جاء محصل الكهرباء يطالبها بسداد فاتورتي الشهر الحالي والسابق، مما جعلها تضطر إلى إيقاظ زوجها من نومه تطلب منه مبلغ الفاتورتين.. نهض الزوج من نومه، وسار حتى باب الشقة، وألقى نظرة غضب على وجه المحصل، ثم أغلق الباب في وجهه دون أن يعطيه شيئاً من المبلغ المطلوب، ودون سابق إنذار

أنهال الزوج على المرأة المسكينة ضرباً، وركلاً بقدميه، ثم ذهب ليكمل نومه، وهو يلهث، حتى انتهت الزوجة من الطبخ، وهي تبكي بعينين متورمتين، فاستيقظ الزوج على صوت أحد الأولاد يقول له:

- ماما تقول إن الغداء جاهز يا بابا.

نهض الرجل، والتهم الطعام بشراهة، وشرب الشاي الذي أعدته «سيّدة»، ثم نام مجدداً، يرسل صوت شخير المزعج إلى كل أنحاء الشقة الضيقة، حتى الصباح.

ظل «رشاد» واقفاً أمام مكتب «مدام سيّدة» - في صمت تام - فيما تحكي مأساة الأمس، مُنتظراً توقيعها على أوراقه، ولكنه ولى مُدبراً، على استحياء كي لا يُثقل عليها بطلبه، فيها ما يكفيها من الهم، والعناء.

فهكذا هو بسيط الحال، أو «المواطن المطحون» كما يسميه الناس، يشعر بمن حوله، بينما لا يرنى لحاله أحد، وعلى كلّ فالموظفون والموظفات - غالباً - ما يردون الردّ نفسه على رواد المصلحة:

- مرّ علينا غداً يا حاضرة.

وغدّ يليه غدّ، حتّى مضت أشهر لم يُخص «رشاد» عددها، ولا جديد، والمال الذي ادّخره؛ قد بدأ بالتسرّب من بين يديه تسرّب الماء من بين الأصابع، وبطن زوجته ينتفخ مُندراً بقدوم أول طفل له، ولم يتحقّق الحلم الصغير بعد.



فجرُ الأول من أكتوبر ١٩٨٣م

فزَع «رشاد» على أنات زوجته «سناء»، تلك الأنات المتسللة من ناحية صالة الشقة، والتي حاولت أن تتكتمها قدر استطاعتها، حتى لا تُقلق راحته، إنها تلد!

أُسرع بإيقاظ أمه، واستدعاء أخته المتزوجة التي تسكنُ بالجوار، بينما أرسل أخته الصغرى المخطوبة لابن خالتها إلى «أم خيرى» «الدّاية»، القابلة المُسنّة التي يقصدها الجميع عند ولادة واحدةٍ من نسوة الحيّ الشعبي العريق.

مضى من الوقت القليل، حتى تفتّحت عينا مولوده الأول «شريف» على الحياة، وملأتُ صرخاته جنبات المكان.

حملتُ «بسيمة» والدّة «رشاد» المولود الملتفّ بغطائه القطني الأبيض الناصع، إلى حيث أبيه، وهي تقول في حبور:

— ولد يا «رشاد»، ولد يا بُني.

لقد أتى الولد، والكتفُ الذي سيستند عليه الأب عندما تخور قواه، ويبلغ من الكبر عتياً، لقد جاءته أخيراً؛ يدُ ستُنهضه إذا خائته ساقاه، ولم تقوَ على حمل جسده.

لقد جاء «شريف» الذي لا بدّ وأن يعيش شريفاً كأبيه، مطعمه حلال، ومشربه طيب، وملبسه من نسج عرقه النقي.

عندما علمت «مدام سيّدة» بمولد «شريف»، عجّلت بإنهاء إجراءات الكُشك من أجل «رشاد» وأسرته؛ من باب الإنسانية، وربّما شفقة عليه من مزيد الانتظار والتردد على مكاتب الموظفين الغارقين في مُستنقع الرّوتين المميت، فالرّوتين يقتل أرواحًا، عندما تتوقّف حياة إنسان - عندما يتعلّق الأمر بعملية جراحية أو بصرف دواءٍ ما - على إمضاء موظّف غائب أو متكاسل، وكذلك قد يُجيع الرّوتين أسرة، أو يهدم بيتًا، أو يُفرك بين زوجين قد ضاق أحدهما ذرعًا بحاله مثل «رشاد»، فهو نموذج لملايين تقف سعادتهم عند حدود سنّ قلم يرسم إمضاءً لن يستغرق ثوانٍ معدودة!!

وتحقّق الحلم الصغير، واتّخذ «الكُشك» مكانه أمام مدرسة ابتدائية، «خاصّة» للتعليم الأساسي، والإعدادي.

جمعت «أمّ رشاد» قطعًا ذهبية ضئيلة، كسلسلتها الذهبية خفيفة الوزن، وخاتم ابنتها الصّغرى، وكذلك قرط «سناء» زوجة رشاد، بالإضافة إلى بعض الجنيهات التي ادّخرتها قبل سنوات.. وأعطتهم لوحدها كي يتمكن من جلب بعض المخبوزات، والحلوى، والمثلجات، والعصائر كي يملأ الكُشك الجديد بما يحتاجه المشترون؛ فقد باتت آمالُ الأسرة كلّها معلّقة بهذا الكُشك الصغير، متحيّنة يوم افتتاحه، ذلك العيد المتّظر لكلّ أفراد الأسرة.

لن يجرؤ أحدٌ على إزالة الكُشك، فهو قائمٌ الآن بقوة القانون، فالقانون في بلادنا سيفٌ بتّار، له السيادة والهيمنة التامة، خاصّةً على رقاب البسطاء، والمُعدين، لا يتلّكأ في الحُكم عليهم بأحكامه الرّادعة، أمّا في شأن الأثرياء..

فأحياناً قد يأخذ غفوةً ما، أو يُبدّل سرعة عقارب ساعاته، فيقول كلمته سريعاً حتى لا يُعطل مصالح الكبار.

علّقت لافتة بأعلى واجهة الكشك، تحمل عنوان:

(بقالة «الشريف»)..

عندما طلب الأبُّ من أحد الخطّاطين كتابة اسم «الشريف» فوق الياطرة الخشبية المستطيلة؛ كان يتخيّل ولده يقف بنافذة الكشك - بعد يومه الدراسي - وقد بدا شاباً يافعاً يبيع ويتقن عدّ النقود، والحساب جيداً.

هَبَّيْ لرشاد كذلك، أنّه يجلس أمام الكشك يتصفّح الجريدة اليومية من خلف عدستي نظارة طَبَّية سوداء الإطار، وقد صار كهلاً، يغطي رأسه الشيب، ويُخفي ظهره الشَّقَاءَ ومروُرُ السنين، وابنه يقف بدلاً منه يتوافد عليه المشترون؛ لحسن تعامله معهم، وابتسامته الرائقة في وجوه الجميع، وما إنَّ ينتهي الابن من تلبية حاجات زبائنه حتى يُقبّل يدي أبيه طالباً منه الدعاء له.

لحظات، تخطّى بها حدودَ الزمن، فابتسم حتى دمت عيناها، وهمس يسأل نفسه وهو ينظرُ إلى وجه وليده الرضيع الذي يحتضنه، ويحمله بين يديه:

- تُرى هل سأعيش حتى أراك كما أتمنى، وأرجو يا «شريف»؟!

التقطتُ أذناً «سنا» مقولته، حيث كانت تقف متممة بالشكر لله، وتقول

في وداعة وهي تربت فوق كتف زوجها:

- إن شاء الله ستعيش يا «رشاد»، وسترى أحفاد «شريف»، يا أبا شريف..

نام «رشاد» هذه الليلة هادئ البال، منشراح الصدر..

فمنذ الصبح الباكر سيذهب لعمله بالكشك، آملاً في رزق يكفي متطلبات أسرته، ويمنع عنه ذل المسألة، ثم سرعان ما ركضت زوجته نحو الصنبور، وملأت له كوباً من الماء، وأخذت تنضح الماء على وجهه حتى يستفيق، فقد كان يصرخ بأعلى صوته:

- إلا ابني، لا تأخذووه، اغسلوا يديه من الدماء، اتركوه شريفاً، لا تدنسوه..

ضمته أمه العجوز، وأخذت تردد بعض سور القرآن الكريم بأذنه، حتى انتهت بسورة الفلق.. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ، وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾..

ثم قالت بصوت مرتعش:

- لقد أصابك الحسد سريعاً يا حبيبي! واستكثر الناس عليك الولد، والكشك الذي حفيت من أجله!!

ثم قالت لسناء:

- اذهبي، وأشعلي بعض الفحم بالمبخرة، واثني بها.

جاءتها زوجة ابنها بما طلبت، فنهضت المرأة تدرع الشقة جيئة وروحة حتى تنشر البخور في جميع زواياها، وهي تلهج بالدعاء بأن يصرف الله سوءاً عن ابنها، وأن يقيه شر الحسد، وعيون الحاسدين.

كانت عتبة الكُشك عتبة خضراء تجذبُ الزبائن، وتستقطب المارة، والرّزقُ وفير، والجهدُ المطلوب كبير..

ولكنّ «رشاد» أخذَ يذبل يوماً بعد يوم، طافت به زوجته، وأمّه كثيراً على أطباء كثر، لهم تخصصات شتى «باطنة، وقلب، وأعصاب» وغيرها، وكلّما أشار عليهم أحدُ الأطباء بدواءٍ أتَيْنَ به وإنْ غلا ثمنُه، حتى تكدّست العقاقير بجوار سريره، وتناوبت كلّ من أمّ رشاد، وزوجته الوقوف بالكُشك، ورعاية عائلهم المريض، لم تألُ أيّ منهما - وكذلك أختاه - جهداً لرعايته، وإعداد غذائه، والمواظبة على مواعيد دوائه، ولكنّ دون جدوى..

لم تنفك كوابيسه عن إفزاعه كلّ ليلةٍ دون انقطاع، كلّ ما يراه يتعلّق بطفله الرضيع «شريف»، فتارةً يراه وقد أحكم طائرٌ جراح مخالبه حوله، ثم ارتفع به عاليًا، حتى غاب عن ناظريه بجوِّ السّماء؛ وتارةً أخرى يراه يغرقُ ببحرٍ لا ضفاف له، وقد تحوّل لون مائه إلى الأحمر الغائم؛ وتارةً يراه يهوي بهوّةٍ سحيقة لا يرى قاعُها.

ومراتٍ، ومراتٍ يراه صبيّاً يافعاً، يتبع أناساً ذوي وجوهٍ قاسية الملامح، والقسّات، تقول له بصوتٍ جهّوري:

- «شريف»، اتبعني..

وأبوه يناديه، وأمّه ترّجوه إلّا يقتني أثرهم، أمّا جدّته «بسيمة»، فقد كانت تتوسّله باكية، ولكنّه أدار وجهه نحوهم، وقال لهم في حدة:

- لقد اخترتُ سبيلي، فدعوني وشأني، ولن أعود!

عندما فزع «رشاد» من نومه هذه المرة تحديداً، وجلس بمكانه فوق سريره، ولم تكن الساعة وافَتِ الرابعة فجراً بعد، وقد تهادى إلى مسامعه صوتُ شيخ من خلال الرّاديو بالرّدهة المقابلة لغرفة نومه يتلو قولَ الله تعالى:

- ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرَاهَا وُمرَسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزَلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصُمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ *﴾ ..

مسح «رشاد» قطراتِ العرق عن وجهه، واستغفرَ حتّى هدأت أنفاسه المتلاحقة، وأخذَ يسترجع الآيات السّالفة، ويتساءل في نفسه: هل سيصيب ابني مكروه؟!

- هل سأموّت قبل أن أراه رجلاً يافعاً، وعريساً ليلة زفافه؟!

في محاولاتٍ يائسة ظلّ يسأل نفسه أسئلة سوداوية زادت من اضطرابه، وتوتره، نادى زوجته بأعلى صوته، فأتت مسرعةً تحيب:

- أنا هنا بجوارك يا «رشاد»، كنت أصليّ ركعتين، وجلستُ بعدهما أنتظر أذان الفجر، هل تريد شيئاً؟!

- أين شريف؟! (سألها بفزع)

مزجت جوابها بابتسامةٍ رائقة، حيث قالت: - ابننا نائم بحجرة والدتك، لا تخف..

- لا تأخذوا طفلي بعيداً عني، أريده معي دائماً، (هدر بغضب).
طمأنته، رغم قلقها الذي وجد طريقه إلى ذهنها، وقلبها معاً، وقالت:
- سأتيك به في الحال، اهدأ..

جاءت تحمله برفق خشية أن يستيقظ، ويسبب لأبيه مزيداً من الأرق..
وضعتُه إلى جواره، تأمل «رشاد» وجه الصَّغير - الذي لم يتجاوز الشهرَ
ونصف من عمره - ملياً.. وضمَّ يده الدَّقيقة بكفه، وقبَّلها، ثم خلدَ إلى نومٍ
عميق، ما من طيب، ولا قريب يدركُ سرَّ ما آلت إليه حالُ «رشاد»، تُرى قدَّ
أصابه حسدٌ كما تُرجَّحُ أمه، أم أنَّها هلاوسُ مَرَضِيَّةٍ قد اعترته فجأة؟!
أفاق للمرَّة الثانية بعد غفوة قصيرة، وما زال الشَّيخ المرتل، يتلو قوله
تعالى:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ
أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا
تَسْأَلُنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ *﴾..

أصاح «رشاد» مسامعه إلى جزءٍ من الآية الأخيرة..

«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ»..

ذلك الجزء، الذي ظلَّ يتردَّد على مسامعه كثيراً؛ يبقظته، ونومه، حتَّى كادَ
رأسه يتحطَّم.. فلماذا علقتْ هذه الآية بعينها برأسه؟ هل كانت يقظته عند
آيات بعينها محض قدر، أم أنَّ ما علق برأسه يحمل بين طيَّاته رسالة ربَّانية
ذات مغزى!!؟

تلَفَّت حوله، فإذا الحجرَةُ كما هي، هادئة، يضيئها ضوءُ المصباح «السَّهاري» المريح لأعصابه، يغطُّ طفله الرضيع بجانبه في سُبَات عميق.

انتهتِ التَّلَاوة، واستعدَّتْ المحطَّة الإذاعية للانتقال إلى بثٍّ خارجي لنقل شعائر صلاة الفجر من مسجد «عمرو بن العاص» بمصر القديمة.

نهَضَ «رشاد» ببطءٍ بقدر ما سمحتُ به قواه الخائرة، وسارَ بضعة خطواتٍ حتى صالة الشقة، فإذا بزوجه جالسة فوق سجادة الصلاة، تدعو في همسٍ، وتجري دموعها على وجنتيها..

أدركَ آنذاك، أنَّها تدعو له بالشفاء والعافية، وتخشى فقده، فتظاهر بالعافية، وتنحنح حتَّى تنتبه إلى وجوده، قامت تُهرول نحوه، تقول في فزع:

- «رشاد»، ماذا بك؟ لماذا قمتَ وأنت مُتعب؟ ماذا تريد حتى أحضره لك؟!

- اهدئي يا «سناء»، أنا بخير. (طمأنها في هدوء)

صدَحَ نداءُ الفجر.. «الله أكبر»، فقال «رشاد» بصوتٍ يغالبه الوَهَن:

- سأتوضأ وأصلي، ثم أعودُ إلى فراشي ثانيةً.

مضى ما يقرب من عامين، والصَّغير «شريف» ينمو، ويشتد بنيانه، ظهرت أسنانه، ضحكُه وبكاؤه يملآن جنبات البيت، والكُشْكُ أحياناً، كلّما حملته أمّه أو جدّته إلى هناك.

بدأ يحبو، ويحبو.. حتَّى مرقد أبيه، ويتشبَّث به حتَّى استطاع الوقوف على قدميه بعد محاولاتٍ لا حصرَ لها.

لم يصدّق «رشاد» ما رأت عيناه؛ إنّ الولد يقف، ويسير خطوات معدودة، معتمداً بيديه الصّغيرتين على حافة السرير، أحسّ - وقتها - الأبّ بالعافية تسري بأعضائه، يريد أن ينهض، لقد استمدّ قوّته من ضحكات الرّضيع الصافية، ورنّة صوته، وهو ينطق بحروف كلمة «پااا پااا»، وكأنّ معجزة ربانية عاجلة قد حلّت بجسد، فقام وحمل ابنه، ودماء العافية تجري بعروقه، طلب إلى زوجته أن تُعدّ له وجبة شهية فقد أحسّ بجوعٍ شديد يداهمه.. كم فقد من وزنه حتّى صار نحيلًا إلى حدّ مخيف!

أسرعت «سنا» تُعدّ له الطعام، وهي تلهج بالحمد والشكر للشّافي المُعافي، بينما أخذ يداعبُ الطفل، حتى جاءته بما تشتهي نفسه؛ لحم، وحساء، وأرز، وسلطة خضراء.

ودّت لو استطاعت جلب كلّ طعام بالبيت من أجله، تناول لقيمات قليلات، ثمّ قال لزوجته، وأمّه، وأخته الصغري «أميرة» المتحلّقات حوله:

- أريد الذّهاب إلى «الكُشك» الآن؛ فقد اشتقتُ للعمل.

همّت والدته بمراجعتة فيما قال، فقاطعتها بإشارةٍ من يده النحيلة:

- كفاكُنّ تعبًا من أجلي.

ثمّ وقف وسط نظراتهنّ المترقّبة المتوجّسة خيفةً عليه، ولكنّه سقط أرضاً لفرط الوهن، الذي تملك من جسده لما يقربُ من عامين.

تعافى الشاب بعض الشيء، وعاد إلى عمله، ربّما شفي بدعوات أهله، وجيرانه، ومحبّيه، ولعلّها ثمرة صدقة السر التي كانت تُخرجها أمّه من حين لآخر للفقراء والمساكين بنية شفاء ولدها، وباتت «سنا» تحمل بأحشائها طفلاً ثانياً، و«شريف» ابن ثلاثة أعوام تقريباً، ولكن ما هي إلا أشهر ستّة، وورق «رشاد» طريح فراشه ثانية بلا سبب واضح، وحدها أمّه هي التي تعرف سرّ عافيته المفاجئة تلك، ولكنها أثرت الصمت، حتى لا يقع ما تخشى وقوعه.

خلال ثلاث سنوات مرّت، قد هزل «رشاد» خلاها، ولكنّه لم يشكّ آلامه لأحد، رغم أنّه كان يُغالب وهناً يُحطّمه ببطء، يحطّم فرائصه، ويهشّم عظامه، «ماذا أصابه؟!». سؤال تردّد بخاطر أسرته كثيراً.

تتابع أمّه ذُبوله، وقد وجف فؤادها ارتعاباً عليه، ولكنها كانت تتكتم مخاوفها، معتقدة بأنّ مجرد التفكير في احتمالية موته فال شؤم، لا يجب أن تدعه يسيطر عليها، وينتقل منها إلى بقية الأسرة فتصير حياتهم كالحة، هو نفسه تحيره حالته النادرة، فلا دواء، ولا غذاء يُجدي معه نفعاً.

يخشى أن يأتي يوم لا يطالع فيه وجه صغيره الجميل، في حين أن كوابيسه مازالت تلاحقه وتُفزع به بأوقات متفاوتة، كلّها تتعلّق بذلك الولد، كلّها تجعله يتمنّى الموت على البقاء حتى يرى بابنه ما يكره.. أمّا «شريف» فقد كان ينمو، ويزداد جمالاً، إلى حدّ جعل كلّ من يراه يتعجّب، ويظنّ بأنّه ليس ابن «رشاد» و«سنا»، فقد كان وسيماً كطفل إنجليزي ساحر الطلعة.

نعم.. هو وسيمٌ إلى حدّ جعل جدّته «بسيسة» ترجو أباه وأمه أن يُخفياه عن الأنظار، وأن يدعاه بالبيت معها وقت وجودهما بالكُشك، ولكنهما لم يستجيبا لها دائماً، فتارة يتركانه معها حتى يعودا، وتارة أخرى يصطحبانه معها حتّى يستنشقُ هواء الصّباح العليل، وجهه يزداد جمالاً ممّا جعل جدّته «بسيسة» تقول، وهي تضحك:

- صحيح، «العرق يمدّ إلى سابع جدّ».

فربّما كان لطفلكما جدّ كان يشبهه، قد يكون جدّ جدّه، أو حتّى جدّ جدّ جدّ جدّه، الله أعلم!

بدأت شهية الصّغير تنفتح على ما تعدّه له أمّه من الطعام، وأخذ يُسابق أيامه، يبدو بسنّ الخامسة، وهو الذي لم يكمل عامه الرّابع بعد.. يمرح، ويثرثر، وتلتقط أذناه ما تسمع من كلمات فيردّها، كلّ شيء فيه عجيبٌ مثيرٌ للدهشة.

الجدّة «بسيسة» تتعاهده بالرّقية، وتُطلق البخورَ بالبيت من حينٍ لآخر، وتحمل المبخرة، وتحركها فوق رأسه بحركاتٍ دائرية، وهي تقول:

- الله أكبر في عيوننا جميعاً، وفي كلّ عين رأتك يا «شريف»، ولم تُصلّ على النبي صلواتُ الله وسلامه عليه. أصبحتُ مهووسةٌ جدّاً بخوفها من إصابة حفيدها بالحسد. لمَ لا؟ فهو أجملُ أبناء الحي، وربما لأنّه يسبقُ عمره، وينمو بمعدلٍ ملحوظ، وربما لأنّه امتداد أبيه، ورائحته التي قد لا تبقى سواها لها يوماً!

كلما خرج الصغير برفقة أحد أبويه اضطرب قلب الجدّة، وساورها
الخوف والقلق من أجله.. حتّى أخذت تتساءل في نفسها:

- تُرى خوفي عليه لأنّه أوّل حفيد تراه عيني، أم لأنّه مميّز بين جميع الأطفال
العاديين، أم لأنّي سوف أفقدُ ابني «رَش - -»، لا.. لا. فتُسرع بالاستعاذة
بالله من وساوس الشيطان.

هواجسها تطاردها باليقظة والنام حول ابنها البار، وحفيدها المستقرّ
بأعماق القلب.. فما أقسى قلق المحبّ على مَنْ أحبّ!



مساء ٢١ مارس ١٩٨٦م

شقَّ بكاء مولودة جديدة أجواء بيت «رشاد القباني»..

لقد وضعت «أحلام» طفلةً مليحة كأخيها، وعادت الحياة تبتسم للأسرة

من جديد مع قدومها..

هشَّ «رشاد»، الذي أكلَ المرضُ على مائدة جسده، وشرب طيلة، وتهلَّلت أساريه عندما سمع صوتَ الصغيرة، وأمّه تخبره، ورنّة الفرحة في سمعها تبشّره، وهو ممدّد على فراشه يغالب وهنه الذي اشتدّت ضراوته عليه مع قرب قدوم المولود الثاني:

- رزقك الله بنت جميلة يا «رشاد» يا حبيبي، تُربّي بعزك يا بُني.

قال بصوت خفيض:

- الحمدُ والشكر لله، كنت أمتنى أختًا لشريف، وقد منّ ربي عليّ بها، لذا

سأسميها «منّة» يا أمي.

امتلاّت عينا «بسيسة» بالدموع، وقد رقت لحاله، فهو لم يستطع النهوض للاطمئنان على زوجته النَّفساء، وطفلة الوليدة، وقالت في محاولة للتظاهر بالتهاوسك أمامه:

- اسم جميل يا بُني، إذا هي «منّة»، ونعم الاختيار.

ثم خرجت مسرعة من حجرته، لكيلا تنشج أمامه، فتزيد من متاعبه،

وهي تهمس:

- ليتني أعرف ماذا بك يا نور عيني، ماذا أصابك يا بُني؟! لو كان بيدي

لأعطيتك عمري حتّى تُشفى، وتبقى لأطفالك؛ لفعلت.

(في مواجهة الشرّاذم) ..

يناير ١٩٨٥م

ما زال الكُشك قائماً، وما زالت سيّدتان تديرانه بالتّناوب فيما بينهما..
«بسيمّة»، و«سّناء» تتناوبان الوقوف بالكُشك، و«سّناء» شابّة جميلة، يطمع بها
بعضُ الزّبائن الرّجال ممّن يتردّدون على الكُشك للشّراء، فمنهم من يترك لها
باقي الحساب؛ علّها تفهم مراده منها، ولكنّه ما أن يقلّ لها:

- خُذي ما تبقى لي من نقودٍ لكِ.

حتّى تلقي بالنّقد في وجهه، فيذهب مخذولاً يائساً..

من هؤلاء الزّبائن من لا يعود للشّراء منها تارةً أخرى، ومنهم من يكرّر
المحاولة كثيراً، فربّما تليّن وتستجيب له، فالدقُّ على الأذان أقوى من السّحر،
ولكن دون جدوى، فهي لا ترى بالكون سوى زوجها «رشاد»، وطفليها
«شريف، ومنّة»، تعيش من أجلهم فقط، فمن ذا الذي يستطيع اختراق
حصن امرأةٍ مثلها!!

وكم، وكم تعرّضتِ الزّوجة الشّابة لمضايقات جمّة، وتحرّشات لفظية لا
تعدّ، فأكثر المحيطين يعرفون بمرض زوجها، وبأنّه بات طريح الفراش، ولو
نهض ساعة سيرقد بالمقابل ساعاتٍ وأيام، وأنّه أضحى يذبل كزهرة طوى
رونقها الخريف بعواصفه العاتية؛ لذا فقد أصبحت فريسةً لذوي الشّهوات
وعديمي الضمير.

ذات يوم؛ قد جاء أحدهم لِيَتَاعَ زجاجةَ مياه معدنيّة، فأعطته إيّاها، فيها حاول أن يُمسكَ يدها، وهو يقول:

— سأظلّ ظامئًا حتى تمنحيني فرصة الارتواء من مَعيْنِك.

وآخرُ جاء، واشترى بعضَ الحلوى لابنته الصغيرة، وقد غافل زوجته «الدّميمة»؛ حسبَ نعتِها.. تلك الزّوجة التي تجلسُ بسيارته، وقال لسناء هامسًا:

— أنظري إلى هذه الجالسة بسيارتي حتى تعرفي أنّي لم أتزوج بعد.. أنتِ فقط منْ تستحقّين الجلوس إلى جوارِي بالسيّارة، وليست هذه القبيحة!

وثالثٌ جاءها مساءً، ورأسُه مُثقلٌ بفعلِ سيجارٍ محشوٍّ بالحشيش، يقول لها بلسانٍ خدر:

— تعالي معي ساعةً واحدة، وسأعطيك كلّ ما تُريدين من المال، هذا ليس مكانك الذي يليق بك، مكانك عندي أنا فقط، بفراشي! كان أكثر هؤلاء الرّجال وقاحةً معها هو «سمير المجرى»، رائد ومعاون مباحث بقسم شرطة بالمنطقة؛ فكُم راودَ «سناء» عن نفسها، وهدّدها بأنّها إذا لم تستجب له، وتأتي حتّى مكتبه بالقسم متى طلبها؛ فسيهدمُ الكُشك فوق رأسها، وسيريّها من الهوان، ما لا تتخيّل، أو تحسب، وكم أوعزَ إلى بعض رجاله بالقسم أن يأخذوا منها ما يشتهون دون أن يعطونها ثمنها، كما لو فرضتُ عليها «إتاوة»، لا بدّ من دفعها لِشُرْذمةٍ من البلطجية والسّكّارى كي تتجنّب غدراتهم، وشرّهم المستطير.

عكف «سمير المجري» على مراقبة «سناء» ضحيته الجديدة دون أن تلاحظ وجوده بالقرب.. تسلل إلى نفسه شعورٌ بالعجز أمام ثباتها، ورمي النظرات الخبيثة صوب بطنها الذي أخذ يكبر تدريجيًا، وأصبح يلعن حظه، ونصيبه الذي جمعه بزوجه المتسلطة التي تسبّه، وتمنّع عليه من حين لآخر، وتعيّره بأنه أقلّ ممّا كانت تتطلّع إليه في زوجها، وأنها هي ابنة أخت المحافظ، وابنة لواء متقاعد؛ حيث لا تليق بها الحياة معه بذلك المستوى المتدني، لقد واجهت «سناء» أكثر تلك المواقف بالصمت حينًا، وبالتجاهل أحيانًا، حتى لا يظنّ بها الناس سوءًا، وحتى لا تجلبّ لزوجها المتاعب والمشاكل.

مأساتها.. هي مأساة مئات؛ بل آلاف النساء بمجتمعنا هذا، فالمرأة هي المدان الأول، والوحيد في نظر الجميع؛ لذلك قد خشيت «سناء» ظنّ سوء من المحيطين، وخشيت أكثر أنه لو علم «رشاد» بما تلاقيه، فربما يقرّر إغلاق الكُشك، فهو مصدرُ رزقهم الوحيد، كما أنّ حماها «بسيمة» تقوم بتجهيز ابنتها الصغرى للزواج من عائده، حتى جاءت الشابة المكافحة ذات ليلة بالحادية عشرة مساءً، وقد بدا الإجهاد على وجهها البريء، فقامت «بسيمة» كي تُحضر لها العشاء بعد أن خلد كل من الزوج والطفلين للنوم، ولكن «سناء» رفضت تناول الطعام، وبدلت ملابسها، ثم جلست تشاهد التلفاز، وقد أطفئت مصباح الرّدهة، لم تُردّ مشاهدة التلفاز، بل تصنّعت ذلك، بينما كان خلدّها شاردًا في حال زوجها وحالها، وما تجدّ من مضايقات طيلة بقائها بالكُشك، حتى انهمرت دموعها فوق وجنتيها من دون صوت، ودّت لو صرخت ممّا يؤلم فؤادها.

ولكن «بسيسة» زوجة عمها، وحاتها الرءوم، كانت تحسّ بما يعتمل في نفسها، فهي أمها الثانية، التي ربّتها كابنةٍ ثالثة لها بعد وفاة أمها، ثم رحيل أبيها بعدها.

كان لسناء أخٌ وحيد هو «فرغلي»، ذلك المتخاذل الذي لا يُعير لأحد اهتماماً سوى أسرته وحسب.. كم تخلّى عن أخته بمواقفٍ عصيبة كانت أحوج ما تكون بها لسؤاله عنها، ودعّمه إياها؛ فاعتبرته ميتاً منذ زمن!

سألت «بسيسة» وهي تضمّ «سناء» إلى صدرها:

- ماذا بك يا ابنتي؟! برّبكِ أخبريني ما الذي يُبكيك؟!

لقد ناءت نفسُ الزوجة الشابة بما حملت، فقصّت على حماها كلّ ما يزعجها، وخاصةً مُضايقات «المجري»، وتهديداته الصريحة لها، كلّها مرّ بها.

أشفقت «بسيسة» عليها، وقالت لها متسلّحة بقوة إيمانها:

- قدّمي فوق قدمك، لن أترككِ وحدكِ من الغد، وليرني كلبٌ من هذه الكلاب كيف سيقترّب منك، وأنا معك.

لقد توهّمت «بسيسة» أنّ أمثال «المجري»، قد يجعلون لشيبتها اعتباراً، ولوجودها إلى جانب زوجة ابنها؛ سيصرفُ مكرهم عنها، لم تعلم بأنّ هؤلاء، ومن على شاكلتهم لن يرقبوا في امرأتين مثلها إلّا ولا ذمة.

شهقت «سناء» فرعة، وهي تقول:

- و«رشاد» والصغار لمن سنتركهم، إنّ «أميرة» مازالت صغيرة على تلك المسئولية المُرهِقة يا أمي.

أمسكت «بسيسة» بيدها، وربت عليها برفق، وقالت:

- ستولّى أميرة رعاية «رشاد» حتى نعود معاً من الكشك، فهي على وشك الزواج، ولا بدّ أن ترعى أباها، وأما الأطفال فسنصحبها معنا كلّ يوم، اطمئني.

تقدّم شابّ من الجيران يطلب يد أخت رشاد الصّغرى «أميرة» قبل أشهر، ولم يبق سوى شهرين تقريباً على زواجهما، وما زالت «بسيسة» لم تكمل كافة احتياجات ابنتها من ملابس وأواني وأجهزة كهربائية، وغيرها.. إذاً فعليها؛ بمزيد من العمل، ترشيد الإنفاق، والادّخار.. وقد كان، وتعاونت كلّ من «بسيسة» وزوجة ولدها «سنا»، وجدّتا بعمليهما حتى استطاعتا إكمال مستلزمات العروس الصغيرة على أكمل وجه، وزُفّت «أميرة» كالأميرة إلى بيت زوجها، بينما كان «رشاد» مسترخ فوق «كرسيّ متحرك» تدفعه الزوجة الصابرة في غير ضيق، لقد اصطحبته زوجته إلى طبيب أعصاب ألماني شهير؛ علمتْ بقدمه إلى مشفى «القصر العيني الفرنسي» عن طريق فاعلي الخير، فجمعت كلّ قرش حتى تمكّنت من ادّخار مبلغ الفحص السريري لزوجهما، والذي تمّ تحديده على أن يكون بساعة مبكرة من صباح أوّل يوم لزواج أخته.

وقد أكّد الطبيب إصابة «رشاد» بمرض «MS» أي (مرض التصلّب المتعدّد)، في ضوء على ما ظهر عليه من أعراض تدلّ على هذا المرض تحديداً؛ «كضبابية الرؤية، والتمميل، الوخز بالأطراف، اختلال التوازن، عدم القدرة

على الحركة بحرية، الإرهاق المستمر، الضعف العام، ووهن العضلات الهيكلية، اكتئاب، وعدم تركيز.. كلها أعراض تؤكد إصابته بهذا المرض النادر.

كانت الطبيبة المصرية المرافقة للطبيب الألماني تُترجم تقرير الطبيب لِسَاءَ بأسلوب هادئ مُبسّط دون أن يسمعها «رشاد» المُمدّد فوق سرير الفحص الطبي، وإذ بالزوجة الشابة تسأل في فزع:

— دكتورة، هل يمكن أن ينتقل هذا المرض للأبناء؟!

هنا انتبه «رشاد» لسؤالها، ولكنه أسرها في نفسه، وظنّ أنه لا يعينها، وأنّ قلقها لم يكن سوى على ابنها فقط، فأسرعت الزوجة الطبية، تقولُ بتلعثم:

— لا يهّم يا دكتورة، فأنا تاركة الأمر لله، ولا يعينني الآن سوى شفاء زوجي.

أدركتِ الدّكتورة «ريهام» ما يعتري «سناء» من توتّر، فقالت بصوت واضح حتى يسمعها «رشاد»:

— زوجك سيكون بخير يا سيّدي، ومرض التصلّب المتعدّد لا يُورث للأبناء، لا تقلقي.

ابتسم «رشاد» ابتسامةً مُغتصبة، تصنّعها كي يوهّم زوجته بأنه بخير.. جذبتِ الطبيبة «سناء» من ذراعها إلى خارج حجرة الفحص، ثم قالت لها بهمس:

- سيّدي، أراكِ امرأةً صابرةً، فزوجك قد يُشفى، وقد تسوءُ حالته أكثر من ذي قبل، لا أحد يمكنه أن يجزم بما سيأتي.

- ألا يوجد أملٌ في شفائه؟! (سألت «سناء» الطبيبة)

ابتسمتِ الطبيبة، وهي تشدّ على يدِ سناء:

- الأملُ في وجه الله موجودٌ طبعاً، ولكن هذا مرضٌ نادر، وقد تمّ اكتشافه حديثاً، فقد تجدينه يستجيبٌ للعلاج، وقد تحدثُ له انتكاسة لا تفسير لها يعقبها خمول دائم.

ثم استطردت:

- هذا المرض عجيب بكلّ المقاييس؛ فقد يستطيع المريض السير يوماً، أو يسير بعضَ الوقت، ثم تجدينه لا يقوى على الوقوف، والسير على قدميه؛ لذلك فقط يظنّ بعضُ ممّن يرى المريض يسير حيناً، ولا يسير حيناً آخر أنّه يخدعهم، ويدّعي المرض؛ لذلك من الجيد أن جئتِ لزوجك بكرسيّ متحرّك، فقد يحتاجه كثيراً الفترة القادمة.

التقطتِ الطبيبة نفساً عميقاً، وواصلت:

- يستهدف مرض الـ «MS» الجهازَ العصبي، فيسبّب التهاب الأعصاب المزمن، ويشدّ أثره؛ فيقضي تدريجياً على مادّة تسمى «الميلين»، وهي المادة التي تربط بين الأعصاب بالدماغ، تماماً كشبكة الهواتف المحمولة التي تربط بين جميع الأرقام والخطوط؛ حيث تتمّ بها كافة العمليات العقلية والحسابية.

عِنْدَهَا أَدْرَكَتْ «سَنَاء» سَبَبَ نَسِيَان «رَشَاد» لِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، فَقَدْ نَسِيَ ذَاتَ
يَوْمٍ اسْمَ ابْنِهِ الْوَحِيدِ «شَرِيف»، وَمَرَّةً أُخْرَى نَسِيَ اسْمَ ابْنَتِهِ الرُّضِيعَةِ «مَنَّة»،
وَمَرَّةً ثَلَاثَةً، وَرَابِعَةً، وَمِائَةً، نَسِيَ اسْمَ «الشَّاي» وَ«الماء»، وَغَيْرَهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ
الَّتِي يَرَاهَا بِصُورَةٍ يَوْمِيَّةٍ.

أَحْضَرَتْ «سَنَاء» الْعَقَاقِيرَ الَّتِي كَتَبَهَا الطَّبِيبُ، وَوَاظَبَتْ عَلَى إِعْطَائِهِ إِيَّاهَا
بِمَوَاعِيدَ ثَابِتَةٍ، وَلَكِنْ جَسَدُهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لِأَيِّ مِنْهَا.



(ثمة شيء لا يشتري)

سبتمبر عام ١٩٩٩م

حصل «لؤي» - ذلك الفتى الجامح، متقد الذكاء - على مجموع كبير بالثانوية العامة، أهله لالتحاق بكلية مميزة، على عكس ما تنبأ له بعض المقرئين، ولكن ما لا يعرفونه هو أن أمه «ناني» قد حرصت على تفوقه، حتى أن يصير طالباً بكلية «الاقتصاد والعلوم السياسية»، حتى يمكنه خوض الساحة السياسية؛ حيث المنعة، والقوة، والسلطة..

أحياناً، لا يكفي أن يكون المال وحده سبب القوة والغلبة بمثل المجتمع الحالي..

ودت أن يكون وزيراً، بل رئيس وزراء، وإن لم يكن كذلك فليكن سياسياً كبيراً بمجلس الدولة، أو على الأقل يصبح عضواً بالبرلمان.

بات «لؤي» على أعتاب العشرين من عمره، وما زال ينأى بنفسه، وتصرفه والدته عن خوض غمار مجال العمل، مازالت يداها ناعمتين، و«طلباته أوامر»..

مع مطلع عامه الجامعي الأول، لفتت انتباهه حسناء رقيقة، وهو الذي لم ترقه بنات حواء يوماً، وكم التقى بحسنات عالم البيزنس، وبنات الكبار، وكم توددت إليه بعضهن بل أكثرهن، ولكن أي منهن لم تحرك مشاعره أبداً،

ولكنّه أضحي الآن يراقبُ حسناؤه الفاتنة «عادة أبو هاشم»، ابنة قاضٍ بمحكمة النقض، لقد سأل عنها، وجمع كلّ المعلومات المتعلّقة بها تقريباً.

وأصبح يتحيّن قدومها، ويتقرّب منها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، أمّا هي.. فقد كان لقلبها رأيٌّ آخر، ووجهةٌ محدّدة؛ فقد لاحظ «لؤي» انجذابها لطالب بالفرقة الرابعة معهما بالكلية ذاتها، يكبرُها بثلاثة أعوام، إنّهُ فتاها الذي شغفها حبّاً، «أدهم الرّوبي»، وهو ابن محام شهير.. قد جمعتُ ساحاتُ المحاكم بين والديهما، حتى صارتُ بينهما صداقةٌ وطيدة، زاد من قوّة أواصرها تبادلُ العائلتين للزيارات، والمصائف، واللّقاءات ببعض النوادي الكبرى. استمالَ «أدهم» قلبَ «عادة» بثقافته الواسعة، وشهامته الجليّة بعدّة مواقف، وقبل كلّ ذلك إنسانيّته، وخِفة ظلّه، وعندما علمتُ - وهي بالصفّ الثاني من المرحلة الثانوية - بأنّه طالب بالفرقة الثانية من كُلية الاقتصاد والعلوم السياسية؛ عزمت على الالتحاق بالكلية نفسها حتّى تظلّ بقربه رغم نصائح أبيها لها بضرورة الالتحاق بكلية الحقوق حتّى تسلك دربه القانوني، وتدرّجه حتّى منصب القضاء. ولكن.. إنّ للحبيب سلطاناً على قلب المحبّ بلا مُنازع.

لقد بادلها «أدهم» مشاعرَ الحبّ كالتي تبرّعتُ داخلها، وزيادة..

تعدّدت زياراتُ أسرة «أدهم» لأسرتها في ظلّ المسموح والمعقول، يعاونها بمذاكراتها، يشرح لها ما يتعثّر عليها فهمه، يشدّ من أزرها حتّى حصلت على ذلك المجموع الذي جعلهما يلتقيان يومياً بالجامعة، ويتناولان غداءهما معاً،

يتحاوران، يتضحكان، يعودا معًا سيرًا على الأقدام لساعات بعد انتهاء المحاضرات.

كلما وجدت متسعًا من الوقت بين محاضراتها، جاءت وجلست إلى جواره وشاركته حضورَ محاضراته، وهو كذلك.. كم شاركها حضور محاضراتها، وتدوينها نيابة عنها، كلما كان بالقرب، كانت دُنياها أجمل، باتا يتحينا تخرُجها في الجامعة، حتى يجمعهما عش الزوجية الذي حلما به طيلة سبع سنواتٍ وبضعة أشهر.



لم يكن «لؤي» هو ذلك الشخص الذي يحترم المشاعر أو الظروف، كل ما يريده كان يحصلُ عليه منذ نعومة أظافره، فلا بد أن تكون «غادة» له، له هو دون غيره، وبأي ثمنٍ كان!

ظلَّ يطاردها، يسعى لإغرائها بهاله، وجاهه، وثرائه، ولكنها لم تستجب له.

بانتهاء عامِهما الدراسي الثاني بالجامعة؛ لم يُطق فتانًا المدلل صبرًا، وراح يصارحها بما يجيشُ في صدره نحوها، بينما كانت تنتظر «أدهم» بين المحاضرات:

- أنا أحبك يا «غادة»، وسأجعلك ملكة لو قبلتِ الزواج بي.. لن أنتظر حتى أنهي دراستي، أنا على استعداد تام للزواج بك اليوم قبل غدٍ، فقط وافقي.. أرجوك!

وريتُ المليارات يتدَلَّل، ويرجو فتاةً قد سلبتُ حِسَّه وروحَه، عسى أن تتقبله زوجًا لها! مشهدٌ لم يكن يتصوره إنسان مَن يعرفونه، أو مَن التَّقوا به ورأوا بأم أعينهم، كيف كان يعزف عن حُبِّ بنات حواء!

دائمًا كانت إجابة «غادة» واحدة، لا تتبدَّل:

- أنا أحبُّ «أدهم»، وهو يحبُّني كذلك، وقد تعاهدنا على الزواج قبل سنوات، نمتُ أمانينا معًا، وبيَّنا ذكريات وحكايا لا يسعُك أن تفهمهما، يُلحّ، ويلحّ، ويحاول إغراءها بقوله:

- إنَّ حسنات المجتمع يتهاقن عليّ، ومنهنَّ مَن تعرضُ عليَّ الحبِّ والزواج، ولكنِّي أريدكِ أنتِ فقط.

- انزعني من رأسكِ يا «لؤي»، فأنا لستُ لك. (قالتها في حزم).

ثمَّ أنهت حديثها معه بقولها:

- أنا لأدهم، وأدهم لي.

ثمَّ هاتفتُ «أدهم» حتى يُسرِعَ القَدمَ ليذهبا معًا، كانت تشعر بالاختناق كلما اقترب منها «لؤي»، رغم وسامته ولياقته البدنية، وتميَّز هندامه، وسيارته التي يتجاوز ثمنها مليوني دولارًا أمريكيًّا.

كانت مقولتها الأخيرة «أنا لأدهم، وأدهم لي» بمثابة طعنةٍ غائرة بقلبه الذي لم يعرف الحبَّ قبل أن يراها. ذلك الثريّ مسكينٌ للغاية، حيث لم تُلَقَّنه أمّه «آسيا» أنَّ «الحُبَّ لا يُشترى بالمال، ولا يُجلبُ ببريق الذهب والماس»..

فهي المرأة التي تعي ذلك جيداً، ربّما تُخفي عنه تلك الحقيقة لموعدٍ معلوم،
وربّما قد اقترب وقت البوح، ربّما!!

لم تفتّر عزيمته، فأخذ يلاحق «غادة»، ويرجوها:

- أرجوكِ انتظري، اسمعيني..

وإذ بأدهم يظهرُ أمامهما كما لو كان قد هبطَ من السماء، وقد لاحظَ احتقانَ
وجهها بالغضب، فعاجلها بسؤاله:

- «غادة» ماذا بكِ حبيبتي؟!

لم تُجبه، وإنما امتلأت عينها بالدموع..

تميّز «لؤي» غضباً عندما سمع «أدهم» يدعوها بـ - «حبيبتي»، وقد
حدّق «أدهم» بعينه يسأله في غضب:

- ماذا قلت لها؟ وماذا تريد منها؟!

- لا شيء، لا شيء. (أجابه «لؤي» باضطرابٍ، فيما يسرع الخطأ مبتعداً
عنها)

- ماذا قال لكِ هذا اللّزج؟ هل ضايقت بكلمة؟! (سألها «أدهم» مجدداً)

احتوت الموقف بصوتٍ يغشاه النشيج:

- لا، لم يحدث شيء، لقد قلقْتُ عليك وحسب عندما اتصلتُ بك،
ووجدتُ هاتفك خارج التغطية.

ردَّ بضحكة رائقة جذابة:

— لقد كنتُ بالسيارة، والنوافذ مغلقة، ربما لذلك كانت شبكة الاتصال غير متوفرة.

أجهشتُ بالبكاء أكثر، فقال مُداعبًا:

— ماذا ستفعلين لو سافرتُ فجأةً إلى أمريكا أو أوروبا دون أن أُخبركِ؟!
فقلت، وهي تضحك ضحكة ممزوجة بالدموع:
— كنتُ سأقتلكَ حالما تعود.



استدعى الرائد «سمير المجري» «سناء» من الكُشك للمرة الثانية، حيث لم تأتِ بأول استدعاء، فيما جلس ينتظرها بمكتبه، ثم وقف يزفر، ويفرك أصابعه ببعضها، وهو يتذكر كم مرة واجهته بالصد والتفور كلما أعرب لها عن رغبته في أن تصبح خليلته، كاد ينفجر غضبًا عندما لاح بأفقه وجه زوجته «سالي»، فيما تحط من قدره، وتسببه أمام الخادمة حينًا، وأمام السائق والمُجند المنوط بخدمته بالقسم، وكذلك بتوصيل الخضروات، والفاكهة إلى بيته أحيانًا أخرى، فما استطاع أحد أن يهينه، أو يتفَرَّس في وجهه بكرامية غيرها، سوى «سناء»..

كلما اقترب «المجري» من زوجته، وتودّد إليها؛ نذته، واكفهر وجهها، وأصابها الغثيان، فتسرّع بإشعال سيجار بُني رفيع من علبة سجائر المستوردة، وتنفت دخانها بوجهه، وهي تقول:

— إلّا تعلم أنك تثير قرفي، وغثياني؟!

فيقول متذللاً أمام قدميها:

- ماذا أفعل حتى أرضيك؟!

ترمقه بنظرة ماسحة من رأسه حتى أخصى قدمه، وتفكر برهة، ثم تقول:

- اذهب أولاً لتستحم، فربما أوافق أن تبيت بهذه الغرفة الليلة.

فيمضي ذليلاً، مطأطأ الرأس، يلبي مطلبها، وقد تطردّه من غرفتها بعد ذلك رغم طاعته لها..

وقد تسمح له بالاقتراب، لا لشيء إلا لإشباع حاجة في نفسها هي فقط، فهي تراه دُميّة؛ تلهو بها لحظات ثم سرعان ما تنهره، وتزجره، وتوبّخه، تخرج، وتدخل البيت دون أن تعلمه، ولو بمكالمة قصيرة.

كم عاد من عمله، فلم يجدها، وعندما يسألها:

- أين كنت؟!

فإذ بها تضحك ضحكة ماجنة، كفتيات الليل، وتقول:

- منذ متى كان من حقك أن تسألني أين كنت، أو متى خرجت؟! أنسيت يا معاون القسم من.. وابنة من أنا؟! كم هو ذليل في بيته، متكبر متجبر خارجه، كما يقولون بالمثل العربي الشهير؛ «خارج بيته أسد، وبداخله دجاجة»، يسقط نغمته - على حاله مع زوجته المتسلطة - على «الغلاظة» والبسطاء، ويريد لو يفرض نفوذه على كل من يرى بالقسم، وبالشارع،

وبالأسواق، والمحال؛ وقد كانت «سنا» واحدةً من ضحاياها، فمنهنَّ من استسلمتْ له ليمارس عليها رجولته المكدوبة، ويفرض عليها سلطانه الزائف، ومن رفضنَ إرضاء شهواته الرّخيصة كان مصيرهنَّ إلى ظلمات السّجن خلف القضبان، حيث يُلْفَقُ «المجري» لهنّ القضايا المسيئة للأخلاق، كقضايا الدّعارة، والمخدرات.

أخذ يتأمل وجهه بِمرآة الخلاء، حتى وجدَ نفسه يبصق على وجهه لإراديّاً، وينعت ذاته بقبیح الصفات.. وبينما هو يلعنُ ذاته ويحتقرها، إذ طرقَ «عويضة» المُجند الصّعدي النحيل باب مكتبه..

تنحنحَ الرائد «سمير المجري»، وهو يُعدل من هندامه، ويصفّف شعره الهائس بيده، قائلاً بصوتٍ جَهْوري مُصطنع:

- ادخل يا عسكري.

فتحَ «عويضة» الباب، ودلفَ يُحيي الباشا تحيّةً عسكرية، وعلى وجهه قد ارتسمت كلّ علامات الارتعاب والتوتر:

- تمام يا باشا، المدعوة «سنا جودة» بالخارج.

حاولَ «سمير المجري» إخفاء اضطرابه، والظهورَ بمظهر الرجل الأمرّ الناهي، فقال:

- إحممم، دُعها تدخل.

تقدّمتْ «سنا» بعدما قال لها العسكري السّاذج:

- ادخلي يا مُتّهمة.

- متّهمة! بِمَ؟! أيُّ تهمةٍ تلك التي يرمونني بها؟! (هكذا تساءلت في نفسها..)

وما أن رآها «المجري» حتى أحسّ وكأنّه قد تمكّن من صيدٍ ثمين، فقال لعويضة أمرًا:

- إياك أن تدعَ أحدًا يدخل هنا، ولو كان وزير الداخلية نفسه، لا تدعُه يدخل الآن، مفهوم يا عسكري؟!!

«عويضة» مرتبكا، وقد وعى ما يرمي إليه مرؤوسه «زير النساء»:

- مفهوم يافندم.

ثمّ خرج، وأغلق الباب وراءه.



(جحيم يسير على قدمين!)

لقد أتى المجدد «عويضة مويريس» عدة مرّات لاستدعاء «سناء» حتى تمثل بين يدي الرائد «سمير المجري»، ذلك الشخص مزدوج الشخصية، فهو كالفار المذعور أمام «المدام»، وكالليث المفترس أمام سواها، وكم رأى «عويضة» تلك الازدواجية بأمّ عينه، ولكن كيف لمسكين مثله أن يتكلّم ويحكي ما كان يراه منه، ومعه!

أدركت «بسيمة» ما يريد شخص «مفتر» مثل معاون القسم من زوجة ولدها، وقد أكّد لها ذلك إلحاحه في طلبها لمكتبه بقسم الشرطة.. فقطعت الطريق عليه، وذهبت هي للقائه بدلاً من «سناء»، ولقد ثار جنون سيادة معاون القسم، وراح يصفع «عويضة» صفعات قويّة هادرة، حتى سالت الدماء من أنف وفم العسكري المسكين، وأخذ يصرخ غاضباً:

- لقد قلت لك أن تأتي لي بالمدعوة «سناء جوده»، وليس بهذه المرأة العجوز يا غبي.

ثم استدار نحو «بسيمة» يهددها، ويتوعدها بقوله:

- «غوري» يا وجه النّحس، وحذاري أن أراك هنا مرّة أخرى، ولو لم تمثل زوجة ابنك أمامي بعد نصف ساعة فقط من الآن، بشرّفي لألقيت بكما في الحجز، ولن تريّا الشمس طيلة بقائي حيّاً.

أخذتِ المرأة تستعطفه، وترجوه بأن يدع «سناء» وشأنها، فهي على وشكِ الولادة، وزوجها طريح الفراش، وهي التي تحلّ محلّه بالعمل، وتتولّى أمر «الكُشك»، وما تفعله امرأةٌ عجوز مثلها، ما هو إلّا مساعدة ضئيلة لها، ولكنّه طردها طردَةً بشعة، بعد أن كال لها من بذِيء السَّبَاب ما لا يستطيع إنسانٌ أن يتحمّله.

بكتِ المرأة، وهي تتوسّله:

- لا تُقلْ ذلك، عيبٌ يا بُني، أنا في عُمرِ أمّك.

ثَارَ مجدّداً، وخطا نحوها خطواتٍ واسعة، ثمّ أمسك بحجابها، حتى كاد يخنقها، وألقى بها خارجَ مكتبه، لتسقط أمام أقدام المارّة بالردّهة، وهو يشتمها بأبشع الشتائم. عادت «بسيسة» إلى زوجة ابنها بذراع مكسور، فاعلوا الخير أوصلوها إلى حيث «سناء».. أغلقت «سناء» الكُشك بسرعةٍ بمعاونة بعض منهم بسرعة، ثمّ رافقوهما إلى المشفى الحكومي القريب، وظلّوا معها حتى جَبَسَ طبيب الاستقبال ذراع «بسيسة»، الذي لم يعدّ كما كان بعد ذلك.

أوصت «بسيسة» كلّاً من «سناء وأميرة» إلّا يخبرا «رشاد» بما جرى، وكانت تدخل أمّه بذراعها الكسير إلى حجرته للاطمئنان عليه، وهي تغطي ذراعها بخمارٍ كبير، فلم يلحظ ما بها.

عندما علمت «سناء» من بعض من حملوا إليها حماتها من قسم الشرطة، قرّرت أخيراً أن تواجه «المجري» فذهبت للقاءه، عندما دخلت على «المجري» أغلق «عويضة» البابَ دونها، وألصق أذنه بالباب من الخارج، فقد استبدّ به

القلق على هذه المرأة، فهو يوقن أنها ليست من هؤلاء الخائنات اللواتي يأتين،
ويقدمن أنفسهن للباشا المعاون دون أن يطلب..

ود «عويضة» لو قتل «المجري»، وأراح المرأة من شره ودناءته.

وجدته «سنا» يجلس خلف مكتبه، ويضع ساقاً فوق أخرى فوق المكتب
في وجه القادم من ناحية الباب، ويعضّ بفكيه على قلم معدني، ولما رآها قال
بسخرية:

- أكان لا بدّ مما حدث لحمايك، حتى تأتيني راغمة؟!

حدثته بنظرة غاضبة، وتمهّلت، ولم تعقب على ما قال، فإذ به ينظر صوب
بطنها المنتفخ بحقدٍ بادٍ، قد ظهر بنبرة صوتٍ كفحيح الأفعى، ويقول:

- لقد علمت بكسر ذراع حمايك العجوز، فلا بدّ أن تعلمي أن لي أعيناً في
كلّ مكان، ويدي أن أعيدك إلى حيث كنت بطن فارغ، دون أدنى مُساءلة
قانونية، أنا أفعل ما أريد وقتما أريد دون أن أدان، أنا هنا «الكلّ في الكلّ»، ممّا
حدا بالشابة الجميلة أن تخرج عن صمتها، وتقول والدّماء تفور بعروقها:

- لماذا؟! أظنّ نفسك ربّ الكون، تعتقل من تشاء، وتقتل من تشاء؟!

قال بلهجة باردة كالثلج:

- رغبتني فيك ماتزال تشفع لك عندي حتى الآن، لذا لن أحاسبك على
ما قلت.

- مَوْتِي دُونَ طُهُرِي، فافعل ما شئتَ. (قاطعتَه بحزم)

- إِذَا فَقَدْ قَبِلْتَ عَرْضِي. (قالها في مكرٍ)

- لا، ومليون لا يا «باشا»، اقتلني لو تستطيع. (أَكَدَتْ ودموعُها تجري على وجنتيها).. فالموْتُ عندي أكرُمُ من طاعتكِ فيما تريد.

وقَفَ ثَمَّ سار نحوها ببطءٍ كثعبان يزحفُ نحو فريسة مُذَلَّلة، ثمَّ أَطْبَقَ بيده على عُنْقِها، وهو يقول:

- بإمكانِي أَنْ أَقْتَلَكَ الآنَ، ولكنِّي سأصبر حتى تضعينَ هذا الشيءَ.
(يقصد الطفل الذي ببطنها).

ثمَّ استطرد قائلاً في تقزُّز:

- فأنا لا أضاجعُ ذواتِ البطونِ المتنفخة؛ «يعني النساءُ الحوامل»..

بَصَقَتْ «سناء» في وجهه، فصَفَعَهَا بِقُوَّة، حتى ارتسمتْ أصابعُه على خَدِّها، ثمَّ تَنَهَّدَ، وهو يزيل رذاذَ بَصَقَتِها عن وجهه بمنديل ورقي قد التقطه من علبة مستطيلة فوق مكتبه، ثمَّ صرَّخ في جنون:

- «عويضة»، أنتَ يا كلب، يا مَنْ تُدَعَى «عويضة»...

دخل العسكري البائس وهو يرتعد، ويلقي التَّحِيَّة العسكرية مجدداً على «المجري»، وهو يقول بصوتٍ مرتجف:

- «أفندم» يا باشا، أنا بأمرِك.

بلهجة أمرة، قال المعاون اللعين:

- خُذْ هذه الحقيرة من هنا، ومتى وضعت حملها، فلتأني بها فوراً.

ثم اقترب «المجري» من «سناء»، وهمس بأذنِها بخبث، قبل أن تغادر:

- إنَّ ليلة عُرْسِك الحقيقية هي ليلة مخاضكِ أيتها الطاهرة، سأنتظرك ليلتئذٍ أيتها العروس.

همّت بالصّراخ مجدداً في وجهه، ولكنَّ «عويضة» قفز بجسده الضئيل، وجذبها من ذراعها، وهو يتصنّع زجرها:

- هيا أيتها «الوضيعة»، الباشا ليس لديه وقتٌ كي يُضيّعه مع أمثالك.

وسرعانَ ما خرجا، وأغلق المُجند المغلوبُ على أمره بابَ المكتب، وسار المُجند المقهور قليلاً إلى جانب «سناء»، ثم انفجر باكياً، يتوسّل إليها أن تسامحه على ما فعل، وبرّر لها ما كان منه بأنه استنقذها من بين يدي «المجري» حتى لا يفتك بها، فالمجري على حدّ قول عويضة «فاجر، لا يتقي الله، ويتفنّن بشتّى السُّبل في إذلال ضحاياه».

وقصّ عليها بعضاً من أقدر مواقف «المجري» إزاء بعض الفتيات العذراوات، اللّواتي قضى عليهنّ بعدما قضى منهنّ وطّره، وهدّدهنّ بالفضيحة بين الناس، وكم لفقّ لנסاءٍ عفيفات مثلها قضايا آداب مُشينة، ثم تنهّد بقلبٍ يكاد يحترق لهول ما يرى من تجرّب «المجري» على خلق الله، وقال:

- كَأَنَّ هذا المجري جحيمٌ يسير على قدمين، أينما حلَّ ساقٌ معه الخرابُ والعذاب، والويلُ لِمَن يقفُ ضدَّ رغباته الدنيئة!

أومأت «سناء» مُتفهمةً أسبابه، وهي تدفعُ خصلات شعرها - التي انتشرت فوق وجهها على إثر صفة المعاون - أسفل حجابها الذي يغطي رأسها، وهي تتحسّس موضع الصّفة التي آلتها، كماءٍ حارق قد انسكب فوق خدّها.

أخذ الباشا يُنضح الكثير من الماء في وجهه، عسى أن يزيل صورته الحقيقية التي لا تنفك عن مطاردة ذهنه، وتنغص عليه سطوته وجبروته، حتى أغرق قميصه، ثم رفع رأسه من حوض الحمام ليطالع وجهه المبلل مرّة أخرى بالمرأة، ويسأل نفسه بصوتٍ حادّ غاضب:

- لماذا ترفضك كلّ من تريدها يا «سمير باشا»؟ لماذا تتمنّع عليك «سالي» هناك، و«سناء» هنا؟!

لماذا لا تهابك أيّ منهما رغم سطوتك وبطشك؟! وكأنّها أنصت إلى صوت ضميره الخامد، يقول بصوتٍ خفيض:

- «سالي» ترفضك لأنها تراك أقلّ منها، تستكثرُ نفسها عليك، ترى حقيقتك المهترئة كلّما نظرت في عينيك، تعلمُ قدر «وساختك»؛ لذلك تكرهك، ورغم كلّ ما تعرفه عنك إلا أنّك لو كنت ثريّاً لركعت أسفل قدميك، إنّما تشبهك كثيراً! أمّا «سناء» فهي شريفةٌ عفيفةٌ، وكلّ هيتك المفتعلة وسلطانك المصطنع؛ لن يخيف امرأة نقية مثلها، وإنّ ظفراً من قدم

«سناء» وأمثالها بك أنت وزوجتك المتعجرفة.. إِنَّ من أبناء الفقراء والمُعدمين مَنْ هُمْ أَحَقُّ بمكانتك؛ بل إِنَّهم لَأَحَقُّ بعروش الملوك، لست أنت أيها المخلوق الضعيف مَنْ تقول مَنْ يموت، وَمَنْ يعيش، وَمَنْ يُحرر، وَمَنْ يُقيدُ، وَيُعْتَقَلُ، يا ااا باشا!!



عيد قلب، كم أضناه الاشتياق

نهاية أكتوبر عام ٢٠٠٤م

لم ينفذ صبر «لؤي» بعد، بل ظلّ على أمل الظّفر بـ «غادة» حسناء كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، فهي فقط من يليق بها الظهور معه أمام المجتمع الراقي، عندما يصبح واحداً من ساسة البلد الكبار.

لم يأبه إلى صوت كرامته وهو يردّه بعيداً عن فتاة امتلأ قلبها بحبّ غيره، واعترفت له بأنّه مهما فعل فلن تكن له، ورغم ذلك فهو لم يكف عن ملاحقتها طوال أربع سنوات متتالية، وهي تواجه حماقاته وحدها دون أن تخبر «أدهم» بما تلاقيه منه!

لقد جاب «لؤي الراجح» كلّ أنحاء العالم تقريباً، ومع ذلك فقد أصبح يتحين الرحلات الجامعية التي تسجّل «غادة» اسمها واسم حبيبها «أدهم» بها، وينضم للرحلة ذاتها!

إنّ الأماكن التي تقصدها رحلات الكلية لا تجذب «لؤي»، لا يرى بها ما يمتعه، أو يثير فضوله سوى «غادة».. لا يفعل شيئاً سوى مراقبتها كمراقبة قناص لهدف وحيد منشود.

هكذا ظلّ مراقباً لها، يدفعه فضوله القاتل إلى تتبّعها أينما ذهبت حتّى كانت الطّامة الكبرى بحفل «تخرّج دفعة عام ٢٠٠٤»، تلك الدّفعة التي جمعت بينه وبين «غادة» دون سابق معرفة أو لقاء.

كانت «غادة» تترقب يوم التخرج بنفادٍ صبرٍ، تراقب تواريخ الأيام، وحركات عقارب الساعة، والفصول، والأعياد، والمناسبات، وتعدّ الساعات والدقائق، واللحظات حتى ذلك اليوم.. فحفلُ «الجراديشن» أو التخرج هو يومٌ تاريخيٌ بحياتها.

اليوم، سترى «أدهم» خاطبًا حقيقيًا، يأتي لخطبتها بصورة رسمية من أبيها، وعمًا قريب ستكون زوجته، وستأبّط ذراعَه أمام الكون كله بلا حرج؟

اليوم هو «عيد القلب الذي كم أضناه الاشتياق».

ازدانت قاعة الاحتفالات بالجامعة بالشّرائط الملونة اللامعة، والبالونات الكبيرة الممثلة بالهيليوم، وأحضر كلّ الطلاب والطالبات تقريبًا هديّة تذكارية لطالب أو طالبة زميلة، وأعدّ فريقٌ من الطلّبة مهرجاناتًا للألوان بساحة الكلية، وصدحت الموسيقى، وبعض الأغاني الصاخبة عبر سماعات «الدي - جيه» كبيرة الحجم.. اصطحب طُلابٌ وطالبات الحفل بعضَ الأهل والأحباب، والأصدقاء من خارج الجامعة كي يشاركوهم فرحة التخرج الفريدة.

تعالَت الضحكات، فيما يُقَصّ كلّ طالبٍ وطالبة على زملائه بعض الذكريات الطريفة المضحكة التي حدثت بينهم.. في تفكّكه، تناوبوا إفشاء أسرار بعضهم البعض على مسمع من حشد كبير من الزملاء.. وكان صاحب السرّ الخفيّ يوارى وجهه خجلًا، وهو يضحك حتى تغرورق عيناه بدموع السعادة.

كُلُّهم سعداء، مُفعمون بالحيوية، مرحون.. كلُّ منهم قد اتَّخذ مكانه خلف مُكبَّر الصوت «المائِك»، وباح بما يعتَمَلُ في نفسه من حنينٍ إلى سنوات الدراسة الفائتة، وإلى أصدقاء بعينهم..

منهم مَنْ قصَّ على الجميع طموحاته المستقبلية فيما يتعلَّق بالحياة العملية، والمشاريع التي يتمنَّى أن ينجزها، ومنهم مَنْ اعترف برغبته في الهجرة، ومواصلة رحلة العِلْم بالغرب.. ومنهم مَنْ ألقى النكات والفكاهات، حتى تكون ضحكة الجميع هي آخرَ عهده بهذه الفرقة الرائعة.. وراح يشاكس «الدكاترة، والمعيدين» الذين قاموا بالتدريس لهذه الدفعة خلال أربع سنوات فائتة، وراح يُقلِّد الدكتور «عطوة الأمين» في حزمه، وصوته الأَجَش، ثم أخذ يتحدث بصوت «مسرَّع»، حين كان يُقلِّد الدكتورة «أنطوانيت حنا» أثناء شرحها إحدى النظريات السياسية.

ثم انتقلَ إلى مَازحة المعيد الجادَّ جدًّا «بكير المنصوري»، في عبوس وجهه، وعبثه بشعره أثناء انهماكه في إلقاء المحاضرة..

والساذةُ الدكاترة، ولفيفٌ كبير من زملائهم المدرسين بكلياتٍ أخرى يُصَفَّقون، ويضحكون، وينظرون نحو الدكتور الذي يتمُّ تقليده من قِبَل الطالب الخريج، بينما يضحكون بشدَّة، إلى حدِّ أن أمسك بعضهم بطنه من فرط الضَّحك الهستيري الذي انتابه.. ومنهم مَنْ تدرَّبَ لعدَّة أشهرٍ على أداء مسرحية جماعية يقوم ببطولتها عددٌ من الزملاء الذين تمَّ التنسيق بينهم، وانتقاء أدوارهم بدقَّة متناهية! ومنهم مَنْ التزم الصَّمت، وتوقَّع بزاوية

نائية هادئة من زوايا القاعة الفسيحة؛ كان هذا الصامت الوحيد هو «لوي الراجح»، رغم جموحه، وشغفه بالمرح والحفلات، إلا أنه لأول مرة بحياته كان يُحسّ بمرارة الوحدة؛ لم يرافقه أبٌّ أو أمٌّ، ولم تنضم له حبيبة يبثها كلمات الحب والهوى كما فعل بعض الطلاب الذين انفردوا بحبيباتهم، واكتفوا بالحديث معهن من بين بقية الدفعة.

فها هي «غادة» - محبوبته المفضلة التي مازالت تصد عن مبادلتها مشاعر الحب - تقف مع «أدهم»، لا تبعد ناظرها عنه طرفة عين، وكذلك «أدهم»، ترميها عيناه بكل معاني الحب والاحتواء.

بينما نيران غير «لوي» تتأجج وتضطرم في صمت..

لماذا تأخرت أمه «مدام آسيا» عن القدوم لحضور حفل التخرج حتى الآن، وقد أوشك الحفل الفعلي على البدء، وها هو طاقم التدريس بالكلية، وعلى رأسهم سيادة عميد الكلية على الاستعداد لإلقاء كلمتهم على جميع الحضور!!

تزامن دخول «مدام آسيا» قاعة الاحتفال مع تصفيق شاب فارغ القامة، وسيم الوجه، ينادي الجميع بصوت مرتفع:

- لو سمحتم يا سادة، أرجو الانتباه قليلاً..

انتبه الجميع، والتفتوا تبعاً نحو مصدر الصوت، فإذا بالشاب الوسيم، يقول:

- أريد أن تشاركوني أسعدَ يومٍ بعمرى، فالليلة ستكون خطبتي على زميلتكم الجميلة، «غادة أبو هاشم»!

ضجّت القاعةُ الكبيرة بالتصفيق والصّفير، وصيحاتِ المرح، والتبريكات.. بينما جثا «أدهم» على رُكبته اليُمْنى، وهو يقول أمام والديها، وجميع الحضور:

- مليكتي الجميلة؛ هل تقبلين بي زوجًا لكِ!!؟

أنهرتِ البالونات، وقصاصاتُ ورق الزينة ذهبية اللون فوق رأسيهما بوسطِ القاعة، وعلا صفيرُ الطلاب أكثر، وكذلك زغاريد الطالبات، وعمّت الفرحة الأجواء.

غلبتِ الفتاة الرقيقة دموعُها، وهزّول نحوها والداها يعانقنها، ويُقبّلانها، ويباركان لها، ثمّ توالّت مباركة صديقاتها المُقربّات، وكل أفراد الدّفعة.. ما عدا «لوي» الذي امتلأت عيناه الرّائقتين بالدموع، وقد همّ بالخروج من القاعة قبل أن يلحظَ أيّ من الحُضور ما اعتراه من حزن جارف، وهو مطأطأ الرأس.. ولكنّ ثمة من يراقبه، ويدركُ ما يعترّيه من غيرة مُستعرة، وكمدٍ ثَقِيل.

اصطدمَ بأحدهم بعنفٍ فيما كان يهروُل نحو باب الخروج، فاعتذر دون أن يرفع رأسه:

- آسِف.

فإذ بصوت من اصطدم به:

- لم تُخلق الدّموع لمثلك، يا حببي.

كان الصوت لـ «آسيا»، رفع وجهه ليجدها تحملق به بعينين جاحظتين:

- من تكون هذه الفتاة حتى تُبكيك هكذا؟!

ثم أمسكت بيده، ومضت معه نحو سيارتها، وهي تقول:

- لم أعهدك إلّا قوياً، تحصل على ما تريد دون استسلام!

أعقبت ما قالت، وهو يتأملها بوجهٍ محتقنٍ بالأسى:

- عِدي بآنّ اليوم هو آخرُ عهدك بالبكاء، فأنت ابنُ «آسيا الميهي»،
فلتدرك قدرَ نفسك، وقيمتك الحقيقية.

رغمَ ما آلت إليه حالته من حزن؛ إلّا أنّه لاحظَ وهناً يحتاجُ وجهَ أمّه التي
كانت تتظاهرُ بالثبات والصمود؛ لذا سألها:

- دُعِك مِنِّي، ماذا بكِ أنتِ؟ وما الذي أخّركِ عن القدوم؟!

شهقتُ وهي تجذبه من ذراعه نحو باب السيارة من ناحية مقعد القيادة:

- هذا أمرٌ شرّحه يطول، قد أنتِ السيارة فقط إلى حيث أرشدك.



مستشفى الوراق المركزي، عام ٢٠١١م

بأعقاب ثورة يناير، عام ٢٠١١

اكتظت ردهات المشفى، وغُرِف المرضى، وقسم الاستقبال؛ بالمصابين ما بين مُصابٍ يطلق ناري، ومصابٍ بخرطوش، ومشجوج الرأس..
كانتِ الهتافات صادحةً تهتز لها القلوب، وتقشعر لقوتها الأبدان؛ خلف المشفى، وداخله:

- ارحل، ارحل، ارحل، ارحل.....

وطاقم الأطباء والتمريض على أهبة الاستعداد لاستقبال الحالات الحرجة التي يتوجب عليهم إسعافها؛ حيث امتلأت مشافي القاهرة الكبرى كلها تقريباً بالشهداء والمصابين، وتجمهر أهالى الضحايا أمام المشافي يقتلهم الهلع على مصابيهم!

نقص ملحوظ بالعقاقير الطبية، والإسعافات الأولية كالقطن، والشاش، والمحاليل، والضمادات المعقمة، وغيرها، وموقف الأطباء حرجٌ للغاية أمام تلك الحالات التى قد ينقذها كيس دم، أو جراحة عاجلة..

تطوَّع بعض شباب الثورة لنقل المصابين والموتى إلى المشافي العامة؛ حيث أغلقت مشافي القطاع الخاص أبوابها تماماً حينئذٍ، وعجبتِ المشرحة بجثِّ مواطنين مجهولي الهوية، وقد أوشكت بعض الجثث على التعفن، فالوضع حرج إلى حدٍّ لا يتصوره عقل، والشتاء يضرب أجسام المتظاهرين، والضحايا بقسوة.

هلعت أفئدة ملايين الأمهات من أجل أبنائهن، خاصةً وقد انقطع النّت عن جميع أنحاء الجمهورية المصريّة، وكذلك شبكات المحمول، وخطوط الهواتف الأرضية قد توقّفت جميعها عن العمل، فما من غائب يمكن لذويه أن يطمئنوا عليه، وما من شهيدٍ يمكن لمن وجدوا جثته أن يُخبروا أهله بمكانه!!

زاد الوضع تأزُّماً، أن فُتحت السجون بقوة سلاح بعض الخارجين عن القانون، وفرَّ عددٌ لا حصرَ له من هؤلاء المحكوم عليهم بأحكام مُشدّدة.

مخافراً الشرطة تُحطّم وتُحرق من قبل بعض من لهم ملفّات مُتخمة بالمحاضر والجُنح؛ فقد ظنّ هؤلاء أنّ الثورة قد منحتهم فرصة لا تُعوّض على طبق من ذهب، حتى ينمحي تاريخهم الإجراميّ السالف.. فأحرقوا، وهشّموا، ودمّروا مؤسساتٍ هامّة ليتهم أدركوا مغزى شعار الأحرار حين نادوا:

«أن نعم للثورة، لا للتخريب والتدمير!!»، ليتهم أحبّوا هذا الوطن، فلو أحبّوه حقّاً ما عاثوا به فساداً، وما أجزموا بحقه طرفة عين!!

لقد بات الأمن غائباً، والهرج والمرج يعمّان الأرجاء.

٢٨ يناير ٢٠١١م

بَكَت «بسيمة»، وهي تتوسّل إلى حفيدتها «منّة» إلّا تخرج الليلة، وهي تقول:

— أرجوك يا «منّة»، لا تخرجي الليلة، إلّا تسمعين طلقات الرصاص حولنا؟! —

كانت الحفيدة الجميلة ذات الخمسة والعشرين عاماً تجمع بعض أغراضها في سرعة خاطفة بحقيبة يدها كبيرة الحجم، وتلف حجابها فوق رأسها في عُبالة، وهي تقول:

- كيف يا جدتي!! إِنَّ الشهداء يتساقطون، والمصابون يتزايدون على مدار الساعة، فهل يمكنني أَنْ أتنازِلَ عن دوري كمواطنة مصرية عن هذا البلد؟!

بخطوات واسعة، قد أوشكت الفتاة على المغادرة، بينما استوقفتها كلمات جدتها:

- يا ابنتي، إِنَّ «كريم» ابن عمّتك «هبة»، مصابٌ بطلق ناري بساقه كما تعلمين، وهي لا تستطيع تركه دقيقةً واحدة، وعمّتك «أميرة» قد سافرت مع زوجها إلى الغريبة منذ الشهر الماضي، وليس لي الآن سواكِ، ولو لا قَدَّر الله حدث لكِ مكروهٌ فأين أجُديكِ بتلك المِعمعة الكبيرة، أرجوكِ يا صغيرتي؛ استهدي بالله، ولا تخرجي، سأموْتُ دونكِ يا ابنتي، فلا تُركيني، إِنَّ قلبي لا يقوى على فراقكِ، فأنا ليس لي سواكِ.

خفق قلبُ «منّة»، ورقت لجدتها، وراحت تُقبّل يديها ورأسها، وتقول:

- سأعودُ بإذن الله، كلّها ساعات، وسينبلجُ الصّباح، وسآتي حتى أتناول الإفطار معكِ، فقط ادعي لي بالسلامة.

ثم خَفَّت كالطير تركضُ صَوْبَ مشفى الورّاق المركزي، وقد أسعدها، وبثَّ الطّمانينة بنفسها؛ أَنْ رأت عددًا كبيرًا من الرّجال، والفتيان ما بين

واقف وجالس على أطراف الشوارع والأزقة مُسكين بالعصي يجرسون البيوت والخوانيت.

حيًاها بعضهم بإجلال واحترام جمّ، فهي مثال للفتاة الخلقة المكافحة، والجميع يشهدون لها بالخلق والحياء..

الشيخ «شعبان» العجوز، إمام الزاوية القريبة، لما رآها، قال في حبور:
— الله معك يا بنت الشرفاء الطيبين.

و«عطية» صاحب ورشة الكاوتش المتاخمة لبيتها، الذي قال وهو يحتسي كوبًا من الشاي الساخن، وقد أوقد، وبعض الجيران، كومة من الخشب ليستدفثوا بها أثناء مناوبة الحراسة الليلية الباردة:

— تذهبن، وتعودين لنا بألف سلامة يا أصيلة يا ابنة الأصيلة.

كلهم يعرفون وجهتها، ويمطرونها بالدعوات الطيبات كلما غدت أو راحت، فكم طوّقت أعناق الجميع بمعروف قدّمته له من خلال عملها بطاقم التمريض بمشفى الورّاق المركزي.

وهذا «زين» النجار، الذي ساعدته في صرف علاج القلب - مدى الحياة - ذلك الدواء الذي لا يمكنه أن يعيش دون تناوله؛ حيث سعت بنفسها في إتمام إجراءات القرار الوزاري لعلاجها على نفقة الدولة مدى حياته.

وذلك «جرّس» بائع الصحف، الذي ينادي كلّ صباح «أهram، أخبار، جمهورية»، بصوته الرّخيم المميز، والذي لن ينسى لها معروفها في طلبها من

استشاري نساء وتوليد أن يفحص زوجته «منال»، تلك التي لم تُنجب منذ سبع سنوات، وقد استجاب الطبيب الكبير لها، عندما جاء لفحص حالة حرجة بناءً على طلب شخصي من مدير المشفى.. وقد تابع الاستشاري الكبير حالة «منال» زوجة «جر جس»، وكتبَ الله لها الأمومةَ على يديه.. وها هو ابنه «فايز» ابنُ الثلاث سنوات ونصف، يجلس أمامه فوق الدراجة نفسها يطوفُ به فرحاً؛ هنا، وهناك، ويستبشر بوجهه الصغير في بيع الصحف اليومية.

لم تنسَ الممرضة الشابة أن تبتاع بعض الحلوى «البمبوني»، وتعطي منها أي طفل تلقاه من أبناء الجيران، أو الأطفال الذين يأتون بصحبة أهلهم إلى المشفى، وكلما رآها «فايز» الصغير هرولَ نحوها حتى ينال بُغيته، ثم يركض نحو أمه، أو أبيه مُمسكاً بيده الصغيرة قطعة الحلوى التي ظفرَ بها من هذه المنة الجميلة.

وهذه الحاجة «أمنية»، التي كم عانت من الدوالي وآلام الساقين، وقد سعت لها «منة» أيضاً حتى أُجريت لها عمليتان جراحيتان، وها هي قد عادت تسير، وتدعو لمنة بالخير مع كل خطوة تخطوها على وجه الأرض.

وغيرهم... طابورٌ طويل ليس له آخر من هؤلاء الذين شملتهم رحمة قلبها، وروحها الرحبة..

بهذه الأجواء المضطربة، وحيث لا سبيلَ لاستقبال مزيدٍ من الحالات بالمشفى، وأثناء عودة «منة» مع حلول الشفق إلى بيتها، والتعب قد نال منها بقوة، تريد أن تستريح بضع ساعات حتى يمكنها العودة مرة أخرى

إلى المشفى لتابعة عملها؛ لأن استراحة الممرضات قد استُخدمت كغرفة
لإسعاف المصابين، ولذلك كان على الممرضة الشابة أن تعود إلى بيتها تارةً
بمنتصف الليل، وتارةً أخرى مع بزوغ الفجر، وأحيان كثيرة تواصل العمل
يومين متتاليين بلا نوم أو راحة!

إذ سمعت صوتَ أقدامٍ تتبعها، فارتجفت قليلاً، ولكنها لم تلتفت، فقد
يُجهزُ عليها اللص!

هكذا ظنّت أنّ من يتبعها هو أحد المساجين الهاربين منذ أيام، ويشيرون
الرعب بقلوب الآمنين، ظلت تواصل سيرها بخطوات يُثقلها النَّصب،
ومازال الناس ببيوتهم هاجعين، والدّيكَةُ تصيح، والكلاب تنبح، والصّمتُ
يطوّق حيّ الوراق عن آخره،

بمن تستغيث الآن؟ وماذا يريد منها من يتعقبها؟ هل يريد سرقة حقيبتها
المعلّقة بكتفها، أم أنّه سيكرّ مُنحرفٌ يريد أن يتحرّش بها بمثل هذه الساعة
المبكرة؟!

اطمأنت بعض الشيء عندما رأت إحدى دبابات الجيش تتوقّف عند
ناصية الشارع، وقد أوشكت على بلوغها، هنا وجدت نفسها تستدير بوجهها
نحو ذلك السائر خلفها؛ فلم تجد أحداً أبداً!

هل غلبها التعب، فتوهّمت سماع صوتِ أقدامٍ تتبعها، أم أنّه واحدٌ من
هؤلاء المتسكّعين كان يريد أن يباغتها بمكانٍ ناءٍ.. ولكنه عندما لمح دبابة
الجيش فرّ هارباً؟! تعبها يُجبرها على التّغافل عن أيّ شيء الآن.

فتحت باب الشقة، فوجدت جدتها «بسيمة» تسبح، وتستغفر فوق سجادة الصلاة الخضراء القديمة، قبلتها، ثم قالت:

- أنا مُتعبة جدًا يا جدتي، أيقظيني بعد ساعتين حتى أعود إلى المشفى رجاءً.

- فلتأكلي أولاً، يبدو أنك لم تأكلي شيئاً منذ ليلة أمس.

قالتها «بسيمة» في شفقةٍ وحنوّ.

- عندما أستيقظ سأتناول الطعام، أريد أن أنام الآن.

أردفت «منة» في وهنٍ ملحوظ.

تبسمت الجدّة، وهي تقول:

- صحيح، النوم سلطان يا حبيبتي، اذهبي كي ترتاحي.

ثمّ انسلت دمعاً من عين الجدّة الطيبة، وهي تقول:

- ليتك بقيت معنا يا «شريف»، فما أحوج أختك المسكينة إليك!

ثمّ تمتمت في همس:

- يا ترى أين أنت يا حفيدي؟ هل أنت حيّ تُرزق يا حبيبي، أم؟!



(هي والعصافير)

القاهرة عام ٢٠٠٤م

توقفت سيارَة «آسيا» بِمكانٍ مخصَّص لوقوف السيَّارات «باركينج»، على مقربةٍ من كُوبري الجامعة «كوبري جامعة القاهرة»، عندما طلبت المليارديرة «آسيا» إلى ابنها «لؤي» أن يوقف السيَّارة، وأن يسيرًا معًا فوق رصيف الكوبري المُطلَّ على وجه نهر النيل.

بعد أن أفرغت بِفمِها زجاجةَ خمرٍ «واين» كاملة..

لم يُعب «لؤي» عليها أمرًا سوى شرايتها للخمر، وحملها لزجاجات الخمر أينما ذهبت، وكثيرًا ما اصططحبته لبعض البارات الشَّهيرة داخل مصر وخارجها، ولكنها لم تسمح له بتناول الخمر مثلها، بل كانت تحتسي الخمر، وتطلب له عصائر الفاكهة الطَّازجة «عصائر فريش».

تحتسي الكأسَ تلو الكأس دون أن تثملَ، فيما يثملُ رجال أشداء ما بين كأسٍ وأخرى.

سارا معًا، وهي تغالب وهنَّها حاجةٌ في نفسها، ثم توقفت، وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة، وتقول:

- هيسيه، لم تطأ قدميَّ هذا الكوبري منذ أكثر من ثلاثين عامًا!

ثم ولَّت وجهها شطرَ الطريق المؤدِّي إلى الجامعة، وقالت بلسانٍ خَدِر:

- كم أشتاق لقاعاتِ المحاضرات، وأروقة كُلية الألسن.

كان «لؤي» يُمعن النظر في وجهها المكدود، ويمسك بذراعها خشية أن تسقط، ولكنها سحبت ذراعها، وتشبثت بذلك السياج الحديدي على حافة الكوبري، فاستطردت بصوت خافت، شاردة، وقد نسيت وجود ابنها إلى جوارها:

- لماذا تركت «مُهجة» من أجل «نهي» يا «ماجد»، لماذا نسيت سيركما معاً فوق هذا الكوبري؛ حيث بُحَّتْ لها هنا بحبك الكبير؟ لقد جعلتها أخرى لا يمكنها التعرف على نفسها ثانية!

جاءتها لفحات متتالية من هواء مُنعش من ناحية النهر الكبير، رغم أن الطقس كان لا يزال يرتدي حُلَّة الصيف، ولياليه الحارّة، فاستنشقت الهواء كأنها تريد تعبئة رئتيها بكل نسمة منه، كمن أخرجه من محبسه الخانق، فراح يُعَبِّ الهواء عبّاً في سرّعة، وكأنّ النهر قد أرسل لها نسماته الباردة كي يُنعش ذاكرتها أكثر؛ تلك الذاكرة النشطة التي لم يُصبها الخمول يوماً!

سألها ابنها في قلق، مُتناسياً ما به من كمدٍ على إثر ما رأى بحفل التخرُّج:

- أمي، هل أنت بخير؟!

التفتت نحوه ترميه بنظراتٍ ثابتة، وتقول في لهجةٍ ساخرة:

- يا لك من ضعيفٍ خانع!

- لماذا تقولين ذلك؟! (سألها متعجباً)

- أيّيك الحُب؟ وتفتك بقلبك الغيرة؟! أخطئ خطئي الذي قلب

حياتي رأساً على عقب؟! (سأله ساخرة)

أنصت إليها، يريد أن يتفهم مرادها، وهي تقول:

- كم شُغِفْتُ به، وهو كذلك، حتى وفدت علينا فاتنة من جامعة أخرى
أتت للإقامة، وعائلتها بالقاهرة!

ترنحت «آسيا» قليلاً، وأسرع «لؤي» بالإمساك بخصرها وذراعها، فإذا
ببعض قائدي السيَّارات المارين خلفهم فوق الكوبري يُصَفِّرون، يُطلقون
الضحكات في سخرية لاذعة، ويقول أحدهم:

- ألن تجد فتاةً صغيرة تناسبك؟ يا لك من بائس!

وهتف آخر:

- «الدَّهنُ في العَتَاقِي!»

وثالث قد أعقبَ صفيْره بأن رماهما من نافذة سيارته بوردة حمراء، وهو
يقول:

- «تَلَحَّلْ يا «بأف»، وقل لها أحبك قبل أن تقابل ربها.

وقال رابع، وهو يصرخ:

- ابْحثي لكِ عن مقبرة بدلاً من الإيقاع بشابٍّ بعمرِ ابنكِ، أيتها العجوز
المتصايبية!

وهتف خامس ساخرًا:

- سأرسلُ لكما كوبيْن من عصير ليمون!

ضاق صدر «لؤي» بما نالَ أمّه من تجريح، تلك المرأة التي لن يتوانى عن
افتدائها بحياته لو طلبت، فزفر، ثم سحبها برفقٍ من ذراعها، وهو يرجوها:
- أمي، هيا بنا نذهب من هنا، أرجوك.

ما زالت تمسك بالسّياج الحديدي للكوبري، وذهنها شارد بمكانٍ بعيد،
هناك بالجامعة، ظلَّ «لؤي» يُحدّثها، ولكنّها لم تُعقب على أيِّ ممّا قاله، كانت
مسلوبة الإرادة، تتوافد على ذهنها ذكرياتٌ بعيدةٌ بصورة لا إرادية.



كُلِيَّةُ الألسُن، جامعة القاهرة، عام ١٩٧٠م

لقد طالعتها وجهُ «ماجد» بعامِها الدَّرَاسِي الأَوَّل، وهو يقترب منها بملابسه الرّخيصة، وقد قَدِمَ للتو من محافظته الرّيفية ليلتحق بكلّيّة الألسُن، يريد التعرف إليها.. كم كان لطيفاً جذّاباً رغم فقره الملحوظ.. كان ينتقي كلماته بعناية وحِكمة..

وتمرُّ الأيّام، والشهور، والسنوات، وزمالتيهما تَربو، وتبدّل إلى حبٍّ جارف..

مازال صدى صوت «ماجد» يملأُ الكونَ صخباً حولها؛ لذا لم تنتبه لكلمة واحدة ممّا قال «لؤي»..

صدى صوت «ماجد» يتردّد على مسامعها:

- أَحَبِّكَ يا مُهْجَة «، وكلمة «أَحَبِّكَ» لا تُعبّر عن شعوري نحوك، متى يجمع بيننا بيتٌ واحد؟!

ظُلّ صدى صوتهِ البعيد يضرب رأسها بقوة:

- عندما تأتي أمِّي من «الفيوم» لزيارتي، لا بدّ وأن تراكِ، سأخبرها عندها بأنّ قلبي قد اختار شريكة حياتي.

كان «ماجد» طالباً نجيباً، قد أتى من محافظة الفيوم، حسب التنسيق الجغرافي للجامعات آنذاك، وقد تشارك بمسكنٍ جماعيٍّ مع ستة من الطّلاب

المغربين، ذلك المسكن يتألف من شقة واحدة، مكونة من حجرتين، ودورة مياه ضيقة متهالكة، وصالة صغيرة تتسع لمنضدة يتيمة حجمها متر ونصف طولاً في متر عرضاً، أما المطبخ فهو ردهة ضيقة كذلك، بها أسطوانة غاز صدئة، وموقد أعور «ذو عين واحدة»، يتخذ موضعه فوق منضدة متآكلة كذلك، والويل لهؤلاء الطلاب لو فرغت أسطوانة الغاز، خاصة بفترة الامتحانات، فلا يمكنهم إعداد طعام، ولا كوب من الشاي يحفزهم على السهر للمذاكرة.

كان «ماجد» بائساً أليماً بؤساً، ولكنها قد أحبتة.. نعم، أحبتة هو فقط، من بين كل من تراههم عيناها.

تعود «مُهجة» إلى بيتها المتواضع جداً، وتركض بقلب تملؤه الحياة صوب أمها العليلة، وهي جالسة أمام دكانها الذي تباع من خلاله «أقفاص العصافير، والحمام»، بمنطقة «أثر النبي»، فيما تصلح الأم من قفص معوج الحافة، فتقبل أمها، ثم تأخذ حفنة من حبوب ال - «البلکم، والدنيّة»، وتضعها لبعض العصافير الملونة بقفص معلق معد للبيع، وتضحك أمها، قائلة:

- لقد خلقت العصافير للحرية والانطلاق، ونحن نبيعها للناس وهي حبيسة الأقفاص، وكذلك نبيع سجونها لمن يريد!!

ثم قالت متداركة، تخشى غضب أمها مما قالت:

- إحممم، أقصد أننا نبيع أقفاصها، التي يسجنها داخلها الناس طوال حياتها؛ فلماذا لا نغير هذا النشاط يا أمي؟!

مَطَّت الأمَّ شفتيها، وقالت متهكِّمة:

- هذه مهنتنا التي لانعرف سواها أبَّا عن جدِّ يا «فالحة»، ولو كلَّ إنسان تخلَّى عن مهنته التي يتقنها، فقولِي آنذاك على الدنيا السلام.

لم تُعَقِّب الفتاة، بينما هَمَّت في غفلة من أمِّها أن تفتح باب قفص العصافير، كي تحرِّرها، فإذا بسيارة تتوقف أمام الدُّكان، ويترجل منها رجلٌ، وزوجته، ويشير بيده نحو أحد أقفاص العصافير، وهو يقول:

- لو سمحتِ يا أنسة، أريد أن أشتري قفصَ العصافير هذا.



في بطءٍ، سارت «آسِيَا» إلى جوار ابنها إلى حيث سيارتها، فقال لها، وهو يُجلِّسها بمقعدها المجاور لمقعد القيادة:

- ماما، سأعيدكِ إلى الثيلا الآن، ثم أعود إلى حيثُ تركتُ سيارتي بقُرب جامعتي.

رفضتُ قائلة:

- لا، مازالتِ جولتنا الليلة، لم تنتهِ بعد.

حَسِبَ أَنَّ الخمر قد لعب برأسها، وأنها تهذي، فقال:

- أراكِ بحاجة للنوم، ولا بُدَّ أن.....

قاطعتُهُ بقولها:

- إِنِّي واعيةٌ لكلِّ كلمة أقولها لك الآن، قدَّ السيارة إلى حيثُ أرشدك.

أطاع أمرها، ورأسه يستعيد مشهد الحب الغامر بين «غادة، وأدهم»،
فامتلائت عيناه بالدموع، فلاحظت «آسيا» ما به، فقالت:

- الحب قاتلٌ يا بُني، فلا تدعه يتملك منك، كما تملك مني، لا تتركه
يدمرّك كما دمرّني.

همّ بالكلام، فقاطعتُه بإشارة من يدها ذات الأظافر المدببة الملونة:

- أنت لا تعرفني حتى الآن، أليس كذلك؟!

ارتعدت فرائصه، وتذكّر على الفور مقلتيها الغائمتين بنظرة مُبْهَمة عندما
جاءته برأس الأسد داخل صندوق كبير إلى غرفة نومه قبل سبع سنواتٍ
تقريباً، فقد كانت عيناه تحمل تلك النظرة الغامضة نفسها.



(ملائكة، وشياطين، وجولة غامضة)

ما زال وضع «مصر» في اضطراب مستمرّ عقب ثورة الخامس والعشرين من يناير عام ألفين وأحد عشر ميلادياً..

لصوصٌ يُطلّون برؤوسهم كالشياطين، على بيوت، وشركات، ومحالّ المواطنين الكادحين، فيسرقون، وينهبون، ويخربون ما تطاله أياديهم الآثمة.

وآخرون يضاهئون الملائكة في كفاحهم الطيّب من أجل تلك الأرض الصابرة، مثل «منّة» ومثيلاتها، وأطباء المشافي، وخاصة المتطوعين منهم للعمل الجماعي العام بلا مقابل سوى إغاثة المصابين، والمُلهوفين؛ وأولئك الساهرين لحماية أرواح وممتلكات الناس؛ وذلك الشباب المستنير الذي راح يعمل في جماعات مُنظمة لتنظيف الشوارع، وإزالة آثار التخريب والتدمير؛ وأصحاب المصانع، ومنافذ بيع الأغذية الذين خفّضوا من ثمن بضائعهم لسدّ حاجات الناس من الطعام الذي بات شحيحاً في كلّ مكان هنا وهناك؛ والخبّازون، الذين نزلوا للعمل من أجل توفير رغيف الخُبز للمواطنين كلّ صباح... هؤلاء جميعاً، وغيرهم، ممّن قدّموا ما بأيديهم من بذلٍ وعطاء لهذا الشعب؛ هؤلاء هم ملائكة هذا الزّمان حقاً.

لقد أحرزت «منّة» تقدّماً وتعلّماً، وخبرةً مميّزةً بمجال التمريض، حتى أدهشت الأطباء الاستشاريين الكبار لما رأوا منها من تفانٍ في عملها، ولزيادة الحاجة إلى الأطباء، وزيادة عدد المصابين عن طاقة الطّواقم الطّبية؛ فقد سمح

لها الدكتور «وديع مكرم» بممارسة بعض العمليات الجراحية الصغيرة، كخياطة الجروح القطعية الكبيرة بعد انتهائه من بعض العمليات الجراحية الدقيقة، وكاستخراج الشّطايا، والخرطيش، والطلقات النارية من أجسام بعض المصابين، والشهداء، ولقد أدهشت الفتاة طاقم الأطباء بلا استثناء؛ فقد جمعت بين الدقة، وسرعة الأداء، فأصبحت موضع ثقتهم، وامتنانهم.

من هؤلاء الأطباء والمُمرّضين من رآها أختًا صُغرى له، ومنهم من عاملها معاملته لابنته، ولكن هناك شخصٌ وحيدٌ يراها بعين الحب، يودّ لو يُحدّثها قليلًا، ولكنها كانت جادة، لا تهدر دقيقة من وقتها هباءً.. ما بين عملها، وجدّتها، وصلواتها، وبضع ساعات لنومها كانت تمرُّ نهاراتها، ولياليها سريعًا.

الليلة، تعودُ إلى بينها مُنْهَكَةً القُوى كالعادة، وعقاربُ ساعة المشفى تُشير عند خروجها إلى السّاعة الثّانية والنّصف صباحًا، والبردُ قارص، ولا توجد وسيلة مواصلات، وإن كانت «توكتوك» بهذه السّاعة المتأخرة.. وحتى لو عثرتُ على «توكتوك» آنئذٍ؛ فلن يُقلّ لها إلى حيث تريد؛ لأنّها لا تملك أجرته.

ولو تملكُ المال؛ فهي لا تأمنُ على نفسها من شابٍ يقود «توكتوك» بمثل هذا الوقت المتأخّر؛ فربّما كان من قائدي التّكاتك الذين يتناولون أقراص التّرامادول، وسجائر البانجو، والحشيش.

تتدبّر بمعطفها الأسود الثقيل الذي ادّخرت ثمنه بصعوبة بالغة من راتبها الزهيد على مدار ستّة أشهر؛ حيث تستفد أدوية جدّتها ما يزيد عن

نصف راتبها تقريبًا، وبقية الراتب، مع معاش بسيط تتسلمه الجدة «بسمة» من مكتب البريد القريب؛ ثقيان أو دهما من مأكل ومشرب، وإيجار الشقة التي تعيشان بها.

كل تلك الظروف القاسية قد حالت دون زواجها مرات عديدة، عندما طرق بابها عدد لا بأس من الخطاب، الذين كانوا يفرّون، وينكصون عهدهم معها، ومع جدتها عندما يعلمون بظروفها هذه، وبأنها لم تدّخر مالًا، ولا متاعًا لزواجها، فكيف لفتاة بمثل حالها أن تدّخر، وتوفّر، وتُجهز ما يلزمها للزواج، وراتبها لا يمنحها رفاهية احتساء زجاجة من «الكولا» المثلجة!!

لقد كانت «منة» ممن جادت بهن الحياة على الناس كي يصرن في عونهم، وخدمتهم، وليست من هؤلاء اللواتي تعرفن الأخذ، وعدم العطاء.

لا بُدَّ أن تسير على أقدامها بين أزقة مُعتمة، وطرق لا تطمئن لأمنها، لمدة ثلث ساعة على الأقل حتى تصل إلى بيتها.. عندما خرجت من المشفى، طالعته أكوام من القمامة كالثلال الهاجعة تحت جناح الظلام.. رائحة أكوام القمامة حول المشفى تركم الأنوف.

لا تدري لماذا يُلقى الناس بمخلفات منازلهم حول مبنى صحي كهذا المشفى الذي يقصدونه للعلاج والاستشفاء!! كم هو عجيب غريب منطق الناس، حيث ينشدون النظافة والحياة الكريمة، وهم أنفسهم من يُلقون بالقمامة بالشوارع، وبمياه النيل على مدار الساعة، ثم يصرخون طلبًا لنجدتهم من الأمراض والآفات!!

همست «منّة» في نفسها:

- يجب أن تكون الثورة على الجهل والإهمال، واللامبالاة قبل كل شيء.
أكوامُ القمامة تلك تُرسلُ توابعها من الفئران والحشرات، وبعض
الزواحف إلى داخل المشفى، وكم شنت «منّة» وبعض زميلاتها - قبل
الثورة؛ حيث كان لديهنّ متسع من الوقت بين المناوبات - حملةً للنظافة
بالمشفى، ولكن سرعانَ ما ضاع جهدهنّ هباءً منثورًا؛ حيث تأتي سياراتُ
هيئة النظافة، وترفع القمامة، ولكن الأهالي يُلقون بالمهمات مجددًا حول
المشفى بنفس اليوم.

كم أفرعها رؤية فأر يتجول بحجرة العمليات أثناء إجراء عمليّة جراحية
بالغة الدقة لأحد مُصابي الثورة، وكم هالها خروجُ عددٍ كبير من الصراير
من قاعدة أسطوانة أكسجين، وكم.. وكم أنبعثت بعض الروائح الكريهة من
هذه القمامة، فملأت أجواء عنابر المرضى ممّا أقلق راحتهم، وأرق نومهم،
بفترة نقاهة تستلزم الراحة التامة!!

أشاحت بوجهها صوب الطريق المؤدّي إلى مسكنها؛ فإذ بصوت الخطوات
التي تتبّعها بساعات عودتها المتأخّرة قد أضحى قريبًا جدًّا.. وقد حارت ما
بين الالتفات إلى ذلك الغامض الذي يتبعها كلّ ليلة وما بين مواصلة السير.
خشيت لو التفتت أن تجد سكّينًا أو مطواة «قرن غزال» بيد أحد اللصوص
مُشهرة في وجهها، فأثرت السلامة، ومتابعة السير في صمت!

ولكنّ هذا الآخر استوقفها بقوله:

- هلا توقفت قليلًا!!

تسارعت ضربات قلبها، فهذا الشارع لطالما أثار بنفسها الارتياح، وساكنوه كالأموات بمقابرهم، «لا صوت إنسان يؤنس، ولا هسيس كلب، ولا حتى صوت مذياع عابر»!!

استدارت في تباطئ، قد فرض نفسه على سائر جسدها فرضاً.. أعمدة الكهرباء مطفأة، دونها عمود واحد قد لفظ بعض أسلاكه خارجة، ورغم ذلك فما زال يضيء - بضوء خافت - حافة الشارع الذي لم تبلغه أقدامها بعد.

بعينين جاحظتين رعباً تفحصت وجه متبّعها، فإذا به يتسم ابتسامة مطمئنة، ويقول:

- لا تخافي يا آنسة «منّة»، أمازلت لا ترين وجهي جيداً؟!

فغر فوها، وقد تجمّدت الدماء في عروقها، فاستطرد:

- أنا «مُسعد» الممرض، زميلك بالمشفى، ساعيني؛ لقد سرت خلفك خوفاً عليك، فالوقت متأخر، وقد خشيت أن يتعرّض لك أحدهم بسوء.

لقد سرّها للغاية، بشهامته، والتي هي متوقّعة منه؛ حيث أثنى عليه الجميع بالمشفى بدءاً من الأطباء، إلى المرضى، والعاملات؛ فهو محبوب، متعاون، هادئ، متفانٍ بعمله مثلها، ولكنها قالت في غضب:

- لقد اعتدت كثيراً على العودة إلى بيتي بمفردي بجوف الليل، دون أن يتبعني أحد، وأظن أنني لم أطلب منك حمايتي!

أحزنه رُدُّها، فاعتذر، وذهب من حيث جاء.

لم تبلغ ناصية الشارع الساكن بعد، حتى ظهر أمامها قاطعُ طريق، يشهر
مطواته المعقوفة النَّصل في وجهها، وهو يُرهبها بصوته الأجش:

- أعطني حقيبتك بهدوء، وإلاَّ مزقُك إربًا!



منزل الرائد «سمير المجري»، صيف عام ١٩٩٣ م

صرخت «سالي» زوجة الرائد «سمير المجري» بالثالثة صباحاً في عصبية شديدة:

- أين كنت حتى هذه الساعة يا ذا الذيل النجس؟!

كانت تهدر غاضبة، وكأنها قد أصابها مس من الجنون، بينما يجتاز زوجها «سمير المجري» «الرئيسيشن»، وهو يتمايل ثملاً، فقال دون أن يعي ما يقول:

- كنت لدى زوجتي!

ثارت ثائرة الزوجة، وسألته في حدة:

- زوجتك؟ أنت تتزوج عليّ أنا يا دنيء؟ أنسيّت نفسك؟ أنسيّت كيف كنت على وشك تقبيل حذاء أبي حتى يقبل بك زوجاً لي؟!
دفعها بكل ما أوتي من قوة، وهو يقول:

- لقد تزوّجت من لا تسبني وتوبّخني كلّ ليلة كما تفعلين.
ثم هدر كالمجنون يصرّخ، وهو يحطم ما تطاله يده من تحف:
- تزوّجت بمن توقّرني، وتحمل ولدي الآن بأحشائها!

ألقت ابنة اللواء المتقاعد بجسدها فوق كنبه «فوتيه»، وهي لا تكاد تصدّق ما سمعت، بينما صعد «المجري» إلى منفاه؛ حيث تلك الغرفة التي

تنبذه بها زوجته ككلبٍ أجرب - ككلٍ ليلة - ، وغطَّ في نومِه بكاملِ ملابسه،
وحذائه!!

لم تكن «سالي» تغار على زوجها «المجري» أبداً، فهي لم تحبه يوماً، وإنما
تشعر بأنه ضمن ممتلكاتها؛ كحقيبة يدها، كسيارتها، كمساحيق زيتها،
ككلبها الأليف الذي تصطحبه معها في كل مكان!

فما يدفعها للحفاظ عليه لها وحدها سوى «غريزة الامتلاك» التي تمكّنت
من نفسها حتّى الثمالة!



(قطرة من غيث الحقيقة)

لقد أَرهَبَ سؤال «آسيا» ابنها «لؤي»، وقد لاحظت ما انتابه، رغم مقدار الخمر التي تجرعتها، ولكنه قاد السيارة، كما أمرته، إلى مكان لم يعرفه من قبل، فالظلام دامس، بينما تنعطف السيارة بين مقابر «السيدة عائشة» حيث لا أثر لضوء إلا من بعض المصابيح الزجاجية؛ «اللّمبات الألاوط» المتناثرة على مسافات متباعدة داخل المقابر نفسها، فقد سكن الأحياء بجوار مقابر الموتى عندما ضاق بهم وجه الأرض خارج نطاق المقابر.

لاحظ «لؤي» - داخل المقابر، ومن خلال أبوابها الحديدية المجوفة ببعض أجزائها العلوية - أحبال غسيل، وتهدأت إلى مسامعه أصوات أطفال مازالوا مستيقظين، يلعبون!

إن الحياة والموت عاشقان، تربط بينهما قصة حب أبدية! عاشقان قد أبيا الفراق منذ زمنٍ تليد، وتلك المقابر خير شاهد عليها!

أشارت له «آسيا»، فعرج بالسيارة نحو منطقة ساكنة، يُدثر الظلام معظم مساحتها، فأضاء «فوانيس» السيارة الأمامية.

- توقف هنا. (أمرته أمه، ففعل..)

ترجّلت من السيارة، وهي تُحِيلُ بصرها بصفوف الحوانيت الصغيرة المترصة عن يمين السيارة، سارت بضع خطوات، وهو يراقب تصرفاتها

العجيبة هذه الليلة، حتى توقفت أمام أحد الدكاكين، وتحسست بابه المغبر بالتراب.. أشارت له أن اقترّب، فاقترّب، فقالت بصوت يغالبه الوهن:

- هذا دكان أبي، ثم أصبح لأمي من بعده، ثم قمت أنا ببيعه لأحد الجيران، وتلك الشقة الصغيرة التي تعلوه، بعثها أيضاً، وتركت المنطقة بأسرها.

هذا هو دكان أبي؛ كان دكاناً صغيراً لبيع مستلزمات تربية العصافير، إلى جانب بيع العصافير الملونة كذلك..

كم وددت لو حررت جميع العصافير، حتى أيقنت أن الأقفاص المغلقة هي المكان الأوحَد المناسب لها؛ فالحرية قد تُفسد حياتها، وتوقعها في حب من يلهو بها، ثم يُلقي بها إلى السراب! لو بقيت بأقفاصها؛ لصارت بمأمن من الضياع.

أنصت إليها، ولا يدري.. هل جئت سيّدة الأعمال الخبيرة، أم أنها تُدلي له بحقائق لا ريب فيها؟!

تابعت «آسيا» كما لو كانت تهلوس بغيوبة:

- بهذه الشقة الصغيرة، وُلدت فتاةً بائسة تُدعى «مُهَجّة تاغيان البصري»..

ثم سكّنت قليلاً، وتنهّدت بعمق، وقالت:

- تلك الفتاة هي نفسها التي أصبحت فيما بعد؛ «مدام آسيا»، الماثلة أمام عينيك.

ثم قالت في بطة:

- «آسيا حسيب الميهي»!

كمَن ضربته صاعقة، وقف «لؤي» مشدوهاً ينصت إليها، دنت منه، وهي تحمَلق بعينه على ضوء فوانيس السيّارة:

- يكفي ما علمته عني الليلة، ولكن كما قلت لك جولتنا لم تنته بعد.

فتحت باب السيّارة، وجلست حيث كانت بالسيّارة، وهي تقول:

- أول الغيث قطرة يا «لؤي»، وكما يقول المثل الشهير.. «يا ما في الجراب

يا حاوي»!!

كان عقله شاردًا في طبيعتها الغريبة، حيث لم تُذرف عيناها دمة حنين لمسقط رأسها، ولا حتى عندما تذكّرت أبويها الرّاحِلين، لم يعرف الفتى المدلل قبل اليوم أنّ اسم أمّه الحقيقي، هو «مُهجة تاغيان البصري»!

فكم زعمت له - منذ طفولته - أنّها سليلة عائلة مُترفة، وبفضل حنكتها وشغفها بمجالات التجارة، والتعمير، والاستيراد والتصدير؛ قد صارت أشهر سيّدة أعمال عرفتها البلاد، ولكنه يرى اليوم وجهها الخفي حيث لم يعرف من قبل!

استفاق من شروده، فيما تقول له:

- هيا بنا إلى الفيلا الآن، فقد أضحى النهار وشيكًا.

لم يبرأ من دهشته بعد، ولكنه أظهر له أنه بحال طيبة، فقال:

- سأعيدك، ثم سأذهب لأحضر سيارتي.

رمقته بنظرة حادة، وهي تقول:

- سأرسل السائق لإحضارها، ولنعد كلانا لتناول العشاء، ثم ليأخذ كل منا قسطاً من الراحة حتى نكمل جولتنا بيوم آخر.

عادا معاً، ولم يتناول أي منهما من الطعام ما يُشبع طفلاً صغيراً، فكلاهما به ما به، مما يشغل تفكيره، ويُضعف رغبته بالطعام.

ولكن «آسيا» أصرت على أن يتناول كوب الحليب الذي ييغضه، ولا يشربه إلا نادراً، من أجل إرضائها، وحسب.

قذِف «مُسعد» قاطع الطريق بحجر في وجهه، أفقده توازنه، وأسقطه أرضاً على حين غرة.. واخترق مسامع «منّة» صوت أحدهم يهتف بقوة:

- اركضي يا «منّة»، أسر عيسبي، هيا!!!!!!

لقد استنقذها «مُسعد»، الذي زجرته قبل قليل، ولكنه لم يذهب؛ بل اختبأ خلف جدار ببقعة مظلمة من الطريق، يريد مراقبتها، وحمايتها بصورة غير مباشرة، وعندما رأى ظل أحدهم يقترب منها التقط حجراً، ولما هددها ذلك المتسكع، رمأه «مُسعد» بذاك الحجر، واستطاعت «منّة» الفرار، حيث لم يكن لديها أدنى أمل في النجاة!

ركضا مسافةً كبيرة، وابتعدا كثيرًا كثيرًا عن قاطع الطريق المسجى يتألم عقب إصابة هامته بالحجر الذي رماه به «مُسعد»، ولكنها توقفت تلتقط أنفاسها، بينما سبقها «مُسعد» بمسافة كبيرة، ثم توقفت، ونظر خلفه ليراها بعينيه عنه؛ تلهث، فركض نحوها يسألها في قلقٍ:

- هل أنت بخير؟!

لم تردّ، فهي متلاحقة الأنفاس، ضائقة الصدر، فأخذت تلتفت حوله كثيرًا، فسألته بصوتٍ متهدجٍ:

- لماذا تتلفت حولك؟ لقد ابتعدنا كثيرًا عن مكان اللص، ولن يستطيع اللص أن يصل إلينا!!

فقال، والصدق يغمر نظراته وصوته:

- أبحث عن حانوتٍ ما يزال مفتوحًا.

- لماذا؟! (سألته متعجبة..)

- ليكي أبتاع لك عصيرًا، يبدو عليك الإرهاق.

ابتسمت، ثم قالت:

- أشكرك بحقّ، وأنا آسفة لك، فكم كنتُ فظةً معك!

«مسعد»، والابتسامة تضيء وجهه المليح:

- لا عليك يا مِنة، أعني يا آنسة «مِنة»! (قالها مستدرّكًا)

اتّسعت ضحكتهما، وقالت:

- منذُ ولدتُ، وأنا اسمي بشهادة الميلاد «مَنَّة»، وليس «الآنسة مَنَّة»!

استشعرَ تقبُّلها لشخصه، فقال:

- إذا هَيَّا يا «مَنَّة» حتى أوصلكِ إلى بيتكِ، فربما أجيءُ لزيارتكم، ووالدي قريباً!

فسألتُ في سرور، وقد احمرَّت وجنتها:

- ربِّها!

قهقهة في سعادة، وقال:

- بل أكيد إن شاء الله.

ثم أشار بيده لها إشارةً تعني.. «تفضلي أُمامي، يا سيدتي».

ارتعشَ صوتُها، وهي تقول:

- ولكنَّ ماذا سيقول الناسُ عنَّا إذا رأونا معاً، و.....؟؟!!!

تفهمَّ «مُسعد» ما تريدُ قوله، فقاطعها بقوله:

- سيري أُمامي، وسأتبعُكِ محافظاً على مسافةٍ مناسبةٍ بيننا، وكأني عابر غريب بالطريق لا أعرفُكِ، ولا تعرفيني.

سارت، وهو خلفها ببضعة أمتار، ولم يذهب إلا عندما رأى بعض جيرانها من هؤلاء الرِّجال السَّاهرين حول كومةٍ موقدة من الخشب، يحييونها، ويشيعها بعضهم بدعواتٍ طيبات:

- ستركِ الله يا ابنتي، ورعاكِ، وأعانكِ على عملك.

أمَامَ باب البيت الذي تسكن به، وقفت، ثم التفتت، ونظرت نحو «مُسعد» على استحياء، وعلى وجهها ابتسامة هادئة، تدين له بالشكر.. وتحمل معنى.. «ها أنا قد وصلتُ بيتي بأمان، وتستطيع أنت الآن الذهاب أيها الشَّهم الخُلوق».

أدركَ مغزى نظرتها، فذهبَ مُطمئنًا، وهو يُمني نفسه بيومٍ يتقدَّم فيه لطلب يدها.



بصباح اليوم التالي، وصلَ إلى منزل «المجري»؛ رجلٌ تسبقه هيئته، أصلع الرأس، أشيبُ جانبيها، له كرشٌ كبير، وما زال صاحب البيت نائمًا! استقبلتِ الخادمةُ الرجلَ بشتى عبارات التَّرحيب والاحتفاء، ثم قالت:

— أهلاً أهلاً، حالاً، سأوقظ سيدي «سالي»، ستسعد جداً بقدوم سيادتكَ، يا سيادة اللواء.

نهضت «سالي» على الفور للقاء أبيها، ونزلت الدَّرَجَ في سرعةٍ، وهي تصيح في انفعال:

— «دادي»، خلّصني من ذلك الخائن، لقد صبرتُ عليه كثيراً، حرّرنِي منه يا أبي!

لقد هاتفتُه ابنتُه ليلة أمس، وقصّت عليه ما كان من زواج المجري من أخرى، وحملها منه، فهدأ الأب من روعها، ووعدّها بزيارتها بالصباح الباكر قبل أن يخرج زوجها «سمير المجري» إلى عمله.

وقف اللواء «وحيد الأشقر»، وعانق ابنته الوحيدة المدللة، وهو يتوعد «المجري» بقوله:

- ماذا يظن نفسه هذا التافه! بشرفي لن أزيه عند رؤسائه مرة أخرى، ولن يحصل على ترقية أخرى ما دمت حيًا!

ثم هدر اللواء في غضب، وأمر الخادمة أن تخبر «المجري» على الفور بوجوده.. صعدت الخادمة تدعو «المجري» للقاء حمّاه، ولكن المجري تأفّف، وظلّ «المجري» يتلكأ حتى هبط أخيرًا للقاء الرجل.

كأل له صهره - سيادة اللواء - من الإهانة والتحقير والتوبيخ ما لا تتحمّله أذن إنسان لديه ذرة من كرامة، أو قدر ضئيل من الاعتداد بالنفس، ولكن «المجري» تلقى كلّ ذلك بابتسامة باردة، اصطنعها تعبيرًا عن الرضا والتسليم التام بكلّ مذمة رماه بها، واستخدم «المجري» أسلوبه الرخيص في استمالة الرتب التي تعلوه، من حيث التملق والتذلّل، فقال:

- لقد تزوّجتُ أخرى زواجًا عُرفيًا، والورقتان معي، سأُحضرهما على الفور، وسأُمزّقهما أمام سيادتكم، ولن أعود لهذه المرأة اللعوب، التي أوقعت بي بمكر، ودهاء!

لقد عرضت راقصةً سابقة الزّواج على المجري في مقابل عدم تعرّض المباحث لها، وعدم استدعائها كلّ حين بأقسام الشرطة؛ لما وجدت منه من لهفةٍ عليها، ورغبةٍ فيها؛ فوافق شريطةً أن يكون الزّواج عُرفيًا، وأن يحتفظ بالورقتين معه!

لم يكن «المجري» هو ذلك الساذج الذي تُوقع به امرأة، ولكنه وجدها «لُقمة سائغة»، رغم أنه يخشى أن يُلفتَ أنظار قاداته إلى سلوكه المنحرف، خاصةً وأنه بصدد ترقية قريبة يريد أن ينالها، رغم استحقاق الرائد «علي أبوسيف» لها؛ فهو مثالٌ لرجل الشرطة المستقيم، الذي يقف كالشوكة بحلقِ «المجري»، فلا يخشى النور سوى الظلام.

لقد استغاث المُجند «عويضة» بالرائد «علي أبوسيف» الذي استدرجه بحنكة مهنية كي يخبره بمساوئ المجري - وهو ينتفض خوفًا من احتمال موالة «أبي سيف» للمجري، بحُكم الزمالة، والعمل بالمجال ذاته - وتجاوزات «المجري»، التي كم أودت بحياة بعض البسطاء، وكم غيّبت أبرياء خلف أسوار السجون!

خشي «عويضة» من أن يكون الرائد «علي أبوسيف» يختبر إخلاصه للمجري، ويمتحنه من أجل زميله ليس أكثر، ولكن سنوات خدمة «عويضة» بالقسم قد أثبتت له إخلاصَ الرائد «علي أبوسيف»، ومجاهته لظلم الأبرياء قدر استطاعته، ولكنه مازالت تعوزه الأدلة والبراهين حتى يكشف سوء ملف «المجري».

ولكن هيهات لأبي سيف أن يستطيع؛ فاللواء «وحيد الأشقر» يقف خلف «المجري»، ويسانده ويُزيّيه رغم كل أفعال «المجري» المشينة التي يفعلها من وراء الستار، ويؤمن نفسه جيدًا، حتى لا يطلع أحدهم عليها.



(مجهولٌ على هامش الحياة)

هدأ اللّواء «وحيد الأشقر» نفسًا، وراق له ما أنتواه «المجري» من طلاق الزوجة الثانية، وقطع صلته بها تمامًا، وقد أرضى «سالي» خضوع زوجها لأبيها إلى هذا الحدّ المهيّن، وانتهى الأمر.

ولكنّ ثمة امرأة تُدعى «غرام» قد تركت عملها كراقصة بالمشاي الليلية، واكتفت بحياتها كزوجة «للمجري»، وها هي تحمل طفلًا منه بشهرها الثاني!

راح «المجري» يتنصّل منها، ولا يجيبُ على اتصالاتها تارة، ويهدّدها بالسجن والتّنكيل تارة أخرى، وقد تبرأ تمامًا من تلك النّطفة التي تحملها منه، قائلاً:

- ابحتي عن ذلك الرّجل الذي حملت منه بعيداً عني.

ثمّ أغلق الهاتف بوجهها، فراحت تردّد من بين دموعها الغزيرة:

- حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل.

سمعتها أمّها فقالت لها، فيما تنفث دخان أرجيلتها:

- فليذهب بلا رجعة، ما أخذنا من وراء «المجري» إلّا الهمّ والفقر..

عودي إلى عملك يا «غرام»، وقبلها تخلّصي من هذا الحمل الذي يربطك به!

خفق فؤاد «غرام»، وقد أصابها الذعر، فقالت بلا تردد:

- لا يا أمي، لن أعود للرقص ثانية، وسأربي طفلي وحدي من عملٍ شريف.

مطت الأم شفيتها مُستاءة:

- من أين سنعيش؟ ثم من أين ستربي ابن هذا النذل الذي تخلّى عنك، وعنه؟!
فقالت «غرام» باستسلام:

- إن الذي خلقنا لن ينسانا!



الوراق ٢٠١١م

عادت مِنَّة بأمانٍ إلى بيتها، وروحها ترفرف بين جنيبها في سعادة لا تُضاهي، فكم التقت «مُسعدًا» برذاتِ المشفى وبغرفة العمليات، حيث أن كلاهما يعمل ضمن طاقم التمريض بقسم الجراحة العامة، ولكنها أبداً لم يتحدثا إلا تلك الليلة المثيرة، حيث قاطع الطريق، والطريق المُعتم، وسكون الليل!

باتت الآن تراه بنظرةٍ جديدة، تتساءل في نفسها كلما وقعت عيناها عليه:

- لم صار وسيماً هكذا في عيني؟!!

نما حُبُّها البريء، ولم يتحدثا إلا بكلماتٍ معدودات.

كلَّ ليلة، يسير خلفها، يتبعها حتى تلج الطريق الآمنة، حتى أصابته «نزلةٌ شُعبية حادة» أقعدته عن العمل عدة أسابيع.

كانت تذهب «مِنَّة» خلالها، وتعود إلى بيتها بأوقاتٍ متباينة، منها ليالٍ عادت خلالها إلى بيتها ليلاً، بينما ظلَّت خطواتٍ تتبعها رغم غياب «مُسعد» عن العمل.

- يا لك من شخصٍ نادر الوجود يا «مُسعد»، أمازلت تتبعني رغم برودة الليل القارصة، ورغم ما أصابك من وعكة، قد وصفها لي زملاؤنا الممرضون الذين عادوك بمنزلك؛ بأنّها وعكة صحية شديدة بحق؟!!

همست «منة» إلى نفسها بذلك السؤال، ثم التفتت خلفها لتجد الطريق خاوية على عروشها.. فقلت في يأس:

- يبدو أنني اعتدت على سماع خطوات حارسي الأمين، حتى أصبحت أتوهم سيره خلفي رغم غيابه!

ولكن الخطوات عادت لتتبعها مجدداً كلما قفلت عائدة ليلاً، خاصةً بساعات الليل المتأخرة.. وكم تعجبت، متسائلة: - لماذا لا يُحدثني «مسعد» طالما هو يتبعني ليلاً؟!

ثم أطاح بثباتها أسئلة متلاحقة، تلاعبت برأسها، وترددت داخله كثيراً:
- أربما يكون من يتبعني الآن، شخص آخر غير «مسعد»؟ فإذا صدق ظني وكان مُتتبعي ليس «مسعداً»، فمن يكون إذا؟! وماذا يريد مني طالما لا يُحدثني، أو يُظهر لي نفسه؟!

ثم استدارت فجأة حتى ترى وجه مُتتبعها، ولكنها لم تجد له أثراً!!



ليلة ٣٠ يناير ٢٠١١م

لم يُعد «مسعد» إلى العمل بعد، وقلق «منة» يزداد عليه، ولا سبيل للقاءه، ولم تُعطه رقم هاتفها «المحمول»، ولا هو قد أعطها رقم هاتفه كذلك، فما من وسيلة اتصال تُطمئنهما عليه.. فكّرت ملياً فيما يمكنها فعله، فلم تجد ما يبرد فؤادها، أو يهدئ من قلقها.. حتى التقت زميلتها المريضة «مدام شادية» بإحدى ردهات المشفى، وهي امرأةٌ ثلاثينية، متزوجة، ولديها طفلان، ابتسمت لها «منة»، وهي تقول:

- «أبلة شادية»، هل.....؟!

بادلتها «شادية» الابتسامة، وسألت:

- هل، ماذا؟!

تلعثمت «منة»، وهي تسأل مجدداً:

- هل...، هل أجدُ لديك رقم هاتف مُسسس -...؟!

ضحكت المرأة اللمّاحة، وقالت:

- نعم، معي رقم هاتف «مُسعد» طبعاً، وأتصل به كل يوم كي أطمئن عليه، فهو بمثابة أخي الأصغر.

تضرج وجهه «منة» خجلاً، فقالت «شادية» من بين ضحكة رائقة:

- أو تظنين أنّي لا أعلم بها بينكما؟!

اضطربت الفتاة، وأدارت وجهها إلى ناحية أخرى، حيث لم تكن لتستطيع مواجهة نظرات «شادية»، فبادرتها المرأة بقولها:

- لقد أخبرني الشاب برغبته في خطبتك، فهو يثق بي، وأوصاني بالآ أخبر أحدًا بالمشفى حتى يخطبك بالفعل.

ثم قالت في عجلة، وهي تُخرج هاتفها من جيب معطفها الأبيض، ثم راحت تعبث بأزرار الهاتف، وتضحك قائلة:

- هاك هو الرقم يا «منونة»، سجّليه بهاتفك بسرعة، قبل أن أرجع في كلامي!

حملت عينا «منّة» كلّ الامتنان لهذه المرأة الطيبة، وبلحظات كانت قد سجّلت رقم محبوبها الغائب بهاتفها.

مضت «شادية» إلى عملها، بينما انزوت المريضة الشابة لتتصل اتصاها الأول بمُسعد، بين ضربات قلبها المتلاحقة، جاءها ردّه وهنًا متهدّجًا:

- ألو، من معي؟!

نال منها التوتّر مداه، ولكنها غالبتة، بقولها:

- معك «منّة» يا «مُسعد»!

حانت لحظات من السّكوت بينهما، فقد هالته المفاجأة، ولكنه قطع هذا السّكوت بقوله:

- هل أنت «منّة» حقًا؟!

أجابته بصوتٍ مرتاحٍ نوعاً ما:

- أجل، أنا هي!

- أتحرق شوقاً للشفاء يا «منّة» حتى أعود إلى المشفى؛ كي أراك، وأتبعك حتى أطمئن لعودتك إلى بيتك كسابق عهدنا.

امتقع وجهها، وقد تسلل الارتعاب إلى نفسها، حين سألت:

- ألم تكن تتبعني خلال فترة مرضك، وغيابك عن المشفى؟!

بتعجبٍ قال:

- ليتني كنت أستطيع يا «منّة»، فأنا لم أغادر فراشي منذ ست ليالٍ خلّت!

ارتعدت فرائصها، وأيقنت لحظتها بأن من يتبعها شخص آخر غير «مسعد»، لذلك صمتت قليلاً.. فسألها «مسعد» في فزع:

- لماذا تسأليني هذا السؤال الغريب؟ هل تعرّض أحدهم لك بسوء؟ هل هاجمك قاطع الطريق مرّة أخرى؟! أرجوك طمئيني عليك!

حاولت اصطناع الهدوء، فقالت:

- لا.. لا، لم يحدث شيء من هذا كله يا «مسعد».

- افتقدتك.

تلعثمت الفتاة مرتبكة.. ابتسم، وقال بصوته الرزين:

- أنا أكثر يا «منّة»، قرّب الله فرحتنا معاً.

لم تُرد أن تُثقل عليه بأكثر من هذا القدر من الحديث، فأنهت محادثتها معه بقولها:

- استرح الآن، ولا تبذل جهداً، وتناول كل ما تقدمه لك والدتك من طعام؛ لأجلي!

- حاضر، سأفعل بإذن الله.

انتهت المحادثة بينهما، ولكنها لم تنفك تفكر في أمر ذلك المستبع المجهول، الذي يقتضي أثرها ويختفي قبل أن تراه!



فيلاً «آسيا»، مدينة الشروق، أكتوبر ٢٠٠٤م

لم يدر «لؤي» كم السّاعة بعد، ولا كمّ من الساعات مرّت عليه بينما هو مستغرقٌ في سُباته العميق! رأسه مُثقل، والصّداع يطيح به، يتصوّر جوعاً، لم يشعر بمثل هذا الجوع الصّارخ من قبل.

نهضَ بصعوبة، لم يجد سُباطه الفرائي، فركّ عينيه حتى يستبين مفتاح الإضاءة، بعدما أضاءتِ الغرفة دلف إلى الخلاء كي يغتسل، ولكنّه وجد الماء مقطوعاً..

- «عرفاااا»، أنتَ يا «عرفاااا»، أين أنت؟!

كان «لؤي» يصرخ في جنون، يريد استدعاء مدير البيت، «الخدام الوفي لمدام آسيا» منذ عشرات الأعوام!

هرول نحوه الرجلُ الأشيب، حتى جاءه، فصاح الشاب المدلّل:

- كيف ينقطع الماء الآن، ولم ينقطع مرّةً واحدة من قبل؟ وكم السّاعة الآن؟! أنا لا أجدها تفني، ولا أجدها ساعة يدي، ولا «المنبّه» الذي كان يوقظني رنينه المزعج! ثمّ عركَ «لؤي» جبينه بتوترٍ، وهو يسأل في ذعرٍ وهو ينظر صوبَ خزانة ملابسه:

- ما هذا؟ أين اختفتُ ملابسي؟ وأخذيتي؟ ورابطات العنق خاصّتي؟ وكنزاتي؟!

ثم التفت في سرعة نحو «تسريحته الكبيرة» حيث كانت كريات تصفيف الشعر، وسائل تلميع الشعر «السيروم»، ومرطبات البشرة، وكريمات الليل، وكريمات النهار، وبعض عبوات التجميل الرجالية المستوردة، وغيرها من زجاجات البرفان، و«الاسبراي» عالمية الماركة.. فرآها خالية تمامًا، فعاود الأسئلة في جنون:

- آین عطوری؟ وکریماقی؟ و.....!؟!

أَمْسَكَ بِرَأْسِهِ، وَهُوَ يَحْمَلُ فِي وَجْهِ «عَرْفَانَ» الَّذِي لَمْ يَبْدُ عَلَيْهِ أَدْنَى
أَنْدَهِاشٍ، فَصَرَخَ فَجْأَةً:

- أين أمي؟! ماما، ماما!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

أسكتہ صوتُ «عرفان»، فیما یقول بہدوء:

- إِنَّ السَّيِّدَةَ «آسِيَا» قَدْ سَافَرَتْ إِلَى فَرَنْسَا مِنْذُ يَوْمَيْنِ، وَلَنْ تَعُودَ قَبْلَ يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ عَلَى أَقْلٍ تَقْدِيرًا!

مادتِ الأرضُ بالشَّابَّ الذي أَوْشَكَ على فَقْدانِ عقله، ثُمَّ تَكَوَّمَ بجسديِّ
متهالكٍ قَرَبَ خزانةِ الملابسِ، وبصوتٍ متقطِّعٍ سألَ مَديرَ الفِئلا:

- أَتَقُولُ بَأَنَّ أُمِّي قَدْ سَافَرَتْ مُنْذُ ذَٰلِكَ يَوْمٍ؟!

جَحِظْتُ عَيْنَاهُ هَلْعًا، ثُمَّ هَدَرَ فِي غَضَبٍ:

- هل تعني أنني نمتُ لليلتين متواصلتين؟!

أوما «عرفان» برأسه؛ أن نعم، مؤكداً ما ذهب إليه ذهن «لوي»!
 كاد الجوع يفتك بالشاب، فطرد عن رأسه كل أفكاره المدمرة، وراح
 يطلب الطعام من «عرفان»:

- «عرفان»، أحضر لي الفطور على وجه السرعة!

ولكن رد «عرفان» قد تسلل إلى مسامعه بارداً كقطع الجليد:

- ليس لدينا أي طعام منذ غادرت السيدة «آسيا»؟!

جنّ جنون «لوي»، فيما يسأله:

- ولماذا لم تجلب الطعام من أجلي؟ إن أمي تترك بين يديك مبلغاً كبيراً من
 المال؛ لتشتري به الطعام وقت الحاجة، فلماذا لم تفعل؟!

في نبرة باردة، قال «عرفان»:

- ليس لدي ما يكفي لشراء زجاجة مياه صغيرة للشرب!

صرخ «لوي» صراخاً كاد يخرق طبول الآذان:

- كيف هذا؟! هل أنا بكابوس، أم ماذا؟ ماذا يحدث؟!

ثم راح يحدث نفسه بصوت خفيض:

- متعلقاتي كلها مفقودة، أمي متغيبّة دون سابق إنذار، لا طعام، ولا

مياه، ولا شيء سوى هذا الرأس البغيض!

قالها، وهو يصوب نظراته ناحية رأس الأسد الصناعي؛ الذي جاءته به

أمه قبل سبع سنوات تقريباً!

— لماذا اختفى كل ما أملك، ماعدا هذا الرأس المُحدق بي كشيطنٍ مريد؟! —

كل ذلك، و«عرفان» لا يعقّب بشيء.

فأخذ «لؤي» يجوسُ بأنحاء الغرفة كمن أصابه مسٌ من جنون، كان يبحث عن شيءٍ ما، ولكنّه لم يجد ما يبحث عنه، فعادَ لسؤال «عرفان» مجدداً:

— أين «الفيزا كارد» خاصّتي؟! —

مطَّ «عرفان» شفّتيه، مستنكراً ما يسمع، ومؤكّداً عدم علمه بشيء ممّا يبحث عنه الفتى الواقف على شفا الجنون، ثم خرج تاركاً الشاب يهذي تارة، ويهدر أخرى!

أخذ «لؤي» يفتّش عن ملابس يرتديها كي يخرج من غرفته التي يحيطها غموضٌ خانق.. كانت خزانهُ ملابسه خالية تماماً، حتّى أنّه لم يجد جورباً يلبسه بقدميه، فطفق يفتح الأدراج، عسى أن يجد قطعة ملابس واحدة، فأن يخرج إلى الحديقة، أو إلى الشارع فيما يرتدي «بيجامة النوم الرّمادية، تلك التي يرتديها الآن؛ فهذا الجنون بعينه، وكيف سيخرجُ أمام الخدم، والسائق، والبستاني؛ حافي القدمين، بلا حذاء؟! —

تنفّس الصّعداء، عندما عثرَ على قطعتي ملابس بالدرج السفلي «الأخير»، وإلى جانبهما حذاءٌ رجاليّ قديم متشقّق الجلد، شاحب اللون، يكاد سواده يكون باهتاً مقيتاً!

ولكن.. قد أصابه الغثيان عندما قام بفردِ طَيَّاتِ قطعتي الملابس، فإذ بهما «قميصٌ برتقالي باهت، وبنطالٌ أخضرٌ مهترئ، كمُهما باليان إلى حدٍّ يُثير الغثيان، باهتا اللون وكأتهما مغبران بالتراب، عَطْنَا الرائحة منذُ زمن! وكذلك الحذاء، قد كان متشقَّق النعل، توجد بعضُ الثقوب بين نعلهِ ووجهه الجلدي الجاف!

قال هامسًا، والدَّوار يطيح برأسه:

- مستحيل أن أرتمي تلك الثياب البالية القذرة، أو ذلك الحذاء المتشقَّق الكريه، فأنا الملياردير «لؤي الراجح»، أجل، أنا لم أفقدُ ذاكرتي بعد.
ثم همس ثانيةً إلى نفسه:

- «ملياردير مُفلس»، بدون سيدة الأعمال الشهيرة «آسيا الميهي».

انسلَّت من عينه دمعَةٌ حسرةٍ مريرة، وهو يتساءل:

- لماذا لم أفكّر قبل اليوم، في حقيقتي بدون «آسيا الميهي»؟! ماذا لو ذهبتُ أمِّي بأموالها وسلطانها العريض بعيدًا عني؟! كيف سأعيش، وأنا لا أعلم شيئًا عن عالمها العملي، أو عن نشاطها التجاري، والصناعي؟! كيف سيكون حالي، وأنا أمدُّ لها يدي منذُ وعيت على هذه الدُّنيا، ولم يكن لي رصيدٌ بأحدِ البنوك، ولم أملك عقارًا؟! ثم من أنا الآن بدونها! لا شيء.
ضرب جبهته بكفِّه، ثم قال مؤنَّبًا نفسه:

- كم عشتَ يا «لؤي» بلا هدف، بلا عمل، وبلا عقل أيضًا!! حقًا، أنت بدونها، بدون عالمها الكبير؛ لا شيء، سوى نكرة!

(هلع، وانفلاتٌ أمنيّ)

لقد أبلتِ الممرضةُ المخلصة «مِنَّةُ القَبَّاني» بلاءً حسنًا، واستطاعتْ خلال سنواتٍ معدودة خلال عملها بالتمريض في ظلِّ ظروفٍ مُجتمعيةٍ عصيبة، بأنَّها شخصيةٌ جديرةٌ بالثقة؛ حيثُ أسندَ لها بعضُ الأطباءِ مهمَّاتٍ طبيةٍ شاقة، لم تُسندَ لمن هم أقدمُ منها بالعمل، وقد استعانَ بها بعضُ الجيران بمِنَّةٍ عند ولادة بعضِ نساءهم، واضطرتَّ للمواقفة رغم ما قد تلاقيه من مُساءلة قانونية جسيمة لعدم وجود أسرَّةٍ بالمشفى، ولا غرفة عملياتٍ شاغرة، فمصابو الثورة عددهم يفوق الإحصاء، وليس أمامها إلَّا قبول مثل هذه الظروف الطارئة؛ إنقاذًا لأرواح الأمهات، ومواليدهنَّ، وكَم تشاغَبَ أطفالُ الحيِّ وتعاركوا، وتقاذفوا بالحصى والحجارة، فقامت برتقِ جراحيهم بعد تطهيرها حتى يتوقَّفَ النزيف، إلى حدِّ أنَّها كانت تشتري بعض الضَّمادات، وزجاجات البيتادين، والشرائط الطبية اللاصقة، وأكياس القطن، وبعض الأدوية لخفض حرارة بعض المصابين، وغيرها من أدوات الإسعافات الأولى من راتبها الخاصِّ، تلك التي تحملها داخل حقيبتها، أينما ذهبت، فكلَّما توجَّهتْ وجدتْ أحدهم بحاجةٍ، وكَم عرضَ بعضُ أهالي الحيِّ عليها بعضَ المال نظير إسعافها لمصاب، ولكنها كانت ترفض أدنى مقابلٍ ماديٍّ؛ فالجيران، وكلُّ سكان الحيِّ بلا استثناء؛ بسطاء، وهي تشعر بحالهم.. لذلك قد اعترمتْ أن تكرِّس حياتها في خدمتهم، وتيسِّر ما استطاعتْ من أمورهم، وقد قرَّرَ أطباء قسم الجراحة، وممرضوه - بالإجماع - فيما عدا «مُسعد» الغائب بسبب مرضه؛ اختيار «مِنَّةَ رشاد القَبَّاني» لمنصب

«رئيسة الممرضات»، وأن تكون مُشرفة عامّة على طاقم التمريض بِكُلِّ أقسام المشفى.

اغتبطت «شادية» لهذا الخبر السّعيد، رغم أنها أقدم من «منّة» بمجال التمريض، ولكنها لم تكن لتسعد لو وقع اختيار أطباء المشفى عليها كرئيسة للممرضات بدلاً من «منّة»؛ لأنّ «شادية» زوجة، وأمّ، ولديها مسؤوليّة كبيرة إزاء أسرتهما، وليس لديها الوقت الكافي لهذا المنصب الذي يُناسب عزباء ذات حيوية ودأب مثل «منّة»، ولقد احتفى الجميع بممرضة المشفى المتفانية بأن عاجلها بالتباريك والتهنئات تحية لها بصدق، ومودّة خالصة، فيما عدا ممرضة واحدة كانت تقف مبتعدة عن هذا الجمع السّعيد بترقية «منّة»، كانت عينا تلك الممرضة تُسفران عن نظرة مشبعة بالحقد، والحسد.

إنّها «رضوى»، ذات الوجهين التي تبسم لِنّة كلّما رأتها، بينما تنقلب سحنتها إذا ما أولّتها ظهرها!

إنّ «رضوى» نموذج بشريّ شاذّ، يوجد حولنا بِكُلِّ مكان..

اغرورقت عينا «منّة» بدموع الفرحة، ولكنّ فرحتها كانت ناقصة، ينقصها وجود ساكن القلب؛ «مُسعد»! فكّم من أحبة يغيبون عنّا بساعات الفرح، فلا نجد إلى السعادة من سبيل دونهم.

تعلّلت لمن حولها بالذهاب لغسل وجهها؛ لأنّ عيناها دمعت لفرط سعادتها بهذه التّرقية المفاجئة، وانزوت تبكي غياب «مسعد» هذا اليوم بالتحديد، وإذ بأحدهم يهمس خلفها:

— مُبارك يا رئيستنا الجميلة، فلتكوني رحيمة رفيقة بتلاميذك الصّغار أمثالي!

استدارت فيما تحفّف دموعها، فإذا به يقف مبتسماً شاحب الوجه، وقد خسر من وزنه كثيراً على إثر تلك النزلة الشعبية الحادة التي ألمّت به.

لقد أبلغت «مدام شادية» «مسعداً» بخبر ترقية «منة»، فأصرّ على القدوم رغم تحذير الأطباء له بعدم الخروج بهذا الطقس البارد، حتى لا تحدث له انتكاسة، وحيث يلزمه الرقاد مدةً أطول بالفراش إلى أن يُشفى تماماً.

انهمرت دموع «منة» ثانيةً، وهي تبسم في سعادةٍ بالغة، فتقول وقلبها يخفق في سرعة:

- يا لك من نبيل يا «مسعد»، مهما فعلت من أجلك فلن أوفيك حقك لديّ أيها المخلص الفريد.

- أغمضي عينيك يا «منة». (قالها بصوتٍ واهنٍ متهدج..)

أغمضت عينها، ومازالت تسيل دموعها رغماً عنها، بينما يقول:

- الآن، انظري....

فتحت عينها، لتجد علبةً صغيرة وردية اللون بداخلها خاتم خطبة سميك من الذهب، فعقّب، فيما انتابته نوبةٌ سعال:

- ليتك تقبلين هديتي الصغيرة حتى أشفى، وآتي لخطبتك من أسرتك قريباً.



لم تمضِ ساعتان على صدور قرار ترقية «مَنَّة»، حتى انتهت مناوبتها النهارية لذلك اليوم، وقد طلبتُ إلى «مسعد» العودة إلى بيته، والتزام الراحة التامة، وعدم الخروج من البيت حتى تمام شفائه، فأجاب طلبها، وعادت هي بدورها إلى بيتها، حيث جدتها التي لا تتناول الطعام إلا بصحبتها.

اقتربتُ من الشارع، حيث يقع بيتها، ولكن ثمة صراخ وعويل ينخلع له القلب!

حدثتُ نفسها في فزع: جدتي!!

تغذَّ السَّير نحو مصدر الصوت، فإذا بحشدٍ كبير من ساكني الشارع، النساء تصرخ، والرجال منهم مَنْ هو عابسٌ صامتٌ، ومنهم مَنْ يضربُ كفًّا بكفٍّ بلا حول ولا قوَّة.

تحلَّقتُ النسوة حول إحدى الجارات التي كانت تصرخ مُلتاعة، وتلطم خديها تارة، وتشدُّ شعرها المنساب فوق كتفيها تارةً أخرى.. اقتربتُ «مَنَّة» أكثر، ونظرتُ عن كُتبٍ تريد التعرفَ على وجه هذه المرأة التي أحاطتُ بها عشرات النساء!

أوشكتُ على بلوغ مجلس المرأة النَّائحة، ولكن هناك امرأة يبدو أنَّها عجوز تحوّل بينها وبين المرأة الصارخة، لكزتُ «مَنَّة» العجوزَ برفق، وهي تقول بصوتٍ مُرتجف:

- من بعد إذنك.

كانت العجوز هي جدّتها «بسيسة» التي ضمّتها «منة» لاهتة ثم قالت:

- جدّتي، الحمد لله أنّك بخير، ماذا هناك يا جدّتي؟ ماذا حدث؟!

قبل أن تتفوه «بسيسة» بكلمة، صرخت المرأة من بين الجميع:

- ابني! أين أنت يا «فايز»؟

لقد اختطف «فايز»، الطفل الوحيد لـ «منال» و«جرجس» بائع الصُحف، ذلك الطفل الذي انتظره لسبع سنوات، وبضعة أشهر!!

كان «جرجس» يجلس وسط كلّ تلك المعمة، واضعاً رأسه من بين يديه، حتى إذا ما استفسر منه بعض الجيران حول ما حدث لطفله؛ قصّ «جرجس» قصة اختطاف «فايز» الذي لم يبلغ عامه الخامس بعد:

- اصطحبته معي كلّ صباح، أجلسته أمامي فوق درّاجتي، كنتُ أستبشر بوجهه الصّباح، ما من يومٍ أخذته معي به إلّا ونفد ما بحوزتي من الجرائد، والمجلات سريعاً!

انتحب الرجل، ثمّ تابع:

- أطلّ رجلٌ عجوز من شُرقة شقةٍ بناية حديثة، لم أتبه لوجودها قبل اليوم، وكذلك لم أرَ ذلك العجوز إلّا بصباح اليوم فقط، دعاني العجوز عبر الشُرقة قائلاً:

- يا بُني، أرجوك اصعد بجميع ما معك من صُحف، سأبتاعها كلّها

منك.

كانت الشقة بالطابق الثالث، والدَّرَجُ مُغَطَّى بالرَّمال، وبعض مواد البناء كالأسمنت، وبقايا قوالب الطوب المتكسرة، كِدْتُ أن أتعرقل، وأسقط بيننا أحمل الجرائد كلها فوق كتفي مُمسِكًا إياها بذراعي الأيسر، وأحمل ابني «فايز»، وألف ذراعي اليمنى حوله، وأضمه إلى صدري، وما إن دخلت الشقة التي دعاني العجوز من خلال شرفتها، والتي لم يكن لها باب؛ إلا وغامت رؤيتي. شهق الشيخ «شعبان» إمام المصلّى القريب، ثم سأله:

- هل ضربك أحدهم؟!

أجاب «جرجس» بينما زوجته «منال» مازالت تصرخ حتى بُحَّ صوتها، وقال من بين دموعه:

- لا، كان اختطاف «فايز» مِنِّي بحيلة أيسر من ذلك بكثير، ولكنها حيلة لا تخطر إلا على عقول الشياطين!

قاطع «زين» النجار:

- كيف؟ احكِ لنا ما حدث بالتفصيل، فربما نلحق بهم، ونعيد الولد!

أجهش «جرجس» بالبكاء، ثم راح يسرد ما حدث بدقة:

- ما أن أنزلت طفلي عن صدري، ووضعت رزمة الصحف أرضاً، حتى انطلق دخان أبيض كثيف من جميع الأنحاء من حولي، وقد جاء أحدهم من خلفي، وسحبني إلى زاوية لم أرها بالشقة، وسمعت «فايز» يصرخ باكياً: بابا، بابا..

ثم أخذ صوت الصغير في الابتعاد والخفوت تدريجيًا، فأيقنت أنهم قد أخذوه بعيدًا!!

تابع «جر جس» بدموع جاريات:

- لقد استغرق انقشاع الدخان المسيل للدموع، والمثير للسعال ما بين عشر دقائق إلى ربع الساعة تقريبًا، وأنا أركض هنا وهناك، أتحبّط بالجدران، ولا أعرف سبيل الخروج من هذه الشقة اللعينة.

كانت «منة» ترتجف رعبًا وتبكي، وهي تتخيل وقائع تلك الحادثة الأليمة، ولكنها لم تطق صبرًا، فسألت الرجل المكلوم:

- وماذا حدث بعد ذلك؟ وأين تقع هذه البناية؟ ومن هو مالكةا؟!

فقال «جر جس» وقد تورّمت عيناه بكاءً:

- كدت أختنق، حتى سمعتُ جلبّة من حولي، فإذ هم بعض المارة، الذين أوهمهم أحد أفراد تلك العصابة التي سرقت ابني؛ بأنّ ثمة حريق بالطابق الثالث، وسألهم أن يطفئوا الحريق، وقد دفعت شهامة أولاد البلد بهؤلاء للصعود بسرعة كي يطفئوا الحريق، بينما فرّ المحتالون في الحال، وسرعان ما اكتشف هؤلاء المارة، أنّ ذلك الدخان ما كان سوى «غاز مسيل للدموع»! وأما عن البناية؛ فهي بناية حديثة تقع على أطراف «حيّ روض الفرج»، وعندما علم الناس بأمرى؛ اصطحبوني إلى قسم شرطة روض الفرج حتى أحرّر محضرًا باختطاف طفلي صباح اليوم، ولكن القسم كان مُحطّمًا، خاليًا على عروشه، محترقًا، ككثير من مخافر الشرطة بكافة محافظات مصر!

وبسؤالنا عن صاحب البناية، أخبرنا بعضُ مُلاك العقارات المجاورة بأنه
مقاول يعيش بالكويت، ويكلف بعض أقاربه بمتابعة أعمال البناء والتشييد
أثناء وجوده خارج البلاد.

ولم يعرف أحدٌ من يكون هؤلاء القائمون على تلك البناية بالتحديد، فقد
توقفت أعمال البناء بها قبل ستة أشهر، حتى اتخذ بعض المتسكعين منها مأوى
ليلياً لهم، حيث يتعاطون المخدرات، ويلقون فوق رؤوس المارة بزجاجات
الجمعة «البيرة»، والخمور، ولكن الأهالي قاموا بمجابهة بعضهم، وطردهم
قبل ذلك!

جاء أهالي حيّ «الوراق» الشوراع والأزقة، يحملون بعض صور الطفل
«فايز»، يسألون كل من يلتقونهم بطريقهم ما إذا كانوا قد رأوه، أو يعلمون عنه
شيئاً، ولكن لا أثر للولد، وكأنه «فصّ ملح، وذاب بيّم لا أول له ولا آخر».

كم بكته جميع النساء بالحوار، وارتفعت أصوات المنادين عبر مكبرات
الصوت بالمساجد تناشد الأهالي البحث عن الطفل، وكم دقت أجراس
الكنائس كذلك من أجله، عسى أن يجده أحدهم، ويسلمه إلى مسجد أو
كنيسة، وكم بكته «منة»، وهي تذكر ضحكته البريئة، خاصة عندما كان
يلتقط قطعة الحلوى من بين أصابعها، ثم يركض نحو أحد أبويه ضاحكاً
كم ظفر بكنز لا يُقدّر بثمن!

كانت وجهه الجميل يطالعها، مع كل قطعة حلوى تعطيها طفلاً أو طفلة؛
فتدمع عيناها، وتدعو الله أن يرده إلى أبويه.

وقد مضى على تعيب الولد شهران تقريباً دون أن يعلم أحدٌ عنه شيئاً.

فيلًا اللّواء «سمير المجري»، مصر الجديدة، ١٤ فبراير ٢٠١١م

لقد اختبأ اللّواء «سمير المجري» ببيته، كالفأر اللائذِ بِجُحرٍ مُظلم، أثناء، وعقب ثورة يناير ٢٠١١م، وهو حديثُ الترقية إلى رتبة لواء.. وقد عُيِّنَ بمديرية أمن الجيزة؛ فاتسعت دائرة نفوذه.. وازداد غرورًا وبطشًا بالأبرياء، وقد تدرّجَ بالرتب الشرطية من رتبة رائد، تدريجيًا وحتى رتبة لواء؛ على حساب مئات الأبرياء الذين كم لفقَ لهم التّهم، والقضايا الباطلة.

فقد رأى رؤساؤه - الذين لم يكن لديهم أدنى علم بخباياه المشينة - أحقيته بالترقية من زميله «علي أبو سيف»، ذلك الضابط المنضبط الذي كم سعى لكشف حقيقة «المجري»، ولكن «المجري» كان يحترزُ لنفسه للغاية، حتى لا ينكشف أمره، فكم من هاربٍ من العدالة في دنيا البشر!

فهو الذي كم تفنّن في إيذاء الناس، وكم ظلم أبرياء، وكم هتك أعراضًا، وكم قطع عيشًا، وكم خرب بيتًا، وكم... وكم... وكم عاث في الأرض فسادًا!

هدرت زوجته «سالي» في غضب:

- أستظلّ قابعًا بالمنزل هكذا؟ أوووف، كم يخنقني وجودك!

لقد ضاقت «سالي» ذرعًا بإعداد عشرات الأقذاح من القهوة والشاي، بالإضافة إلى تنظيف الفيلا، وإعداد الطعام بنفسها، وهي التي عاشت منذ طفولتها، وحتى الشهر قبل الفائت مُرفهة، مُدلة، لديها خادمة تقوم على

راحتها، ولكن قبل اندلاع ثورة يناير ٢٠١١ مرضت خادمتها، ومُربيتها الخاصة منذ نعومة أظافرها، ولزمت الفراش.. وقد تسببت تلك الأوضاع غير المستقرة للدولة في عدم عثورها على خادمةٍ أخرى محل ثقة.

رطن «سمير المجري»، وقد مثلت كل مظالمه وافتراءته أمام عينيه:

- لو خرجت من الفيلا سيقتلني الناس، أما سمعت بهؤلاء الضباط واللوات القتلي؟ إنها فرصتهم للقصاص مني!

صرخت «سالي» مجددًا، وهي ترميه بنظرة ملؤها الاحتقار:

- من عمالك ما يُسلط عليك، يا سيادة المعاون، لم يكرهك الناس من فراغ بكل تأكيد، فلتراجع نفسك، ولتحاول أن تعيد حساباتك معهم لو عدت للخدمة بعد ذلك.

هدر مضطربًا، وهو يتحسس عنقه:

- لوراوني، يقصد من ظلمهم، وتجنني عليهم؛ سيسحبونني، ويجرجرونني من رقبتني بحبل وراءهم كالجيفة، سيلهون بي، ككرة بين أقدام صبية أشقياء، سيمزقونني بأسنانهم!

ثم همس بصوت خفيض، دون أن تسمعه زوجته:

- أنت لا تعرفين ماذا فعلت بهم!

فزع «سمير المجري» عندما سمع صوتًا ينبعث من جرس باب الفيلا، ولم يتحرك من مكانه كي يرى من الطارق..

رطنْتُ «سالي» ناقمةً على «المجري»، وعلى ذلك النَّصيب الذي جمعها به، أثناء توجَّهها نحو الباب، فهي لم تحصد من زواجها به الحبَّ الذي كانت تشده، ولا الجاه الذي كانت تتطلَّع إليه، ولا حتى الأبناء..

فهي لا تُنجب، وإنَّما بقيت بعصمتها، حتى تتلذذ بإذلاله.. تستعِضُّ بتهميشه عن عقمها الذي يُشعرها بالنقص الدائم!

- نعم، مَنْ تريدِينَ؟! (سألت «سالي» تلك الفتاة التي تقف بالباب..)
كانت فتاة نحيلة، متوسطة الطول، هادئة الملامح، ترتدي ملابس متواضعة..

- هل هذا منزل المستشار «جمال الوزان»؟! (سألت الفتاة في تردّد..)
عَقِبْتُ «سالي» في سخرية:
- منزل؟ هذه «فيلاً اللواء سمير المجري»، وها هي اللافتة أمامك، ألم تقرئي اللافتة؟!

قالت الفتاة بخجل:

- لا يا هانم، أنا لا أعرف القراءة ولا الكتابة، أنا آسفة، كنت أقصد أن أقول «فيلاً المستشار كمال الوزان»!

اعتذرت، واستدارت ذاهبة، طراً بذهن «سالي» سؤال، فدعتها:

- هيّه، أنتِ أَيْتِها الفتاة، تعالي..

أقبلت الفتاة مهرولة، تقول:

- نعم يا هانم.

سألتهـا «سالى»:

- لا توجد بهذه المنطقة فيلاً لمستشار يُدعى «كمال الوزان»، ولكن.. هلاً
أخبرتني لماذا تبحثين عنها؟!

- لقد أرسلني بعض أهل الخير للعمل كخادمةٍ لدى أسرةٍ مستشارٍ كبيرٍ،
وقالوا لي بأنهم يبحثون عن خادمةٍ منذ فترة.

شهقتُ «سالى»، وقد سرّها ما سمعتُ من الفتاة، والتمعتُ مقلتها فرحاً؛
فقد وجدتُ ضالّتها الآن، فاستطردتِ الفتاة، مستفيضة:

- لقد رحل أبواي منذ سنوات، وليس لي موردٌ أقتاتُ منه سوى العمل
كخادمةٍ لدي بعض الأسر المحترمة.

قاطعتها «سالى»:

- ولماذا تركتِ مَنْ كنتِ تعملين لديهم؟!

أردفتِ الفتاة:

- كنت أعملُ مؤخراً قبل شهرين لدى سيّدةٍ مُسنة، وزوجها العجوز..

ولكنّ ابنهما المقيم بالخارج، قد أرسل لهما ليلحقا به، ومنذ شهرين، وأنا
أبحثُ عن عملٍ لدى أسرةٍ أخرى، حتى أخبرني بعض المعارف عن أسرةٍ
تريد خادمة، ولكن يبدو أنّي ضللتُ طريق تلك الأسرة، ولم يعد لديّ ما
أنفق منه على إخوتي اليتامى، يا ااا لَحْظِي التّعس!

تهلّلت أسارير «سالي»، وأخذت تصيح وهي تمسك بيد الفتاة، وتدلف بها إلى داخل الفيلا:

- سميير، سمي -- -، ر، انظر ماذا وجدت!!

اغتمّ وجه «المجري» عندما رأى الفتاة، وراح يهدر:

- كيف يا «سالي» تسمّحين بدخول الغرباء إلى هنا، خاصّةً بهذه الأيام العصبية؟!

بينما كانت الفتاة، تقف متجمّدة بمكانها، إذ هدرت «سالي» في وجهه:

- لأنني تعبت، فأنا التي لم أغسل طبقًا منذ مولدي قد صرت أعدّ لك الطعام والشراب، وأقوم بالتنظيف والكّي، وغيرها من الأشياء التي لم أكن لأتصور أن أفعلها.

ثم هدرت مجددًا:

- يبدو أنّك نسيت من أكون!

تأفّف مستنكرًا:

- أما سمّمت هذه العبارة البغيضة؟!

ثم راح يُقلّدها في عجرفتها، وتيهها، وراح يردّد على مسامعه كلّ العبارات التي كمّ أشعرته بالمهانة أمامها:

- يبدو أنّك نسيت من أكون، أنسيت أنا ابنة من؟ ألا تعرف من أكون؟

أنسيت أفضل أبي عليك؟ أكنت تحلم بمصاهرة عائلتنا؟ إلخ، إلخ، إلخ، إلخ!!

صاح «المجري» فيها بوجه يشتعل احمراراً:

- أنسيّت أنتِ يا «سالي هانم» أنّ أباك قد مات منذ ما يزيد عن عامين؟
أنسيّت أنّ ظهرِك المنيع لم يعد له وجودُ الآن؟ أحسبتِ أنّكِ ستظليّن الابنة
المدلّلة المتغنّجة لأبٍ حقيرٍ مثل أبيكِ؟ أفيقي أيتها المعتوهة؛ فأنا اللّواء «سمير
شُعيل المجري»!

كمّن ذهب عقله، ظلّ يصيح في جنون، وهو يحملق بالسقف:

- ليس لأحدٍ عليّ الآن أمرٌ ولا نهْيٌ؛ فكم سحقتُ أناساً بحذائي، فلا
تحدّني حتى لا أسحقكِ أنتِ أيضاً يا ابنة اللّواء المتقاعد!
ثمّ قال متهكّماً، وهو يصعد الدّرج:

- أقصدُ... يا بنتَ المقبور «سيادة اللّواء المتقاعد وحيد الأشقر»!

لم يأتبه كلّ من الزوجين بوقوع تلك المشادّة الحادّة أمام فتاةٍ غريبة، لا
يعرفان لها أصلاً ولا فصلاً!

انهارت «سالي» باكيةً لأوّل مرّةٍ بحياتها، فاليوم يصفّعها «المجري» بحقيقة
وضعها الحالي، الذي كم حاولت أن تتناساه حتى لا تشعر بالضعف أمام
زوجها الذي لم تحبّه يوماً، ولكنها سرعان ما انتبهت لوجود الفتاة على مقربةٍ
منها، تقف مصفرة الوجه، فانزعّت «سالي» وجهها الحقيقي الضعيف،
وارتدت قناع القوّة والبأس، قائلة للفتاة:

- ما اسمُكِ؟!

— «سلمى» يا سيدتي.

— أين تسكنين يا «سلمى»؟!

— ليس لديّ مسكن، بل أَسْكُنُ حيثُ أعمل، أعني أنني أعيش بكنف الأسرة التي أعمل لديها.

— إذًا، لو عملتِ لدينا؛ فستعيشين معنا؟!

قالت «سلمى» على استحياء:

— هذا من بعد إذنكِ سيدتي!

أومأت «سالي»، موافقة، ثم قالت بلهجة آلية:

— أتعشّم ألا تخيبي ظنّي بك.

ثم سألتها:

— كم تريدن كراتبٍ مبدئي؟!

أجابت الفتاة، مطاطئة الرأس في حياء:

— ما ستعطيني إياه سأرضى به دون اعتراضٍ يا هانم.

— إذًا، فاذهبي كي تُحضري ملابسكِ الآن! (قالتها «سالي» بنبرة

أمرّة..)

أردفت الفتاة، بينما تجري بوجهها أماراتُ السّرور:

— بالحل يا مدام، ساعة واحدة، وسأكون هنا!



(مسلسلُ فزعٍ لم ينتهِ بعد)

مشفى الوراق المركزي، الساعة الثالثة من بعد ظهر الثاني من مارس عام ٢٠١١ م لم يمض شهران على فقدان الطفل «فايز جرجس» حتى أخذت الممرضة «شادية»، تصرخُ صراخاً قد أفزع كلَّ رواد المشفى، وطاقم الأطباء، والمرضى عقب استقبال «شادية» مكالمَةً هاتفيةً من والدتها حيث أخبرتها بهاته المكالمه بفقدانها حفيدتها «صفاء» «ابنة شادية» الكبرى ذات الأحد عشر عاماً مُنذ التاسعة صباحاً!!

فقد أصرَّت «صفاء» ابنة «شادية» على جلب طعام الإفطار بنفسها من مطعم «الفول والفلافل» المواجه لبيت جدتها؛ حيث كانت تمكث وأخوها الأصغر «أحمد» لدى جدتها بمنطقة «إمبابه» حتى تعود أمهما «شادية» من عملها، فتصطحبهما إلى منزلها البعيد ببولاق الدكرور.

سِتّ ساعاتٍ مرّت كالدهر على الجدّة «أمّ شادية» وهي تنتظر عودة حفيدتها، وتسأل عنها هنا، وهناك.. وبسؤال «فتيح» صاحب المطعم عما إذا كان رأى «صفاء» عندما جاءته لشراء الطّعام أم لا؛ أكّد الرجل - الذي يعرف البنت جيّداً - بأنّه لم يرها اليوم، ولم تأتِ البنت اليوم لمطعمه مُطلقاً!

- كيف هذا؟ كيف لك ألا تراها، ومطعمك أمام بيت جدتها مباشرة؟! وحتى لو لم تأتيك لشراء الإفطار اليوم، فكيف لك ألا تراها عندما خرجت من البيت، و«الباب أمام الباب»؟ أي أن باب المطعم أمام باب البيت مباشرة؟!!

هكذا سألت «شادية» صاحبَ المطعم، وهي تُمسِكُ بتلابيب ملابسه، وتبكي، وتصرخ بجنون، والناس يحاولون تهدئتها، ولكن «فتيح» أجابها مُتأثراً بحالها:

— أنا مُقدَّرٌ ما بكِ يا «أمّ صفاء»، ولكن ما ذنبي أنا الآن؟!

ثم عاد يُقسمُ لها:

— والله أنا لم أرها، فقد توافدَ الزبائن صباح اليوم على مطعمي ككلّ يوم، وكان أمامي زحاًمٌ كبير، كلّهم يريدون شراء فطورهم، فهل سأنتبه إلى عملي، و«أكل عيشي» أم سأتركُ زبائني وأراقبُ مَنْ يدخل ويخرج من منزلكم؟! تركتُ «شادية» ملابسه، واعتذرتُ له، ومازال قلبها يحترق لغياب ابنتها:

— عندك حقّ يا عمّ «فتيح»، اعذرني.. فأنا أبحثُ عن طرف خيط، يوصلني بابنتي فقط.

قال الرَّجل في خُلُقٍ دميّ:

— ربّي يصبرُك، ويجمعُك بها قريباً، أنا مسامحكِ على كلّ حال.

لقد أطاحَ غياب «صفاء» بعقل «شادية»، خاصّةً وأنّ زوجها قد سافر من أجل العمل بالملكة العربية السعودية قبل ثلاثة أسابيع من تاريخ غياب ابنته الكبرى، وعندما علّم بالخبر المشؤم؛ لم يستطع العودة، حيث لم يكن يملكُ ثمنَ تذكرة العودة، فمكثَ محزوناً خالي الوفاض.

طافت «شادية» بكلّ حدب وصوب، وطرقت كلّ باب أمكنها الوصول إليه، ولكن دون جدوى.. فراحت تصرخ مفجوعة بالطرقات:

- جدوا لي ابنتي، أعيدوا إليّ صفاء حتى ولو كانت جثة.

واصلت العويل مُلتاعة، شعثناء الرأس:

- دلّوني على مكان ابنتي، ولو كانت ميتة، فأنا أعرف موضع قبرها لأهون عندي من جهلي بمكانها.

أين أنت يا صفااا؟؟!!



هبط «لؤي» إلى الطابق الأرضي من الفيلا، ثمّ توجه صوب المطبخ الكبير، ولكنه لم يدخل ذلك المطبخ يوماً، يعرف مكانه جيداً حيث كان يرى «عرفان» يدخل، ويخرج يحمل بين يديه طاولات الطعام والشراب!

هرول ناحية الثلاجة، فربّما يكون «عرفان» كاذباً، ربّما هناك طعام داخل الثلاجة، سيأكل أيّ شيء يعثر عليه، فهو جائعٌ إلى حدّ الموت الوشيك!! خاب ظنه، فالثلاجة كانت خالية تماماً، فارغة حتّى من زجاجات الماء، الجوع يمزّق أحشاءه، العطش يفتك بحلقه، فخرج إلى حديقة الفيلا الشاسعة، وهو يرتدي تلك الملابس القديمة المعبّقة برائحة العطن، وذلك الحذاء الكريه!

بدا مفلساً مُعدماً، يشمّر منه كلّ من يراه.. جالّ بناظريه من حوله، لاحظ عدم وجود سيارته، وتذكّر آنذاك وعد أمّه له قبل ليلة لقائه الأخير بها، بأنّ السائق سوف يعيدها إلى هنا!

- أهكذا، قد اندثر كل شيء فجأة؟ أمي، بطاقة هويتي، ملابسي، هاتفي،
سيارتي؟!!

ثم حملت بالأفق إلى حيث لا شيء، وراح يفكر بصوت مسموع:
- لم تدب نملة فوق أرض هذه الفيلا دون علم أمي؛ إذا فكل ما حدث
معي كان بعلمها، وبإيعاز منها، ولكن!!

سكت برهة، استجمع خلالها أفكاره، ثم عاد لمحادثة نفسه مرة أخرى:
- ولكن.. لماذا تفعل «آسيا الميهي»، أو «مُهجة البصري» هذا بي؟ لماذا
تدمرني، بعد أن دللتني لما يربو عن العشرين عامًا؟ لماذا تتركني ها هنا، مجردًا
من كل شيء؟!

استفاق من شروده، ومازالت رؤيته مشوشة، على رجل ضخم الجثة،
يفترش النجيل الأخضر، يتناول الطعام، كاد لعب «لوي» يسيل لما رأى
الرجل يأكل في نهم..!

اقترب الشاب ذو الملابس البالية من الرجل، فقام الرجل من فوره
يحييه، ولكن الدهشة قد عقدت لسانه عندما طالع هيئته الرثة، ولكنه عاجله
متعجبًا:

- «لوي» بيه، ما الذي فعل ذلك بسيادتك؟!

كانت عينا «لوي» مثبتتان على الطعام بذهن غائب تمامًا، ووجه شاحب،
وشفتين جافتين كشفاه الموتى، فلما رآه «عويس» البستاني، على تلك الحال؛
دعاه لتناول الطعام:

- تفضل معي يا «لوي» بيه، بِسَمِ اللَّهِ..

ما أن التقطتُ أذنا الشابَّ دعوةَ الرجل، إلّا وقد جلس في الحال يلتهم الفطير، والعسل الأسود، والجبن القديم المملّح، وأخذ يتجرّع الماء من فَم «القُلة» الفخارية!!

تأمّله «عويس» «الجناني»، وأذهله ما رأى من «البية المدلل» من جوعٍ سافر وظمأ قاتل، فترك له الطعام بأكمله، وهو يقول:

- بالصّحة والعافية يا بيه.

فأجهز الشاب على الطعام كُلّه خلال لحظات، فأسرع الرجل يُحضر مزيداً من الفطير، والجبن، والعسل الأسود، وهو لا يُصدّق ما يرى!

فهذا هو «البية» الذي لا يتناول سوى أفخر المأكولات، ولا يشرب سوى عبوات المياه المعدنية المستوردة! فكيف له أن يُجالسه الآن؟ كيف يفترش معه أرض الحديقة هكذا؟ بل، وكيف يشاركه طعامه البسيط الذي جاء به من قريته الريفية المتواضعة!!

بينما انهمك «لؤي» مجدداً في تناول الطعام بشراهة، و«عويس» غارقٌ بأفكاره، وعلاماتُ التعجّب التي تنزاحم برأسه؛ إذ مرّ بائع صحفٍ ينادي بالجوار.

فقال «لؤي» خَجَلًا:

- «عويس»، من فضلك، اذهب وأحضِر لي كلّ صحف ومجلاّت اليوم!

انتظر «عويس» أن يعطيه «لؤي» مالاً من أجل شراء الصحف والمجلاّت التي طلبها، ولكنّ الأخير لم يفعل؛ فهو لا يملك قرشاً واحداً، ولم يكن الجناني يعلم بما آل إليه حال الشاب، الذي سُلِبَ منه كلّ ما يملك دون سابق إنذار!

كرّر «لؤي» طلبه مرّة أخرى:

— ماذا بك يا «عويس»، أما سمعتني أطلبُ منك إحضار صحف ومجلات اليوم كلّها؟! —

هُرِعَ الرَّجُلُ يلبي طلبَ «لؤي»، والدّهول يسيطر عليه تمامًا، تصفّح «لؤي» الجرائد والمجلات في سرعة، كَمَن يبحث عن خبر بعينه.. ولقد عصفَ بكيانه ذلك الخبر المنشور بكافة الصحف والمجلات تقريبًا بصفحات الاجتماعيات، ورغم اختلاف صيغة الخبر إلى حدّ ما من جريدةٍ لأخرى إلا أنّ مفاد الخبر كان واحدًا..

(تمّت بحمدِ الله خطبة الأنسة «غادة أبو هاشم» كريمة المستشار «عدي أبو هاشم» المستشار بمحكمة النقض إلى الأستاذ «أدهم الرّوبي» نجل المحامي الكبير «رافع الرّوبي»، بحفل بهيج حضرته كوكبة كبيرة من رجالات الأعمال والقانون، ليلة أمس بفندق «موفيميك المطار» بالقاهرة).

اقترنَ الخبرُ بصورٍ شتّى للخطيبين «أدهم، وغادة»، وقد بدتِ السّعادة جليّةً على محيّاهما.

حمل «لؤي» نفسه — بفؤادٍ يكاد ينفجرُ غيظًا — إلى داخل الفيلا؛ حيث غرفته الخالية من كلّ ما كان لديه، إلّا من رأسٍ ليثٍ نائر الشعر كشيطانٍ رَجيِم!

أخذ يتحدثُ إلى نفسه في جنونٍ حينًا، ويحملك برأس الأسد حينًا آخر، حتى سمعَ الرأس المخيف يتكلّم!!!



(فطرة لا تتبدل رغم كل شيء)

تعالت ولولة نسوة الحي التي لم تتوقف، وهذه المرة قد كان الصّراخ ينبعث من بيت السيّدة «أمنية» حيث فُقدت حفيدتها - ابنة ولدها الأوسط - في ظروف غامضة، وما من دليل يجعل ذويها يعرفون أين ذهبت! فقد كانت «هاجر» ذات الثمان سنوات تلعب أمام البيت، على مرأى ومسمع من بعض الجيران والمارة، بالإضافة إلى أن جدّتها «أمنية» التي كانت تجلس بشرفة شقّتها بالطابق الثاني، وتراها جيداً..

نهضت الجدّة لبضع دقائق ليس إلا لتعدّ كوباً من الشاي، ثمّ عادت إلى مجلسها ثانية، فلم تر «هاجر» بين الأطفال حيث كانت تلعب، نادّت حفيدتها، فلم يصلها ردّ!! سألت الأطفال عنها، فأفادوا بأنّها ذهبت من دون أن يلاحظوا..



منتصف أبريل عام ٢٠١١م، الساعة الواحدة ظهراً..

اليوم قد انتهت «نباطشية» عمل «مئة» بالمشفى نهاراً؛ حيث قضت ليلة أمس كلّها بالمشفى، وحن موعداً عودتها إلى جدتها التي استبدت القلق بها عليها، رغم أنّها تطمئنّها بين الفينة والأخرى عبر الهاتف.

أوشكت على الوصول إلى بيتها، ولكنّ الحنين داخلها قد حملها إلى زيارة مُعلّماتها بمدرسة التّمرّض التي تخرّجت فيها، فتوجّهت صوب مدرسة «الخازندارة» بروض الفرج.. هناك بالخازندارة، أمسكت للمرّة الأولى بحياتها «سرنجة الحقن»، و«مشرط الجراحة»، و«أدوات الإسعافات الأولى»، وغيرها، فكم هي مدينة بالفضل لهذه المدرسة العريقة، ولمعلّماتها الفاضلات.

جالت بأنحاء المدرسة، تُسلم على تلك المعلمة، وتساءل عن أخرى، حتى مضى من الوقت ساعة ونصف تقريباً، كان لها في كلّ ناحية من المدرسة الكبيرة ذكرى لا تُنسى، هنا كانت تجلسُ بصحبة رفيقاتٍ فرقت بينها وبينهنّ دروب الحياة، وهناك كانت تضحك لفكاهة ألفتها زميلةٌ خفيفة الظل، وهناك كانت اختبارات عامها الأوّل، وهناك كانت تُعلّق كشوفُ الناجحات، وهناك كان مكتبُ مديرة المدرسة رحمها الله، ذلك المكتب الذي تحوّل قبل عامين إلى مقصفٍ للمدرسة، وهذه هي المكتبة؛ حيث كانت تجدُ متعة مصاحبة الكتب؛ كلّها ذكريات لا تُنسى.

ملأته نشوة الحنين والامتنان، وخرجت من مدرستها تغمرها السعادة، فسارت مُفعمة بالحياة، حتى أرفج قلبها صراخ امرأة تركض بالشارع حافية القدمين، فرعة، بعد أن ذهبت إلى مدرسة ابنها الابتدائية كي تصطحبه إلى البيت؛ فلم تجده.. وقد تنصّلت المدرسة الحكومية من مسؤوليتها إزاء اختطاف الطفل من داخل المدرسة نفسها!

تنهّدت «منّة»، وهي تتساءل:

- ماذا يحدث للناس؟ من المسئول عما يحدث؟ وما هو الحل الآن؟!

«فايز»، و«صفاء»، و«هاجر»، وطفل هنا، وطفلة أخرى هناك، جميعهم مفقودون، لصالح من يحدث ما يحدث؟ وكيف يكون لدى خاطفيهم كلّ ذلك القدر من الدهاء، والحذر، إلى حدّ أنه لم يُخلّفوا وراءهم دليلاً عليهم؟! مازالت «منّة» تسير شاردة، تفكر فيما طرأ على هذا المجتمع من تبدّل ينذر بعواقب وخيمة، إذ بفتاة بالثامنة عشرة تقريباً تصرخ باكية، وهي تركض خلف درّاجة بخارية يقودها شابّ عشريني!

أدرك المارة آنذاك بأنّ قائد الدراجة البخارية ما هو إلّا لصّ قد اختطف حقيبتها، وفرّ هارباً قبل أن ينتبه له أحد.

جلست الفتاة تبكي فوق رصيف الشارع لما لم تلحق بالسارق، دنا منها بعض المارة، أحدهم يقول لها:

- المهمّ أنك بخير.

وقالت امرأة وهي تتفحص وجه الفتاة، ويديها:

- هل جرحت يا ابنتي؟!

أجهشت الفتاة بالبكاء، وهي تقول في فزع:

- إن أبي بالمعاش، وقد أعطاني آخر مائة جنيه لديه حتى أحضر له دواء الضغط والسكري من الصيدلية، وها قد سُرقت النقود، فماذا أقول لأبي الآن؟!

لقد قامت ثورة الخامس من يناير بعام ألفين وأحد عشر ميلاديًا، وهناك ملايين الموظّفين، والمُحالين للمعاش؛ لم يحصلوا على رواتبهم، ومعاشاتهم بعد! فمؤعدُ استلام الرّواتب كان بنهاية يناير، والمعاشات كان موعدها ببداية الشهر الجديد «فبراير»، فلا الموظّفون حصلوا على رواتبهم ولا أصحاب المعاشات، نالوا معاشاتهم، وهذا الحال كان حال الناس جميعًا بلا استثناء، أمّا أصحاب الشركات والمشاريع الخاصّة التابعة للقطاع الخاص؛ فقد أغلقت تمامًا حيث السرقة التي تفشت بصورةٍ مرعبة، وأعمال السلب والنّهب هنا وهناك!!

توقّفت كلّ مظاهر الحياة تقريبًا في أعقاب الثورة، حيث شركات كبرى لجأت إلى أن تُصنّف أعمالها، وتُسرح عمالها، وكذلك مخابز، ومنافذ لبيع الأغذية، ومحالّ، ومصانع؛ كلها أغلقت.

لقد أضحى حالُ الناس يُرثى له، ولكنّها ضريبةُ التغيرِ الجذري.

ولكن فطرة عموم الشعب هي الفطرة السليمة النقيّة رغم ما عايشوه من ضغوط نفسية، ومجتمعية، ومادية عصبية؛ جعلتهم يتآزرون فيما بينهم بأحلك الأزمات.

وَجَدَ الوقوفُ حولَ الفتاة أنفسهم - وبدون أن يُذكرَ أحدهم الآخر - يمدُّون أيديهم للفتاة المحزونة ببعض النقود رغم حاجاتهم الماسّة لكلّ جنيّه من هذه النقود! وخلال لحظاتٍ فقط كان بين يدي الفتاة ما يزيد عن مائتي جنيّه.

إنّ الخيرَ بهذا الشعب قائمٌ، وسيبقى قائماً مدى الحياة.



١٩ أبريل ٢٠١١م.. أثناء عودة «منة» إلى بيتها ليلاً بساعة متأخرة

الساعة تشير إلى الثانية صباحاً، و«مسعد» يقف غير بعيدٍ منها بالطريق،
يرجوها:

- أرجوكِ يا «منة»، اسمحي لي أن آتٍ لخطبتك، مع والديّ غداً، فإلى
متى التسويف؟ ألا تقبلين بي؟!

- لا يا «مسعد»، ليس الأمر هكذا. (أوضحت «منة» في أسى)

- إذًا، كيف هو الأمر يا «منة»؟! هل ظهر أحدُهم بحياتك، وتنجلين من
مصارحتي بالأمر؟!

التمعت الدموع بعينها الواسعتين، ثم أردفت:

- كيف أسعدُ بين الثكالي والمحزونين يا «مسعد»؟ لقد عَشَّش الحزن
ببيوت بعض الجيران الإعرّاء جدًّا على قلبي، فكيف تتم خطبتي بمثل تلك
الظروف؟! أنسيّت يا «مسعد» - على الأقل - أختنا الكبرى وزميلتنا الحنون
«شادية»، وما آل إليه حالها؟!

أوماً «مسعد» مُتفهِّمًا، فطمأنته «منة» بقولها:

- لن أكنُ لغيرك ما حييتُ يا «مسعد»، فاطمئن.. لكن أرجو منك القليل
من الصبر.

أوماً ثانيةً، وقال بنبرة أسى:

- وهو كذلك يا «منة»، كما تريدن.

الليلة التالية..

ثمة رنينٌ تسمعه كلّما اتصلتُ بمسعد، ولكن.. لا أحد يجيب! كيف له أن يرى شاشة هاتفه تومضُ باسمها، ولا يُجيب! فقد كان يتحيّن اتّصالها.

واليوم، هو لا يجيبُ على اتّصالاتها، زاد من حيرتها أنّها لم تره بالمشفى من بعد الليلة السالفة.. سألتُ عنه كلّ مَنْ يعرفه، ولكن الجميع لا يعلمون عنه شيئاً.

ظَلَّت تتساءل بدموعٍ حائرة:

- هل تغيرَ هكذا فجأةً لأنّها أرجأتِ خطبتهما؟! ألم يأتِ إلى المشفى حتى لا يراها؟!

مرّ يومان، وما زالت تسمع الرنين ذاته كلّما اتّصلتُ به، ولا جديد، سوى أن هرولتُ نحوها «رضوى» زميلتها الممرضة بالمشفى، تسألها:

- «منّة»، أما علمتِ بما حدثَ ليلة أمس هنا بالمشفى؟!

- لا يا «رضوى»؛ فقد كنتُ في أجازة أمس كما تعلمين، فماذا حدث؟!

أجابتُ «رضوى»، وأماراتُ الفزع تتجلّى فوق وجهها:

- لقد أتتُ والدة زميلنا «مسعد» والدة بيكيان، ويسألان إدارة المشفى

عن «مسعد»، وقالوا إنّهُ لم يعدْ إلى بيته منذ ليلة أمس!

أَحْسَتْ «مِنَّة» بَأَنَّ قلبها قد سقط بين قدميها، وانعقدَ لسانها عن التعقيب..
فاستطردت «رضوى» في أَسَى:

— لقد بكتِ أُمّه وانتحبتِ حتى بكى كلٌّ مَنْ رآها يا مِنَّة!

سارت «مِنَّة» بخطواتٍ متثاقلة، وكأنَّ جبال الكون قد جثمت فوق صدرها، وراحتْ تفكّر في ذلك الحديث الأخير الذي دار بينهما.

واهتدى تفكيرُها إلى أَنَّ «مُسعد» قد غضبَ لتأجيلها خطبتهما، وقد تظاهر بالرّضا، ولكن إذا صحَّ ظنُّها فما هو ذلك الذّنب الذي فعله أبواه كي يعاقبهما بغيابه عنهما؟ لماذا لم يعاقبها هي وحدها؟!

تساءلت هامسة:

— أَلِى هذا الحدِّ قد قسا قلبُك يا «مُسعد» على أقرب الناس إليك؟!



(سأظلُّ أُحبُّها إلى ما بعد الموت، صدَّقوني)

الثامن والعشرون من أبريل ٢٠١١م، الثامنة صباحاً..

المشفى يعجُّ بالمرضى، من بين هؤلاء المرضى كان العجوز «خليل العجايبى»، الذي سكنتُ بعضُ الآلامِ المزمنة بأعضاءٍ شتَّى من جسده الهزيل، فقبل شهرين، قد استُئِصِلَتْ مرارته، ومنذ ثلاث ليالٍ قد استُئِصِلَتْ إحدى كليتيه، وها هو يعيش على المحاليل الطبيَّة المُعلَّقة بحامل معدني بجوار سريرهِ، حيث مازال الطَّعامُ ممنوعاً عنه حتى الآن، الجميع بالمشفى يعلمون أنَّ «خليل» «مقطوعٌ من شجرة»، حيث لا أهل، ولا ولد، ولا أصدقاء، ولا أقارب، ولا يأتي أحدٌ للسؤال عنه أو لعيادته، يعتني به معظم العاملين بالمشفى، وخاصة «منة».

وهو رجلٌ خفيفُ الظلِّ، تارة يضاحكهم، وتارة يبثُّهم لوعةً وحدته بعد وفاة زوجته الغالية، وعدم إنجابه منها، وعزوفه عن الزَّواج بعدها، حيث عاش على ذكراها، فكم كانت «دُمَيَّانة» زوجة وحيبة لا تُتسى بناظريه، كم أحبَّها، وكم باح بِحُبِّه لها لمن حوله، وظلَّ يردِّد:

- سأظلُّ أُحبُّها إلى ما بعد الموت، صدَّقوني..

طيلة مكوته بالمشفى، أو حتى بيته ذي الجدران المُصمتة الباردة؛ كان يقضى نهاره بِصُحبةٍ مذياعهِ القديم، الذي لم يكن يفارقه بُرهة..

«خليل» يقفُ على عتبات السّتين من عمره، يدير مذياعه القديم الذي يتّخذ موضعه على شفير النّافذة أعلى سريره - كلّ صباح - على مؤشر إذاعة «القرآن الكريم»، حتى أنه يردّد مع التّلاوات القرآنية المنبثّة من المذيع أحياناً.. ممّا يؤكّد للمحيطين به أنّه يحفظ بعض سور القرآن الكريم عن ظهر قلب!

ذات يوم، تعجّب من فعله هذا «محمد» أحد أبناء «إبراهيم»، أحد نزلاء العنبر رقم ٣، وسأله:

- عمّ «خليل» ألسّت نصرانيّاً؟!

ضحك «خليل» حتى بانّت نواجذه، وكذلك «إبراهيم»، وأدرك ماهية السؤال التالي، فقال:

- بلى.. دعني أوفّر عليك عناء السّؤال القادم يا بُني؛ أنت تريد أن تسألني «لماذا أديرُ مذياعي على محطة القرآن الكريم، رغم أنّي لست مسلماً، أليس كذلك؟!»

أوماً الشّاب مؤكّداً صحّة حدس الرجل العجوز بعينين جاحظتين شغوفتين بتلقّي إجابته، فقال «خليل»:

- الله حولنا في كلّ مكان، وكلّنا نحبه رغم آثامنا جميعاً كبشر، وكلام الله رسالةٌ لكلّ البشر يا بُني، ليس للمسلمين فقط، أنفهمني؟!

ابتسم الفتى ابتسامة واسعة، وهزّ رأسه مؤكّداً دون أن يُعقب، فقد أدهشه منطق هذا الرّجل متّسع الأفق، واستصغر منطق الضيق الذي دفعه لإلقاء ذلك السؤال السّاذج!

يديرُ مؤشّر مذياعه للاستماع إلى نشرات الأخبار اليومية، وبعض البرامج الحوارية، وبعض البرامج الثقافية، ومع نسائم الغروب، يُنصتُ إلى شِدو كوكب الشرق «أم كلثوم»، ويعانق ذكرياته الحاملة التي جمعتُ بينه وبين ملاكه الراحل «دميانة»؛ تلك الغائبة الحاضرة بوجدانه وروحه، يُجزم للجميع بأنّ كلّ أغاني الحبّ بهذا الكون قد غُنّتْ لمثلها، وهي التي تستحقّ كلّ قصائد العشق التي ترنّم بها أرباب البيان بكافة أرجاء الكون. هي الحبيبة التي ودّ لو عاش آلاف السنين حتى يحبّها، ويحبّها، ويحبّها، ويحبّها ما يحمله قلبه المغرم بها!.. ويا ليت آلاف الأعوام تكفيه كي يخبرها كم أحبّها، وكم.. وكم التّاع لرحيلها!



- صباح الخير يا عمّ «خليل».

أَلقْتُ «مَنّة» رئيسةَ الممرضات، تحية الصباح على بعض المرضى المستيقظين بهذه السّاعة، حيث كانت تُمرُّ بالعنابر، تُشرفُ على عمل عاملات المشفى في توزيع وجبة الإفطار على المرضى الماكثين بالمشفى بعد إجراء بعض العمليات الجراحية لهم.

- صباح الفلّ، والياسمين يا ابنتي الحبيبة، كيف حال جميلتنا اليوم؟!

هكذا ردّ «خليل» تحيتها بأبوة خالصة..

تكتّمَتْ «مَنّة» قلقها وحزنها لعدم ظهور «مُسعد» حتى اليوم، وكذلك لعدم ردّه على اتّصالاتها الهاتفية، ولكنها ابتسمت «لخليل»، وقالت وهي

تمضي نحو العنبر المجاور حيث سبقتها بعض العاملات حاملات طاولات الطعام إلى هناك:

— أنا بخير والحمد لله، أتمَّ الله شفائك على خيرٍ يا عمَّ «خليل».

لم يكن حديثها مختصراً مقتضباً معه هكذا قبل ذلك، ولكنَّ الرجل قد التمس لها العذر لما يلحظ من تفانيها بعملها كلَّ يوم.

مرَّت الممرضة «رضوى» بالعنبر رقم ٣، بعد ذهاب «منة»، كانت تحدِّق بنزلاء العنبر باستعلاء ودويَّة، وعندما رآها «خليل» ابتسم لها، وقال:

— نهارك سعيد يا «رضوى» يا ابنتي.

اقتضَبَ جين «رضوى»، وحدجته بنظرة مُتعالية، زادت من عبوس وجهها، وقالت:

— لا شأن لك بي أيها العجوز.

ثمَّ نصبت سبابتها أمام وجهه، وقالت في حِدَّة:

— إيَّاكَ أن ترفع الحواجز بيني وبينك ثانية.

هكذا هي «رضوى»؛ حادَّة الطباع، فظة اللفظ، تخاصم وجهها الالبتسامة.

تُعاملُ المرضى بدُويَّة وازدراء، ما لم ترها «منة»، أو أحد أطباء المشفى.. أمَّا بحضور رئيسة الممرضات، أو أحد الأطباء فتتصنَّع الرِّقة والودَّ في تعاملها مع مرضى المشفى.

«رضوى» دائماً تنقُم على كونها «ممرضة»، تحقد على الأطباء والطبيبات، وترى أنها كانت تستحق أن تصبح طبيبة؛ بل مديرة مشفى بالقطاع الخاص، وتضَبّ جام غضبها ولومها على الفقر، فهي أختٌ من بين ستّة أخوة وأخوات، يوفر أبوها «السَّبَّاك» لهم قوتَ يومهم بشقّ الأنفس! تتوق «رضوى» دومًا للانتقال بسُرعة البرق إلى حياة مفعمة بالدَّعة والرفاهية.

نصحها «خليل» ذات يوم بقوله:

- يا ابنتي، اكتسبي أفئدة الناس من حولك؛ فذلك خيرٌ ما ستحصدين بحياتك لو تعلمين.

ردّت «رضوى» عليه بغلظة:

- وفرّ نصائحك لنفسك أيّها الكهل.

ثم انطلقت خارجةً من العنبر.

حوقَل «إبراهيم» الرّجل الخمسيني، ذلك التّزيل الثاني بالعنبر نفسه، وهو يؤازر «خليل»:

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله، أرجو ألا يغضبك كلامُ هذه الممرضة المتعجرفة يا عمّ «خليل» فهذا هو أسلوبُها مع جميع المرضى؛ لذلك يبغضُها كلّ نزلاء العنابر، فهي تعاركُ ذبابَ وجهها إذا لم تجدْ مَنْ تعاركه.

قال «خليل» في تسليم:

- غداً ستُعلمها الأيام أنّ التواضع هو كنزُ الإنسان الأثمن، وللحقيقة.. لم يعد يغضبني شيء من بعد رحيل «دميانة».

قال «إبراهيم» مواسيًا له:

- نِعَمَ الزّوج أنت، أطال الله عمرك، ورزقك الصبر الجميل.

ثم استطرد «إبراهيم»:

- ألقاك على خير يا عم «خليل»، ولكن خارج المشفى، وأنت سليم معافى بإذن الله.. مساء اليوم سوف أعودُ إلى بيتي؛ فقد قام الدكتور «وديع مكرم» بإمضاء تصريح خروجي من المشفى.. سأفتقدك يا رجل، ولكن أعدك بزيارتي إياك قريبًا إن شاء الله.

عقبَ «خليل» بوجهٍ بشوش:

- وأنا لن أنساكَ يا «إبراهيم»، عُدتَ إلى أسرَتِكَ سالمًا.

كان التّزيل الثالث، ويبدو لمن يراه أنّه رجلٌ أربعيني، وقد عِلِمَ كلٌّ من «خليل» وإبراهيم عنه أنّه يُدعى «بركات»، هكذا تدّعه بعض الممرضات من واقع ملفّه المرّضي بالمشفى؛ رجلٌ دائم الصّمت، لا يشارك «خليلاً»، و«إبراهيم» أيّا من أحاديثهما، ولم يُرَ زائرٌ يعودُه بالمشفى منذ أتى قبل أسبوعٍ ماضٍ.

بعد أن غادر «إبراهيم» المشفى مساءً استشعر «خليل» الوحشة، ولم يجد من يؤنس وحدته بالعنبر، وحاول أن يتجاذب مع ذلك الـ «بركات» أطراف الحديث، ولكن «بركات» كان ينظر إلى «خليل» دون أن يُعقب بكلمة، أو على الأقلّ بإيماءة رأس، أو حتّى بابتسامة فاترة! حتّى ملّ «خليل» الحديث إليه دونما ردٍّ منه، ولاذ بالصّمت، ولزم الإنصات إلى مذياعه القديم.. فلم يخبره أحدُ العاملين بالمشفى بأنّ «بركات» رجلٌ أبكم، أصم! هذه هي المعلومات الشخصية المحدودة المدوّنة عنه بسجلّ المشفى، بالإضافة لتقارير حالته الصحية، ولا يعرف أحدٌ عنه شيئاً آخر.

(أيادِ آثمة خفيّة)

بينما توجّهت «منّة» إلى العنبر المجاور، إذ رنّ هاتفها رنيناً متواصلاً.. خفق قلبها له.. لعلّ المتصل هو «مُسعد».. أخرجت هاتفها من جيب معطفها الأبيض؛ ليُطالعها اسم عمّتها «هبة» فوق شاشة الهاتف.. ردّت وهي تتصنّع أنها بخير:

- عمّتي الحبيبة «هبة»، كيف حالكِ؟!

- «منّة» الغالية، اشتقتُ إليك، وإلى أمّي كثيراً.

- نحن أكثر يا عمّتي، كيف حال «كريم» ابن عمّتي الآن؟!

- مازال لا يقوى على الوقوف فوق ساقيه يا «منّة»، فإصابة ساقه بالغة كما رأيتِ بنفسك من قبل، وقد خسر «كريم» الكثير من دمائه بعد إصابة ساقه اليمنى بطلق ناري كما تعلمين.

لم تتمالك «هبة» نفسها وراحت تبكي يائسة من سير ابنها ذي السبعة عشر عاماً على قدميه ثانية.

طمأنتها «منّة»، قائلة:

- عمّتي، اعلمي أنّ كلّ مُصاب أصيب خلال الثورة، وكلّ شهيد دفع حياته ثمناً غالياً من أجل هذا الوطن؛ هو بطلٌ لن ينساه تاريخ هذه البلاد. لهجت «هبة» بحمد الله وشكره، والرضا بقضائه، ثمّ قالت:

- لن أُعطِّلِكَ عن عملِكَ أكثر من ذلك يا حبيتي، فأنا أعلم بحجم مسؤولياتك بالمشفى.. كلَّ ما أرجوه منك يا «مَنَّة» أن تأتيني بأُمِّي، فقد اشتقتُ إليها، ولكِنِّي لا آمنُ مجيئها إليَّ وحدها؛ فهي مريضة كما تعلمين، كما أنَّ عَمَّتِكَ «أميرة» قادمة، وأسرتها من الغربية غداً باكراً لزيارتي للاطمئنان على «كريم»، فهلاً تجمَّعنا معاً بضَع ساعات؟!

ثم استدركتِ العمَّة، وقالت:

- على الأقلِّ لتقضيا معنا اليوم غداً، فإنَّ إصابة ابني تمنعني من الخروج من البيت، وتركه مع إخوته، فلا يستطيع سواي رعايته.
- سأحاول يا عَمَّتِي، وسأحدِّثُ مدير المشفى اليوم بهذا الأمر.

وافق مديرُ المشفى على مُنح «مَنَّة» غداً أجازة على أن تعود إلى عملها بالمشفى بعد غدٍ صباحاً.

قبل أن تغادر المشفى مساءً، التقت بالمرضة «رضوى»، فقالت «مَنَّة»:

- «رضوى»، العنبر رقم ٣ بأمانتكِ حتى أعود للعمل بعد غدٍ صباحاً.

«رضوى» بمرح، وهي تحاول التبسُّم:

- ولماذا توصيني بالعنبر رقم ٣ دون غيره؟!

«مَنَّة» توضَّح:

- أهذا سؤالٌ يا «رضوى»؟!

قالت «رضوى» بضحكة واسعة مُصطنعة:

- أعلم أنه العنبر الذي يجمع ثلاث حالات تولينها اهتماماً ملحوظاً؛ «خليل»، و«إبراهيم»، و«بركات».. وخاصةً عمّ «خليل» المقطوع من شجرة، لا توصيني يا رئيسة، فكّم أوصيتني بنفس ذلك العنبر أمس عندما انتهت مناوبتك صباحاً.

ثم تابعت «رضوى» مشاكستها المُفتعلة:

- لقد حفظتُ تعليماتك عن ظهر قلب، فلا تقلقي.

ثم قالت بمكرٍ:

- سيكون المشفى بأحسن حال، كما لو كنتِ هنا، وأكثر.

تبسّمت «منّة» رغم ما تنوء به نفسها الرقيقة من منغصات، ثم قالت:

- هذا هو عشمي بك يا «رضوى».

همّت «منّة» بالذهاب لمباشرة عملها، فإذا بالمرضة «رضوى» تستوقفها بما نكأ مشاعرها الجريحة التي كم حاولت أن تتكتمها عن أقرب الناس إليها:

- حضرة الرئيسة.. أجل يا «رضوى»، هل هناك شيء؟!

قالت «رضوى» بلهجة استفزازية:

- أليس من الجائز أن يكون مجيء والدي «مُسعد» إلى المشفى، وعويلهما، وبكاؤهما أمام الجميع؛ ما هو سوى «تمثيلية مُفتعلة»؟!

أَحَسَّتْ «مِنَّة» بوخزة أليمة بقلبها، ولكنها تماسكت، وسألت «رضوى» بهدوء أفقدها متعة الانتصار:

— ماذا تقصدين؟! قولي ما تريدين قوله بلا لَفٍّ أو دورانٍ يا «رضوى»، دعكِ من هذا الأسلوب الملتوي، وكوني صريحةً معي، ولو لمرةً واحدة!

امتقع لون «رضوى» وأحسَّت بالتضائل أمام «مِنَّة» التي تفهم نواياها غير السوية، ورغم ذلك لم تواجهها بأنطباعها عنها قبل اليوم، فاستطردت «مِنَّة»:

— لا شأن لي يا «رضوى» بمسعد ووالديه، ولا يعنيني ما إذا كان والداه صادقين، أم لا؛ وعلى كُلِّ أنا لا يمكن أن أُصدِّق أن يفتعل أبٌّ وأمٌّ تمثيلية وهمية حتى يُثبتا للناس أن ابنهما قد فُقد!

غرورُ نفسٍ زائف، دفع «رضوى» إلى أن تقول:

— ولم لا يُفعلن ذلك حتى يقضيا على أملك في الزواج بابنهما؟!

أوشكت دموع «مِنَّة» على الهطول، بينما قالت «رضوى» في خبثٍ وهي تحمَلُ بالخاتم اللامع بينصر «مِنَّة»:

— وإن كان حقاً لا يعنيك أمرُ «مسعد» ووالديه؛ فلماذا قبلت هديته، أقصد ذلك الخاتم الذي أهداك إياه عند ترقيتك!

زلزل ثبات «مِنَّة» أن فاجأتها «رضوى» باطلاعها على سرِّها، الذي حسبَّت أنه ما من أحدٍ على درايةٍ به سواها، ومسعد، ومدام «شادية»

وحسب! فهي لم تلاحظ طرفاً ثالثاً يراقب حديثها و«مسعد» يومَ ترقيتها كرئيسة لمرضات المشفى.. ما كان الطرفُ الثالث الذي يراقبهما من طرفٍ خفي سوى «رضوى»!

أيقنَتْ «منَّة» أنَّ «رضوى» لن تتغيَّر، ولن يُجدي معها مزيدٌ من الحديث، فتركتها، وهي تُسرِع الخطأ صوبَ غرفة الاستراحة، تجهش بالبكاء دون أن يراها أحد.

ورغمَ فهمها لشخصية «رضوى» إلا أنَّها لم يخطر ببالها أنَّ «رضوى» مُغرمة بمسعد، وكم حاولت أن تلفت انتباهه نحوها، ولكنها فشلت في ذلك، لا لشيء سوى أنه لم يكن يرى إلا «منَّة» بهذا المشفى الكبير.

السَّاعة الثَّامنة إلَّا الربع مساءً..

كانت «منَّة» تراجع كُشفَ أدوية ومحاليل لا بدَّ من توزيعها على العنابر صباحاً قبل أن تغادر المشفى، وبما أنَّها ستكون بأجازة غداً، ولم يبقَ سوى ربع ساعة على انتهاء مناوبتها لهذا اليوم بالمشفى فكانت تراجعُ وتتمم على كلِّ شيء يتعلق بعملها، وتوزيع العمل على الممرضات المتوليات «نبطشيات» غد، وبينما هي منهمكة بعملها بمخزن المشفى؛ إذ خيَّلَ لها أنَّها ترى «مسعد» ماثلاً أمامها يروحها أن تسامحه لغيابه المفاجئ، ولما سبَّبه لها من إيلاام نفسي غائر، كان شاحباً، يسعل بشدَّة، ومن بين سُعاله كان يلتقط أنفاسه بصعوبة، ويقول لها:

- ساحيني يا ملاكي الطاهر، لم يكنِ اختفائي بيدي، سيأتي اليوم الذي تدركين به ذلك جيداً!

دائمًا قلبها يتلمس له الأعذار، ويفند له الحجج حتى لا تظل هكذا حزينة، كسيرة الخاطر، وحتى لا تترك لقلبها العنان لأن يبغضه، ويبعده!

كانت تحمد ربها لأنه لا أحد بالمشفى يعلم ما بينها وما بين «مُسعد» من حبّ وولد، سوى «شادية»، تلك الممرضة المنجوعة بفقدان طفلتها، والتي ذهب عقلها تمامًا، ولم تعد إلى المشفى منذ غياب طفلتها قبل ما يزيد عن شهر فائت، إلى أن صدر قرارٌ بفصلها من الخدمة من قبل وزارة الصحة. لم تُفلح مساعي «مِنّة» وبعض زميلاتها لإبقاء «شادية» على قوة العمل بطاقم التمريض بالمشفى، حتى يتم شفاؤها، وعودتها إلى العمل مرةً أخرى، فكم توسّطن لشادية لدى بعض المسؤولين، وكم مضوا بدفتر الحضور باسمها حتى لا تُرَفَّت من عملها، ولكن دون جدوى؛ فالقانون لا يعترف بالمشاعر ولا بالظروف!

استفاقت «مِنّة» من شرودها على إثر نداء أحد الممرضين لها:

- حاضرة الرئيسة، هناك امرأةٌ تحدثُ جلبةً بقسم الاستقبال.. تطلبك بالاسم!

«مِنّة» تنظر إلى ساعة يدها بقلقٍ، ثم تقول:

- مَنْ هي هذه المرأة التي جاءت تسأل عني بهذه الساعة يا «مرزوق»؟ وماذا تريد؟ هل هي مريضة، أم تصطحب مريضًا؟! فقال «مرزوق»:

- لا، لقد أتت وحدها، ليس معها أحد، ولا يبدو عليها أثر مرضٍ، أو

ألم.

ثم رطنتُ بصوتٍ خافت، تهمس إلى نفسها:

- قسم الاستقبال حيث الفحص السريري يُغلق عند الثانية ظهرًا، وجميع زائري المشفى يعرفون ذلك جيدًا، فكيف لأحدهم أن يأتي بالثامنة مساءً؟!

أغلقتُ «مِنَّة» الدفترَ الذي بين يديها، ثم خرجتُ يسبقها «مرزوق» إلى قسم الاستقبال.. فأذُ بها ترى أمامها سيِّدة بنهاية العقد الرابع تقريبًا، صحيحة، فارعة القامة، سمراء البشرة، ضيِّقة العينين، كثيفة الحاجبين، قوية البنية، بدينة الجسم.. لم تلتقِ بهذه السيدة قبل اليوم، تُرى لماذا طلبتها هي بالاسم من دون كافة العاملين بذلك المشفى الكبير؟! لم تكن الممرضة الشابة تعرفها، ولكنَّ الزائرة الغريبة كانت تعرفها جيدًا.. ما أن وقعت عينا المرأة على «مِنَّة» حتى هرولت نحوها، ترجوها:

- هلا أتيت معي دقيقة من فضلك؟!

- إلى أين؟! (سألتها «مِنَّة» في حزم..)

قالت المرأة بتوسل:

- بالخارج؛ حيث باحة المشفى حيث الهواء الطلق..

سارتُ معها «مِنَّة» إلى حيث هناك، ثم قالت بجديَّة، وهي تطالع ساعة يدها:

- هاآي ما عندك.

قالت المرأة بصوتٍ خافتٍ كفحيح الأفاعي، فيما يحمل وجهها الكثير من بواذر الشر:

- مرّري لنا بعض الجُثث، ولك ما تريدين!

حملقت «مِنَّة» بها، وهدرت في فزع:

- ماذا قُلْتِ! عن أيِّ جُثِّ تتحدثين؟!

أمسكتِ المرأة بساعد «مِنَّة»، وقالت بلهجة أمرّة:

- أخفضي صوتك، ودعيني أشرحُ لك ما نريد.

بحدّة، أفلتت «مِنَّة» ذراعها من بين يدِ المرأة، وهي تسأل في هلعٍ:

- ما تريدون!! إذا، أنتِ لستِ وحدك!

اشرأبَّ عنق المرأة المتشحة بملابسها السوداء، ووشاحها الأسود كذلك،

وقالت بكبرياء:

- نعم، لستُ وحدي. وإذا لم تقبلي بالتعامل معنا؛ فلن تُفْلتي من بين

أيدينا، فكّري في عرضنا عليكِ أكرمُ لك!

وقبل أن تتفوّه رئيسة الممرضات بكلمة، استطردت المرأة:

- فقط مرّري لنا بعض جُثِّ الموتى، وستصبحين ثرية في غضون

ساعات.

سألت «مِنَّة»، تريد أن تستدرّ بعض المعلومات عن نشاط هذه السيدة

المشبوّه:

- وماذا تفعلون بجثِّ الموتى؟!

قالت المرأة في صلفٍ:

- هذا ليس من شأنك، فقط نغذي ما نطلب، حتى تأمني نِقمتنا.

أشاحت «منّة» بوجهها بعيداً عنها، وأولتها ظهرها، وهي تقول في حزم:

- أحذرك من المجيء إلى هنا مرةً ثانية.

ثم اختفت داخل المشفى، ولكن سرعان ما خرجت عائدة إلى بيتها، وقد ذهبت المرأة المحتالة إلى حيث لا تعلم.

سألت «منّة» نفسها، والارتعاب يجري منها مجرى الدّم بالجسد أثناء عودتها إلى داخل المشفى ثانية:

«لماذا لم أستغيث حتى يتجمهر الناس حولنا، ويمسكون بهذه المرأة المجهولة؟!..» «لماذا لم أستدع ممرّضي المشفى، كي يلقوا القبض عليها، ويسلمونها إلى أقرب كمين للجيش؟!..» «لماذا ساورني الخوف، وتركتها حرّةً طليقة؟!»

رطنّت «منّة» في نفسها تحيب على ما جال بخاطرها من أسئلة:

- «أجل، لقد خفتها، وتخوّفت من وراءها، فمن المستحيل أن تعمل هذه المرأة بمفردها، وإلاّ فمن أين لها تلك الجرأة التي دفعتها للقائي الآن؟!»

لقد كان بمقدورها ملاحقتي بساعة متأخرة من الليل، ومن المؤكّد أنه قد كان هناك من يراقب حديثنا معاً، ذلك المراقب الذي كان حتماً سيتدخل لو حاول أحدّ المساسّ بهذه المرأة.

وأمثال هؤلاء، لم يكن لهم أن يتورعوا عن إطلاق الرصاص صوب المشفى، وقد يُصاب بعض المرضى، أو بعض العاملين بالمشفى!!»..

ثم استدركت تقول هامة: آملُ أن تسفر الأيام المُقبلة عن حقيقة هذه السيدة، وعمَّن يعملون معها.

نزعْتُ «منّة» معطفها الأبيض، وارتدت معطفها الثقيل، والتقطت حقيبتها، ثم مضتُ عائدةً إلى بيتها، ولكن الخطوات المعتادة لم تتبعها الليلة حيث لم تكن الساعة تبلغ التاسعة مساءً، وصاحب هذه الخطوات من طيور الظلام التي لا تنشط إلا بعد منتصف الليل..

عندما دلفتُ إلى شقتها، وجدتُ جدّتها «بسيمة» تحزم بعض ملابسها، وبعض الأغذية الضئيلة كزيارة متواضعة لابنتها «هبة»!



(دعني أعرفك بنفسك)

ظلّ «لؤي» حبيسَ غرفته يُلقي بظهره إلى الحائط، ويقعد فوق أرضية الغرفة أمام الرأس الأشعث الضخم، يهزي حيناً، ويُحِيلُ إليه أن رأس الأسد يحاوره، وقد دار بينهما هذا الحوار الذي توهمه «لؤي» جرّاء الوحدة القاتلة، والجوع الفتاك الذي يلاقيهما آنئذٍ..

لقد سمع «لؤي» الرأس الكبير، يقهقه، فيما يرميه بالنظرات الشامتة، فأرعدَ وأزبدَ «لؤي» في غضب:

- ما لك أيها الرأس اللعين تحدّق بي هكذا؟! لقد سلب مني كلّ ما أملك، ومازلت أنت الرّابض وحدك هنا؟! لماذا لم يأخذوك مع كلّ متعلقاتي المفقودة؟!

أخذت مقلتا الرأس الأشعث تلتمع، وبدا مهتاجاً، ثم هدر بصوتٍ مُفزع:

- لن تستطيع التّخلص مني، فقد قبلت باقتحامي عالمك قبل سنوات، وستقتحم أنت عالمي قريباً بإرادتك!

- ولكنك قد فرضت عليّ فرضاً، ولم أقبل بك بإرادتي كما تظن. (قالها «لؤي»، والهلع يملؤه..)

زأر الرأس مُجدداً، ثم قال:

- إذا حاول أن تتخلّص مني لو استطعت، أنا لست أمامك وحسب، بل فتش عني داخلَكَ جيّداً، وستجدني أسكنك!

استنكر «لؤي» قولَ الرأس المُفزع، وقال:

— أنا لا أشبهك، وليس بي شيءٌ منك!

قهقهَ الرأسُ ساخرًا، وهو يزأر في جنون:

— بل إنَّ لك وجهي، وفيك قوَّتِي الباطشة، ورعونتي الطائشة، أنتِ مثلي

تمامًا؛ تملؤك بذور الشياطين.

سأل «لؤي» في حيرة:

— كيف لي أن أصبح مثلك وأنا الذي لم يعرف بحياته سوى الترف،

واللهو، ونعومة الأيدي!

انفجرَ رأس الليث ضاحكًا، ثم أجابه:

— ستجدُ كلَّ الإجابات عن أسئلتك لدى.....

أسرعَ «لؤي» بسؤاله:

— لدى مَنْ؟!

سكتَ الرأسُ هنيهةً، ثم قال في بطءٍ ملحوظ:

— لدى «آسيا الميهي»، فهي وحدها مَنْ لديها ما تريد أن تعرفه!

استمرَّ «لؤي» بإلقاء الأسئلة على ذلك الرأس، حتى طلعتْ شمس

اليوم الجديد.. وقد توقّف الرأس عن الكلام، بينما ظلَّ «لؤي» يُحدّث نفسه

وحسب!

كيف مرّت الساعات عليه، هكذا كالدهر!! كيف صار فجأة لا يسمع صوتاً داخل تلك الثيلاً على اتساعها؟!.. تساءل كثيراً من دون اهتداء لإجابة.. وقد بدأ الجوع يُباغته من جديد، فهل يتخلى عن كبريائه، ويترك باب حجرة «عويس» البستاني بهذه الساعة المبكرة كي يطلب منه بعض الطعام، وقد وافت الساعة السابعة صباحاً؟!

قرّر ألا يفعل، وقف.. ثم سار ببطء نحو نافذة غرفته المطلّة على الحديقة الغنّاء، تأمل الطير السابح بجو السماء، وتلك العصافير الرمادية، وبعض اليمامات، وهي تعبت بمناقيرها بين الحشائش، تلتقط ما يقيم أودها، فراح يكيل إلى نفسه عبارات اللوم اللادع:

- كل مخلوق بالكون يسعى بجهدٍ حتى يأكل ويعيش، يصيرُ حراً، ولكنك لم تفعل حتى الآن أيها المدلل التّعس، لقد صرت ظلاً لأملك التي تخلّت عنك، كمن يسير بالظل حتى يختفي ظلّ جسده.. ثم واجه ذاته بسؤال وقف كالغصّة بحلقه: فهل أزمعت أملك التخليّ عنك حقاً؟!!

آنئذٍ لمح ثمة سيارة تقترب من الثيلاً، و«عويس» يخرج من حجراته بالحديقة، ويهرول صوب البوابة ليفتحها، وهو يرحّب في حفاوة قائلاً:

- أهلاً وسهلاً يا «ست هانم».

لقد وصلت «آسيا» الغامضة إلى ثيلتها، وسائقها يمدّ لها يديه يساعدها على الهبوط من السيارة.

كان «لؤي» يشاهد ما يجري وهو يظنّ أنّه يلحُم، ولكنّ «آسيا» رغم وهنّها قد رفعت رأسها تنظر نحو نافذة غرفته، فرأته، ولكنها لم تبتسم له، أو حتى تناديه، وواصلت خطاها على مهل إلى داخل القفلا!

هبط الشابّ الموشك على الجنون الدّرج من الطابق الثاني - حيث غرفته - إلى الطابق الأرضي، فأذّبها جالسة تقول لخدمها الأمين الذي كان باستقبالها عند مدخل القفلا، كما لو كان لديه علمٌ مُسبقٌ بساعة وصولها:

- «عرفان»، أعدّ الإفطار من فضلك.

حيّاها «عرفان» في طاعة تامّة، وعلى وجهه قد ارتسمت ابتسامة واسعة:

- حالاً، سيدي.

نظر نحوها «لؤي» كشبح خرج من قبرٍ سحيق للتوّ، وهو لا يكاد يصدّق ما يسمع!!

إذا، «عرفان» كان يجب عنه الطّعام عامداً، وبالتأكيد.. هو نفسه المسئول كذلك عن اختفاء جميع متعلّقاته، وهو أيضاً.. الذي قام بقطع المياه عن القفلا طيلة سفر سيّده «آسيا»!!.. الآن قد تأكّدت للشابّ جميع شكوكه.

- أرى مئات الأسئلة تتصارع بمُقلتيك الغائرتين، اجلس أولاً لكي تتناول الطّعام، ثمّ سنتحدّث، وسأجيبك عن كلّ أسئلتك.

هكذا باغتت «آسيا الميهي» «لؤي» بما قرأته بعينه.

فُغرَ فاهُ، ولم يُعقّب؛ فهذه المرأة ليست الآن بناظريه مجرّد امرأة، بل هي نفسها.. علامة استفهام تُرعبه، تحيرّه، تبعثره أشتاتاً! جلس «لؤي» في صمّ مُطبق، وعيناه الذابلتان لا تحيدان عن وجهها الشاحب المكدود.

كانت تتنفس في بطءٍ، تضرمر وجعاً قد تركَ صبغته حول عينيها من دون أن تقصد، تأوّهت فهُرِعَ نحوها راکعاً أمام ساقِها، يقول مُشفقاً:

— ماذا بكِ يا أمِّي؟! —

كلمة «أمِّي»، اليوم، كانت بمثابة طعنةٍ غائرة، اخترقت فؤادها قبل أذنيها، فلماذا لم تطرب لها ته الكلمة كما كانت تطرب لها قبل ذلك؟!؟

تقدّم نحوهما «عرفان»، وهو يدفع أمامه العربة الأنيقة حاملة الطعام، وقد اكتظّ طابقاها بما لذّ وطاب! حلق «لؤي» بعرفان، حملكة كراهية، وعتاب لاذع..

لاحظ «عرفان» نظراتِ الشاب الحادّة ولم يُعقب، وإنّما رماه «عرفان» بنظرةٍ لامبالاة، ثم ألقى بلحاظٍ عينه الواسعة إلى سيده «آسيا»؛ كأنّما كان يريد أن يستعين بها حتى تبرّر لابنها أسباب ما أمرت به من سلب الفتى كلّ ما يملك دون سابق إنذار!

يريد «عرفان» تبرئةً ساحته من تُهمة المكرِ بالشّاب الذي تتنامى ظنونه السيئة به، ولكنّه ليس بمقدوره أن يفعل دون أمرٍ من سيده، ومخدومته «آسيا»..

أشارت له سيده بعينها إشارةً تعني «انصرف».. أدركَ عندها أنّها بصدد حديث شائك مع ابنها الآن.. فذهب «عرفان» بهدوءٍ تامّ. — أمازلتَ تدعوني بكلمة «أمِّي» رغم ما حدث لك؟! —

سألت «آسيا» ولدها متعجبة..

— ألسن أمي يا أمي؟ فيم أناديك إذا؟!

سألها «لؤي» متعجباً بعينين تملؤهما دموع العتاب!

قالت بلهجة جادة:

— على حسب ما ستعرف اليوم سوف تقرّر هل ستدعوني بكلمة «أمي»

أم ب — «مدام آسيا»!

تسارعت ضربات قلبه، فيما قرضت شفيتها حتى لا تطلق آهة أخرى، ثم

حاولت أن تتماسك، حين قالت:

— لا بُدَّ أنك جائع، فهيا لتناول الطعام.

ثم قالت في غموض:

— فليس من المعقول أن تُفطر بالحديقة من طعام «عويس» البستاني مرّة

أخرى.

تعجّب أيما تعجّب، ثم حانت منه التفاتة ناحية الرّدهة المفضية إلى المطبخ،

فقد يتقن من أن «عرفان» كان عينها عليه حال غيابها باليومين الفائتين، فمن

سوى «عرفان» يكون قد رآه عندما أفطر بالحديقة أمس؟ ومن عساه أن

يكون قد أخبرها بذلك سوى خادمها المخلص؟!

تناول الطعام متوجّساً خيفة ممّا تخبئه عنه «أمّه»، بينما تحدق هي به رغم

بعض الآلام التي تنخر جسدها في قوّة.. لم تمدّ «آسيا» يدها نحو الطعام؛ فهي

لم تطلب الطعام إلّا من أجله هو فقط!

- هيا بنا.

قالتها «آسيا» لولدها بلهجة أمرة، بعد أن انتهى من تناول فطوره.

- هكذا؟!

سألها «لؤي» مستنكراً خروجه معها بتلك الملابس الرديئة!

- نعم، هكذا! (أكدت له..)

قاد سيّارتها، فيما جلست هي إلى جواره، وقد أغلق الزجاج «الفاميه»
الغائم تماماً، حتى لا يراه أحد بهذا المظهر المزري، ثم أدار زرّ المكيف، وهو
يتأفف قائلاً:

- تكلّمي، قولي لي شيئاً واحداً يبرّر لي ما فعلت بي!

ثم ارتفع صوته، وهو يسأل:

- لماذا؟ لماذا تدمّريني هكذا؟ ولماذا وضعت لي المنوم بالحليب حتى أُغطّ
في سُبَاتٍ تامّة طيلة يومين كاملين؟ ولماذا غادرت دون علمي؟!

ولماذا أمرت «عرفان» بأن يمنع عني الطّعام والشراب؟! ولماذا أوعزت
إليه بقطع المياه، وإفراغ حوض السّباحة؟! ولماذا سلبتما كلّ شيء كان
بحوزتي؟! ثم أين هي سيارتي؟!

ضحكت في سُخرية، وهي تقول:

- المال مالي، وكلّ ما تحسبه لك هو بالحقيقة ملكي أنا، فإنّ ما يملكه
الإنسان هو ما اكتسبه بعرق جبينه وجهده.. ومن حكم بهاله فما ظلم.. أليس

كذلك؟!

فَقُلْ لِي مَتَى عَمِلْتَ وَاجْتَهَدْتَ حَتَّى تَظَنَّ أَنَّكَ تَمْلِكُ شَيْئًا؟!

ثُمَّ صَفَعْتَهُ بِسُؤَالِهَا الْمُنْطَقِي رَغْمَ قِسَاوَتِهِ: هَلْ يُمَكِّنُكَ أَنْ تُخْبِرَنِي مَنْ أَنْتَ بِدُونِي؟ لَقَدْ سَلَبْتُكَ كُلَّ شَيْءٍ فَجَاءَ حَتَّى تَرَى حَقِيقَتَكَ بِوَضُوحٍ!

بِنَفْسٍ تَكَادُ تَتَصَدَّعُ حَزَنًا قَالَ «لُؤْي» بِصَوْتٍ مَتَهَدِّجٍ:

- مِنْذُ مَتَى وَالْأُمّهَاتُ تُلْقِينَ بِالْأَبْنَاءِ إِلَى حَيْثُ الْوَحْدَةِ وَالْجُوعِ، وَالضَّيَاعِ؟!
ثُمَّ مِنْذُ مَتَى وَالْأُمُّ تُعَيِّرُ وَلَدَهَا بِمَا مَنَحَتْهُ مِنْ حَنَوٍ، أَوْ مَالٍ؟! خَاصَّةً لَوْ كَانَتْ سَيِّدَةً ثَرِيَّةً مِثْلَكَ؟!

قَاطَعْتَهُ قَبْلَ أَنْ يَتَفَوَّهَ بِمَزِيدٍ مِنَ الْأَسْئَلَةِ:

- دَعْنِي أَوْ لَا أَعْرِفَكَ عَنْ نَفْسِكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، ثُمَّ سَلَّ مَا تَشَاءُ!
كَادَ يُجَيِّنُ؛ فَهِيَ تَوَاصَلَ صَعَقَهُ بِكَلِمَاتِهَا الْغَامِضَةِ دُونَ أَنْ تَمْنَحَهُ رِفَاهِيَّةَ
الْإِسْتِيْعَابِ!!

أَشَارَتْ لَهُ أَنْ يَصْمِتَ تَمَامًا، ثُمَّ رَاحَتْ تُقْصُّ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ..



(إِنَّكَ الْآنَ تُشَبِّهه كَثِيرًا)

اصطحبتُ «مَنَّة» جدَّتها لزيارة عَمَّتِها «هبة» وأسرتها، وقضيا بضع ساعات بين أسرتي «هبة» و«أميرة».. وبعد أن اطمأنتُ «مَنَّة» على «كريم» ابن عَمَّتِها «هبة»، وعَقَمْتُ جُرحه، وبدَلْتُ ضَمَّاداته بأخرى جافة، نظيفة، تَبَسَّمتُ له رغماً عنها قائلة:

- سِيرْ أَجْرَحَكَ قَرِيبًا يَا بطل، فلا تقلق.

قال «كريم» بانكسار ويأس:

- هل تعتقدين أَنِّي سَأَسِيرُ كما كنت على قدمي ثانية يا «أُبَلَّة مَنَّة»؟!

كانت تعرف - بحُكم خبرتها التمريضية الواسعة - بأنه لن يسيرَ على هذه الساق مرةً أخرى!! وكانت متأكدة من أن الأطباء سوف يقررون بتر ساقه المُصابة قريباً؛ لأنَّ ساق الفتى قد سَرَتْ بها «غَرغرينة»، ولا بُدَّ من بتر ساقه إبقاءً على حياته!!

فقالَتْ في نفسها: الصَّبر يا «كريم»، فقد دفعت ساقك ضريبةَ حُبِّ لهذا البلد، وهذا وسامٌ شرف ثمين.

أَحسَّتْ بأنَّها لن تقوى على مغالبة دموعها، فنهضتُ بسرعة، تقول:

- «كريم»، إذا احتجت شيئاً اتَّصل بي بأيِّ وقتٍ، اتفقنا؟!

- إلى أين؟!

سألها في حيرة، فقد كان يحسب أنَّها ستقضي يومها معه، والأسرة كلها..

تصنَّعتُ التَّبَسُّمَ مرَّةً أخرى، وهي تقول:

- تذكَّرتُ عملاً لم أنجزه بعدُ بالمشفى، أراك قريباً.

أكتوبر ٢٠٠٤م، ذات ظهيرة..

— توقّف هنا.

قالتها «آسيا» لولدها «لؤي» بلهجة أميرة.. مسح «لؤي» الشارع بنظرة واسعة، من حول السيّارة من خلف الزجاج الغائم، ثم سألها:

— ما هذا المكان؟ ولماذا توقفنا هنا؟!

في وهنٍ، قالت:

— انظر جيّدًا عن يسارك.

بتعجّب قال:

— لا أرى شيئًا يثير الانتباه، إنّه رصيف متهالك!!

— ألا ترى ذلك الكُشْك الخشبيّ هناك؟! (سألته مستنكرة)

زفر، وقد نفذ صبره، ثم قال ساخرًا:

— وماذا به؟! هل تفكرين في شرائه، وضمّه إلى ممتلكاتك؟!!

في حدّة زجرته:

— لا تتهكّم، فمازلتُ أطيلُ بالي عليك، اقرأ اللافّة أعلاه.

رطنَ في ضيق وسخريةٍ لاذعة:

— لعلّها حصّة قراءة، وأنا لا أعرف، هل تنتوين إعادتي إلى الصفّ الأوّل

الابتدائي؟!!

ثم تأفّف، وفتح الزّجاج قليلاً، وقرأ الالافّة:

– «بقالة الشَّريف»..

ثم لاحظ ذلك الشمع الأحمر المتجمّد فوق قفله الحديدي الصديء!!

- لقد آن أوان إنصاتك التام إلى أيها «الشريف»..

قالَتْهَا، وَهِيَ تَعْتَدِلُ فِي جَلْسَتِهَا.

– الشَّشَشَشَشَشَرَرَرَرِيِيِيَف؟! (هَمْسَ مَضْطَرَبًا)

فَقَالَتْ «آسِيَا»، بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ:

- نعم، فَإِنَّ اسمك الحقيقي هو «شريف رشاد القَبَّاني».

أغلقَ زجاج السيَّارة في سُرعة، وهو يصرخ في جنون:

- و«لؤي نُعمان الراجح»، من يكون؟!

- اهدأ، وسأُخبرك بكلّ شيء.

ثمَّ التَّقَطُّتْ أَنْفَاسَهَا ببطءٍ، وراحتْ تقول:

- إِنَّ «نُعمانَ الرَّاجِح» كانَ زَمِيلاً لي بِالجامِعة، قَدِمَ مِن «الكويت» غَداءَ

السبعينيات مع عددٍ من أصدقائه للدراسة بكلية الألسن، كان يحترمني كثيراً، ويحكي لي عن نفسه كل شيء، رأي أخته التي لم تلدها أمه، فاعترف لي بحبه الكبير لابنة عمه، وخطيبته «رهف»، وأخبرني بأنه سيتزوجها فور عودته إلى بلاده، بعد إتمامه الدراسة بكلية الألسن بالقاهرة. أما أنا، فما دقَّ

قلبي لشاب سوى «ماجد»، بينما كنت أرى «ماجدًا» وهو يتقرب من «نهي» زميلتنا بالفرقة نفسها، ضاربًا بمشاعري عرض الحائط.. وكان «نعمان» على دراية بأمرى أنا و«ماجد»، فقد كنت أثق به كما يثق بي، فأحس بلوعتي، ووجعي.. أمّا أنا فقد فكرت بالانتقام من «ماجد»، ولكنني لم أكن أعرف كيف أنتقم منه، وأثار لقلبي الذي حطمه!!

بعد تخرّجنا في الجامعة بخمس سنوات تقريبًا، عاد «نعمان» إلى مصر في زيارة لبعض أصدقائه، وقد تذكرني، وسأل عني بعنواني الذي أعطيته إياه قبل انتهاء سنوات الجامعة؛ حيث شقتي - التي عشتُ بها مع أمي بعد وفاة أبي - بمنقطة «أثر النبي» بالقاهرة، فلم أكن أحب مهنة تصنيع وبيع أقفاص العصافير، ولكنني - بالوقت نفسه - لم أكن أخلُ من مستوى أهلي المادي المضمحل، وكان «نعمان»، آنذاك قد تزوّج فعليًا من «رهف» ابنة عمّه، وأنجب ثلاثة أولاد!

ووجدتني أرجوه أن يتزوّجني على الورق فقط؛ حتى أجد - أمام الجيران - سببًا مقنعًا لمغادرة المنطقة، التي لم أعد أطيق بقائي بها عقب رحيل أمي بعد تخرّجي بأقل من عام.. وافق «نعمان» على مَضض، شريطة ألا تعلم زوجته بهذا الزواج مدى الحياة.

وشريطة ألا يكون بيننا سوى مكالمات هاتفية كلّ عدّة أشهر من باب اطمئنان أخ على أخته وحسب، فكم قال لي مرارًا:

- يا «مُهجة»، أنا أحب «رهف» وحدها من بين نساء العالمين، ولن أفكر يومًا في خيانتها، أو الزواج بغيرها.

فهى حُبِّ عمري، ولم.. ولن أتمنى سواها، ثم ترك لي مبلغاً كبيراً من المال؛ حتى يتسنى لي إقامة مشروع أقتات منه، وأعيش عيشة كريمة دون الحاجة لسؤال الناس. شكرت له معروفه معي، وقمتُ ببيع الشقة والحنوت، ومضيتُ إلى هدي الأسمى.

- وما هو ذلك الهدف الأسمى؟! (سألها الشاب مُقاطِعاً)

- الانتقام!

أجابته في صوتٍ مفعم بالشرِّ والحقْد، وسرعان ما ارتعدت فرائص الشاب، وهي تقول:

- كان عليّ أن أقتل «ماجد» بيدي!!

- أو قتلته حقاً؟! (سألها «لؤي» بصوتٍ مرتعش..)

ضحكتُ في قهقهةٍ قذفت بقلبه الرُّعب رغم آلامها التي كانت تضربُ جسدها بعنفٍ:

- بل ذبحته!

حملتُ فيها بعينين جاحظتين، فقالت مؤكدة:

- أجل، لقد ذبحته بيدي.

وقبل أن يفيق «لؤي» من صدمته ممّا سمعه للتو.. إذ ألقت إليه بما جعل رأسه يدور، ويدور؛ حين قالت وهي تحملق به:

- كم هي لائقةٌ عليك؛ ملابس المرحوم «ماجد» يا «شريف»!

لقد أدرك الشاب الآن أنه يرتدي ملابس «ماجد»، حبيبها السابق، الذي
ذبحته بيدها!!

دنت «آسيا» برأسها منه قليلاً، وهمست بصوتٍ خافتٍ - جمد الدماء في
عروقه، وجعله يترقب نهايته - قائلة:

- إنك الآن تُشبهه كثيراً!



نَصْلٌ لَامَعَ بِأَيْدٍ نَاعِمَةٍ

فَيْلَا اللَّوَاء «سمير المجري»، ٢٠ فبراير ٢٠١١ م

مكثتُ «سلمى» الخادمة المراهقة لدى أسرة اللّواء «سمير المجري» تبذل قصارى جهدها، ولا تدّخر جهداً للنهوض بكلّ ما تطلب منها سيدتها «سالي»، وزوجها سمير المجري.. حتى حازت مؤخراً على ثقة الزوجين، خاصّةً وقد اختبرتُ «سالي» أمانة الفتاة عدّة مراتٍ، حين كانت تتعمّد وضع المال، والحليّ الثمينة أمامها، ثمّ تتصنّع الشّاعل بمشاهدة التلفاز أو الجلوس بعضَ الوقت بحديقة الفيلا، فتعود «سالي» إلى حيثُ تركتُ مالها وحليّها، فتجدهما كما هما، لم تمسّسهما يدٌ.

فطمئنّ للفتاة، وتزداد ثقةً بها، ويتنامى لديها شعورٌ مستحبّ بأنها قد عثرتُ على كنزٍ ثمين، حين وجدتُ هذه الخادمة الأمانة الدّؤوب!

وبحاسّة رجل المباحث الخبير كم تخوّف «المجري» من أن تكون تلك الفتاة مدسوسةً عليه من أحد أعدائه، ولكنّ «سلمى» قد خالفتُ كافّة توقّعاته وظّنونه بأمانتها وإخلاصها حتّى الآن!

عادَ «المجري» من عمله بمديرية أمن الجيزة بتمام السّاعة الثالثة عصرًا، يحمل حقيبةً جلدية سوداء، لم ترها «سالي» قبل ذلك اليوم.. دلف إلى مكتبه ووضعَ الحقيبة فوق المكتب، ثمّ خرج لتناول غدائه الشّهي الذي أعدته هذه الفتاة الصغيرة الماهرة بصحبة زوجته، والصّمتُ ثالثهما، وبينما يصعد الدّرج

حتى ينال قسطاً من النوم، إذ تذكر الحقيبة؛ فهبط متوجّهاً صوب حجرة المكتب تارةً أخرى، وإذ بزوجته تعترض طريقه، قائلة:

— لقد نفذ رصيد «الفيزا كارد» خاصتي أول أمس، وأريد رصيماً جديداً، فأعطني على الأقل ستة آلاف جنيه لأنني اتفقت مع صديقة لي على أن نتسوق اليوم معاً!

ردّ «المجري» في أنفةٍ، وتنصّل:

— ليس لديّ هذا المبلغ، ثم إن معظم المحلات الكبرى قد أغلقت خشية التعرض للنهب!

ثارت، وهي تظهر له تلك الحقيبة السوداء من خلف ظهرها، وهي تقول:

— هذه الحقيبة تثبت لي كذبك يا سيادة اللواء؛ فبداخلها ما لا يقلّ عن مائة ألف دولار أمريكي! أمّا فيما يتعلّق بالمحلات الكبرى، وهل أغلقت أم لا؛ فلا شأن لك بذلك، أنا أستطيع أن أعثر على ما أريد، فأنا خبيرة بـ «الشوينينج» كما تعلم، ولن تخفى عني بهذا المضمار خافية، أعطني أنت المال فقط!

امتقع وجه «المجري»، وتلعثم قائلاً:

— إن هذا المبلغ ليس لي، وإنما هو لصديقٍ قد تركه أمانةً عندي!
كانت تكشف كذبه بمجرد النظر في عينيه، فهو مازال ذلك الجرذ المذعور أمامها، لأنّها تفهمه جيّداً، وتعرّيه من ثوب الكذب الذي يتدثر به دائماً.

حدجته «سالي» بنظرة حادة أربكته، ثم سألت:

- رشوة كالعادة، أليس كذلك؟!

حاول التملص من حصارها عينيّه، وراح يهدر:

- رشوة!! أنا أتقاضى رشوة؟!

قهقهت بشدة، وهي تقول:

- إذا لم تلهث أنت يا قاتل شباب الثورة وراء الرشوات، فمن يفعل يا «مجري»؟!

لقد استقرت واحدة من رصاصات المجري بساق «كريم»، وقضت على أمله في السير بقية حياته، ومئات الرصاصات التي انطلقت بيده الملوثة لتحصد أرواح أشرف شباب مصر بثورة الخامس والعشرين من يناير.. حاول اختطاف حقبة النقود من بين يديها، ولكنها تمسكت بها بكل قوتها، ثم قالت بعدما أفلتت الحقيقة من بين يديه:

- أخبرني أولاً، هذه الرشوة مقابل ماذا؟! أعني.. ماذا طلب منك صاحب هذا المبلغ الكبير مقابل حصولك عليه؟!

قال بتوتر ملحوظ، وقد شحب وجهه:

- هذا شأني، ولا علاقة لك بعملتي، فلست وصية عليّ، أنا أدرك ما أفعل جيداً.

مطَّت «سالي» شفيتها في مكرٍ، وقالت:

- كنتُ واثقة من أنَّك لن تصارحني بالأمر، وكذلك كنتُ متأكدة من أنَّك لن تعطيني المال الذي طلبتُ؛ لذلك.. فقد أخذتُ خمسة آلاف دولارٍ من داخل تلك الحقبة دون انتظارٍ إذنك!

ثمَّ قالت بسخريةٍ:

- أرايتَ كم أنا قنوعة يا سيادة اللواء!!

لم يكنْ لديه الشجاعة الكافية ليواجهها، فتركها تذهب بما أخذت من المال، ولكنَّها استدارتْ لترميه بكلماتٍ كقطع الجحيم:

- أها، لقد نسيت أن أخبرك بأمرٍ هام..

انتبه إليها، وحبُّ الاستطلاع يملكه، فتابعت:

- عندما تموت قريباً إن شاء الله سوف تؤول كافة أموالك التي تكتظُّ بها خزينتُ مكتبك الضخمة إليَّ.. وسألعتك مع كلِّ قرش أنفقهُ منها!

ثمَّ غادرتْ تاركةً إيَّاه عارياً من سلطانه المزعوم.

لم يدُر.. هل يثور لكرامته فيقتلها حالماً ترجع، أم يقتل نفسه لامتهانه رجولته بهذه الصّورة البغيضة.

كاد يموت غيظاً عندما تذكّر وجودَ خادمة جديدةٍ ببيته، ولا بُدَّ من أنها قد سمعت - بلا شك - إهانته المريعة من زوجته، فكيف سيظهر أمام الخادمة

دلفَ إلى مكتبهِ لِيُودِعَ المالَ بالخزينة الكبيرة، تلك التي يعرف وحده رقمها السري.. وقد لعبت فكرته الشيطانية برأسه، فلم يُغلق الخزينة، على أن يعود إليها ليستمتع بعدَّ وجرد محتواها بعد أن يفرغ من أمر الخادمة!

- كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّكَ سَتَكْشِفُ لِي عَنْ وَجْهِكَ الشَّيْطَانِي الْفَجَّيَوْمًا، كُنْتُ أَعْلَمُ بِأَنَّكَ نَذَلْ، حَقِيرٌ، قَذَرٌ!!

فإنّ الذي يتلاعب بامرأةٍ قد وثقت به، ويطلقها، وهي تحمل ابنته بأحشائها بلا ذنب أو جريرة، ثمّ يتنصّل منها، وينكرُ نسبَ طفلته إليه، ويركع ذليلاً أمام قديمي زوجته التي تهينه على مدار السّاعة؛ هو «سافلٌ، وضيعٌ» بجدااااااااارة!

تدلي لسانه خارج فيه، وهو يقول لاهثاً بصعوبة:

- أنت، أنت.....

قاطعته، وهي تهدر في غضب:

- للأسف، أنا ابتك.. أنا «علا».. «علا سمير شعيل المجري»، تلك
الطفلة التي تنكرت لها ولأمها المسكينة قبل ثمانية عشر عاماً، أنا البائسة
الوحيدة بهذا الكون؛ لأنك للأسف الشديد أبي، أنا الفتاة ابنة السابعة عشر
ربيعاً، التي أردت اغتصابها، وإذلالها طيلة عمرها، أنا التي جئت إلى الدنيا
ربما لا شيء سوى القضاء عليك، والثأر للأبرياء الذين صعدت فوق
كواهلهم، وعلى دمائهم!

لقد جئتك من أجل تخليص الناس من شرك أيها الظالم اللعين.

تركت «منة» ابن عمّتها بحجرته، ثم تعلّلت لعمّتها بأن لديها عملاً
بالمشفى لا بدّ من إنجازه، فطلبت إليها عمّتها الكبرى «هبة» أن تترك
«جدّتها» كي تبيتُ ببيتها - أي بيت «هبة» - الليلة. فقالت «منة»:

- يا عمّتي، أنا ليس لي سواها، ولا أستطيع الاستغناء عنها ليلة واحدة!

قالت «هبة» في رجاء:

- أريد أن أشبع من أمي قليلاً يا «منة»، وسأتركها لك غداً، اتفقنا؟!

نظرت «منة» إلى جدتها «بسمة» التي لاح الرضا بالبقاء لدى ابنتها هذه الليلة في وجهها، ثم قالت:

- ماذا قلت يا حبيتي؟! هل ستبقين، أم أعيدكِ إلى شقتنا؟!

طأطأت «بسمة» رأسها على استحياء من الإجابة، فتيقنت «منة» من رغبة جدتها في البقاء بين ابنتيها بعض الوقت..

- لك ما ترين يا حبيتي، سأترككِ هنا يومين كاملين، وليس يوماً واحداً؛ لأنّ نوباتجية عملي بالمشفى ستكون غداً ليلاً، وسأعود لأصحبكِ إلى شقتنا بعد غدٍ بإذن الله.

قالتها «منة» في بشاشة، فأومأت الجدة موافقة، فذهبت «منة» لا تلوي على شيء.. وجدت «منة» بنفسها رغبةً قويةً للاختلاء بنفسها بعض الوقت حتى تسكب ما يثقل مقلتيها من دمعٍ لثقتها بمسعد، وصفعة الخذلان التي تركها كطعنةٍ غائرةٍ بقلبٍ ما عرف معنى الحبِّ إلا عندما التقاه.

قادتُها قدماها نحو مسكن «جرجس وزوجته منال»، فهي تشعر بالتقصير في حقيهما عليها كجيران، فوجدت «منال» ماتزال تذرف دموعها الحارة من أجل ولدها الذي لم يُعلم عنه خبرٌ حتى الآن.

واست «منال».. وهي بحاجةٍ إلى مَنْ يواسيها في مُصاب قلبها كذلك، ثم قصدت بيت السيدة «أمينة»، القابعة بشرفتها تراقب الطريق، ترقّب ظهور «هاجر» بين أطفال الشارع ثانيةً، ثم توجّهت إلى بيت «والدة شادية».. حيث كانت «شادية» تهذي بكلام غير مفهوم، وأمّها تسأل ربّها شفاء ابنتها،

وإهامها الصبر لفقدان ابنتها «صفاء»، وعادت «منة»، والغسق يجرجر أذيال
الظلام، بينما تجرجر هي آلامها، وآلام هؤلاء المبتلين بفقدان فلذات الأكباد،
بهجة الدنيا، وزهور الحياة.

لم تذكر أن تركتها جدتها «بسيمة» الطيبة تبيت بمفردها بالشقة قبل الليلة،
فهمست في نفسها:

— لماذا أشعر أن الشقة باردة هكذا الليلة بدونك يا جدتي؟! —

تشعر بالبرد رغم حلول الصيف، فما كان جسدها يستشعر بردًا؛ وإنما هو
قلبها الرقيق الذي تغشاه الوحدة بقسوة هذه الليلة دون غيرها!

رغبة ما دفعتها للعبث بأزرار هاتفها البائس لتتصل بمسعد مجددًا، اتصال
تلو اتصال، وما من مجيب! مرّت ساعات دون أن تدري، وإذ بها تجد ساعة
«الموبايل» تشير إلى الواحدة والثلاث من منتصف الليل.. انقباضة قوية مؤلمة
قد اعتصرت قلبها، ترى ما سببها؟! —

تمت متوترة:

— ترى ماذا سيحدث؟! —



غَنِيمةٌ ثَمِينَةٌ

شُبرا الخيمة، ليلة الحادي والعشرين من فبراير ٢٠١١م

كانت «غرام» تجلسُ بشرفة شقَّتْها المُستأجرة بمنطقة «شُبرا الخيمة» - تلك المنطقة الشَّعبية التي انتقلت إليها من «المَنِيْل» قبل اثنتي عشرة سنةٍ مع ابنتها «عُلا» وأمَّها - ترتدي جلبابًا أسود، وتلفّ حول رأسها وعنقها؛ وشاحًا أسودَ اللون كذلك، فهي مازالت تقاسي ألمَ فراقِ أمِّها التي رحلت قبل ثلاثة أشهر على وجه التقريب، وقد خلا الكونُ حولها بذهابِ ابنتها الوحيدة «عُلا» للبحث عن عنوان أبيها الجديد.

لقد استسلمت «غرام» لمصيرها بعدما تخلَّى عنها المجري، وطعنها بشرفها عندما تبرَّأ من حملها! بينما مازالت كلماته القاسية تتردّد على مسامعها عبر سنوات.. وسنوات:

- ابحثي عن ذلك الرَّجل الذي حملتِ منه بعيدًا عني!

فتنسبُ دموعها، وتلهج بالحسبنة عليه، وبثّ شكواها إلى ربِّها، فهي لم تُعد هي تلك الراقصة التي تسحر ألبابَ الرِّجال، لم تُعد هي تلك التي يخطف قوائمها الأبصار كلما تمايلت على دقّات الطبول، وألحان المزامير، ولم تُعد هي المرأة الفاتنة التي بكلمةٍ منها يُلقِي الأثرياء بالمال أسفل قدميها!

لقد عَدَتْ «غرام» عاملةً بمصنع محليّ للصابون والمنظفات، ثمّ ساعة بمكتب محامي مغمور، بعدما أوقف المصنّع نشاطه، ومؤخرًا.. باتت خادمة

بمنزل ممثلة مُسِنَّة معتزلة. عملها السالف كراقصة كان يُدرّ عليها، وعلى أمّها، المال الوفير، ولكنّها بعد أن حملت بابنتها «عُلا»، قالت في نفسها:

— لقد وهبني الله نعمة الإنجاب، وأخشى لو عُدتُ إلى الرقص أن يجرمني ربي ما رزقني.

لذلك فقط؛ آلت على نفسها ألا تعودَ إلى الرقص أبداً، مهما عانتُ ولاقت من مرارة الحاجة المادية.. كم تحمّلت شظفَ العيش من أجل ابنتها، تلك الفتاة العنيدة «عُلا»، التي رأت في ارتضاء أمّها بما فعله «المجري» بها خنوفاً، وضعفاً، ومذلةً كُبرى.

لقد تركتها ابنتها الوحيدة قبل أيام حتى تعثر على ذلك «المجري» الذي ضحّى بها، وبأمّها من أجل رضاء زوجته وأبيها عنه، فهي لم تنسَ أن تُطمئن أمّها عليها باتّصال هاتفي قبل أربع ليالٍ، ولكنّها لم تخبرها بما تعزم القيام به، حيث لم تخبرها بأنّها ما كانت تبحث عن «المجري» إلا لتقتله..

فقد أنكرها، ولذلك، لم تستطع أمّها استخراج شهادة ميلاد لها حتى تلك الساعة، وبالتالي لم تلتحق بمدرسة حتى الآن، حتى بلغت السابعة عشر!!

بل أوهمت «عُلا» أمّها بأنّها تسعى إلى لقاء والدها «سمير المجري»؛ لأنها تريد أن تشعرَ بأبوته التي حرّمها إيّاها، وأنّها كلّها أمل في أن يرقّ قلبه لها، ويعترف بها قريباً.

وها هي المراهقة الصغيرة تعود، وهي تسحبُ خلفها جوالاً كبيراً، يبدو أنّه ثقيل لذلك لم تستطع حمله..

- ما هذا يا «عُلا»؟! (سألَتْها أمُّها «غرام» بقلقٍ ..)
- لقد جئتُكِ بِغَنِيمةٍ ثَمِينَةٍ، سَتُعَوِّضُكِ عَمَّا حَرَمْتُكِ «سمير المجري» طيلة الأعوام الفائتة!
- قالتْها الفتاة بزهو، وانتشاء..
- هل عَبَّأتِ لَنَا الدُّنْيَا دَاخِلَ جَوَالٍ؟!
- سألَتْ «غرام» مازحة، ثُمَّ ضَحَكَتْ، وَهِيَ تَعَانِقُ الْفَتَاةَ، وَتَقُولُ لَهَا:
- اشْتَقْتُ إِلَيْكِ، حَبِيبَتِي..
- ثُمَّ تَابَعَتْ الْأُمُّ تَقُولُ:
- يَبْدُو أَنَّ اسْتِقْبَالَ أَبِيكَ لَكَ كَانَ حَافِلًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ، أَخِيرًا يَا «عُلا»؟! أخيرًا اعترف بكِ، وَأَحْضَرُ لَكَ كُلَّ هَذِهِ الْهَدَايَا الَّتِي تَمَلَأُ ذَلِكَ الْجَوَالُ! الْحَمْدُ لِلَّهِ، كَمْ انْتَظَرْتُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَكَمْ سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَرْقُقَ قَلْبَهُ لَكَ.
- كَانَتْ «عُلا» تَتَأَمَّلُ حَدِيثَ أُمِّهَا بدهشةٍ بِالْغَةِ، لِذَلِكَ رَاحَتْ تَسْأَلُهَا:
- مِنْ أَيْنَ لَكَ بِكُلِّ هَذِهِ الثَّقَّةِ فِي ذَلِكَ «المجري» النذل؟!!!
- ثُمَّ صَاحَتْ فِي هَيْسَتَرِيَا، حَتَّى تَصَمَّتْ أُمُّهَا، وَتَسْتَفِيقُ مِنْ ذَلِكَ الْوَهْمِ:
- لَقَدْ حَاوَلَ «سمير المجري» اغْتِصَابِي!!
- ثُمَّ صَرَخَتْ ثَانِيَةً، وَهِيَ تَسْأَلُ أُمُّهَا بِاسْتِنْكَارٍ:
- أَبْعَدَ كُلَّ هَذِهِ السَّنَوَاتِ مَازَلْتُ تَأْمَلِينَ فِي أَنْ يَرَاغِبَ «المجري» نَفْسَهُ، وَيَعْتَرِفَ بِي، وَيَسْتَقْبِلَنِي بِحَفَاوَةٍ؟!

جرت دموعُ الفتاة التي تحمّلت ما لا تستطيع تحمّله أخرى لها ضعف عمرها.. وراحت تقول:

- يا لك من ساذجة يا أمي!!

بدأت الرّجفة تعتري قلبَ «غرام»، تلك الأمّ الصابرة، فأسرعت وجذبت الجوال نحوها، وفكّت رباطه..

وشهقت، وهي ترى رُزَمَ الدولارات، ورُزَمَ المال المصريّة تنسكب أمامها! لقد أفرغت «علا» خزينه «المجري» من كلّ الأموال التي كانت تملؤها، وعبّأتها بذلك الجوال، الذي أعيّاها حمله حتى أمّها.

إنّه مبلغ ضخم، لم تمتلك «غرام» مثله عندما كانت ترقص بحفلات الأثرياء، والملاهي الليلية، والكباريهات المختلفة!

انعقدَ لسانها، وحملتْ بابتها، خاصّةً عندما رأت كيسًا شفافًا بين رُزَم الدولارات، يحوي داخله سكينًا مخضبة بالدماء! فإذا بالمراهقة تسقط جاثية فوق رُكبتها، وهي تصرخُ في انهيار قبل أن يُصيبها دوارُ الرأس الذي أدّى لإغمائها:

- لقد قتلتُ «المجري»!!



﴿إِذَا غَابَ الْقُطُّ عَبَثَ الْفَرَّانُ بِالْأَنْحَاءِ﴾

استيقظت «منة»، وبينما كانت تعبر الردهة المقابلة لغرفتها، قالت:

- صباح الخير يا أجهل جدّة بالكون كلّه.

لقد نسيْتُ أَنْ جدّتها لم تنم بالشّقة الليلة الفائتة، وأخذت تجوب أنحاء الشّقة، تبحث عنها، ولكنّها تذكّرت ما جرى ليلة أمس عندما وقعت عيناها على فراش جدّتها فوجدته خالياً.. عدم وجود جدّتها أفقدها شهيتها لتناول الفطور، فاغتسلت، واستعدّدت للذهاب إلى عملها بالمشفى.

كانت تستحثّ خطاها للمُضيّ قدماً نحو العنبر رقم ٣، تريد أَنْ تلتقي «خليلًا»، فهو فقط مَنْ يُشعرها بحنو جدّتها، كما أنّها أحسّت بأنها أحرجته أمس عندما اختصرت الردّ عليه بكلمات قليلة مُقتضبة.. لم تكن تتعمّد تجاهله، وإنّما غلبتها أفكارها حول سرّ تجاهل «مسعد» لاتّصالاتها، ووعدّه المتبخّر لها، إذا لا بدّ من تدارك سوء التفاهم السابق.. دلفت «منة» إلى العنبر رقم ٣، وهي تقول بمرح:

- صباح السعادة يا عمّ «خليل».

كانت تعلم بأنّ الدكتور «وديع مكرم» قد صرّح بخروج «إبراهيم»، وتعلم كذلك بأنّ «بركات» لا يسمع ولا يتكلّم؛ فكانت تكتفي بتحيتّه بإشارة من يدها تعني «السّلام عليك».. لم يكن بالعنبر حينها سوى ذلك النّزيل الأبكم «بركات»، جالساً فوق سريره، وساقاه مغطّيتان بملاءة

المشفى، فأشارت له تحييه، ثم سألته بواسطة لغة الإشارة سؤالاً يعني (أين ذهب عم «خليل»؟!)

ارتعدت فرائص «بركات» عقب سؤالها إيّاه، وانتفض جسده انتفاضة لاحظتها هي جيّداً، وأوشكت على سؤاله مرّةً أخرى، ولكنها تراجعَت عندما رأت مُقلتيه تتحرّكان كبندول الساعة المتأرجح يميناً ويسرةً بلا هوادة، في ارتعاب شديد، ثم تهرّب «بركات» منها بأن تمدّد بفراشه وسحب الغطاء فوق وجهه.

بدا «بركات» أمامها كطفلٍ يخشى خروج أشباح أفلام الكارتون نحوه من داخل شاشة التلفاز!!

سارت متوجّسة صوب «دورة المياه» القابعة بنهاية العنبر، وطرقت باب الحمام، وهي تقول:

- هي - -ه، هل من أحدٍ بالداخل؟ أهنأك أحدٌ داخل الحمام؟!

لم تسمع ردّاً، ففتحت الباب، ثم دفعته بهدوء، ولكن «دورة المياه» كانت خالية تماماً.

وقفت هنيهة تتأمل ذلك الرجل الأبكم المرتعش أسفل غطاءه؛ فقد كان الغطاء فوق جسده يرتعش.. ثم تساءلت في نفسها:

- كيف ينهض عم «خليل» من سريره، ووريده متّصلٌ بحامل الجلو كوز؟! -

ثم أين هو ذلك الحامل المعدني الخاص به؟!

شملت العنبر بنظرة فاحصة، فأذهلها وجود مذياع الرجل العجوز بموضعه على حافة النافذة أعلى سريره كما هو، عادت تتساءل في نفسها مُجدداً:

- كيف يذهب عم «خليل» دون مذياعه؟! ذلك المذياع الذي يصطحبه معه حال حله أو تر حاله!

عركت جبينها، وهي تهمس:

- هناك أمر لا أفهمه!

خرجت «منة» من العنبر، تبحث عن «رضوى» الممرضة، فلعل لديها ما يساعدها على حل ذلك اللغز.. لم تجد أثراً لرضوى هي الأخرى، بعد بحث استمر لنصف ساعة تقريباً.. ولكنها رأت الممرضة «عزيزة» بنهاية إحدى الردهات، إن «عزيزة» كرضوى تماماً؛ تعامل الناس على حسب حاجتها إليهم، فهي للأسف من هؤلاء الأفاكين الذين يرددون المثل القائل.. «إذا كان لك عند الكلب حاجة؛ فقل له: يا سيدي»، فهي عزباء، بدينة، قد تحطت الخامسة والثلاثين ولم تُخطب بعد، ولطالما التصقت بكل من يحصل على ترقية، أو مركز مميز من أطباء المشفى!

ولم تتقرب من «منة»، ولم تختلق معها الأحاديث إلا بعد ترقيتها إلى «رئيسة ممرضات المشفى»، لقد تلاقت عينا «منة» بعيني «عزيزة» رغم امتداد الردة بينهما، ولكن «عزيزة» تجاهلت مرؤوستها تماماً، واختفت داخل أحد عنابر المشفى!

هرولت «منّة» صوبَ ذلك العنبر لتكتشف أنّ «عزيزة» كانت تُجَبِّئُ جسمها المترهل خلف دقّة من دفتي باب العنبر الكبير.

حدثتها رئيسة الممرضات بنظرةٍ عصفتُ بكيانها، ومن بين أنفاسها المتلاحقة، قالت «منّة»:

- اتبعيني إلى خارج العنبر.

كانت «منّة»، حكيمة.. حريصة جدًا على ألاّ يطّلع مريض من مرضى المشفى على ما يدور بينها وزميلاتها من حديث يتعلّق بالعمل.

تبعتها «عزيزة»، والقلقُ يعتريها، فقالت «منّة»:

- لن أسألك عن سببِ ذعرك عندما رأيتني، فهذا لا يهمّني.

ثم نظرتُ بعيني «عزيزة» مباشرةً، فأربكتها وهي تسألها:

- ولكنّي سأسألك أين ذهبَ عمّ «خليل» يا «عزيزة»؟!!

قالت «عزيزة» في ارتباك:

- اغذريني يا رئيسة؛ فالدكتور «مروان» قد طلبني، ولا بُدّ أن أذهب إليه حالاً.

قبضتُ «منّة» بأصابعها بقوةٍ على عضد «عزيزة»، وهي تقول:

- أجيبيني على ما سألتُ يا «عزيزة» أكرّم لك، وإلاّ أقسم لك أنّي لن

أجعل هذا الأمر يمرّ بسهولة!

ثم تابعت «منّة» توعدّها في حزم:

- وأنتِ تعرفيني جيّدًا؛ إذا وعدتُ بشيءٍ فلا بُدَّ وأنّ أفي به.

ارتعشتُ شفتيّ «عزيزة» الغليظتان، وهي تقول:

- لا أعلم، لا أعرف شيئًا.

ثمّ قالت بصوتٍ يغمّره الخوف:

- وما شأني أنا بذلك العجوز؟!

تركتُ «منّة» ذراع الممرضة البدينة، وهي تقول:

- سنرى، ما إنّ كان لك شأنٌ بالأمر أم لا!!

ثمّ سألتُ «عزيزة» مرّةً أخرى:

- وأين «رضوى» اليوم؟!

أجابتُ «عزيزة» متلعثمّة، وقد بدا وجهها شاحبًا:

- لقد أبلغتُ بأجازة مَرَضِيّة مفتوحةٍ أمس، وقد وافقت إدارة المشفى

على طلبها.

زفرتُ «منّة» لهذه الألغاز المتلاحقة التي لا تجد لها حلًّا! وعزمتُ على

مناقشة الدكتور «وديع مكرم»، مدير المشفى في هذا الأمر الشائك.

استأذنتُ للدخول إلى مكتب الدكتور «وديع»، فأذن لها مرحّبًا:

- تفضّلي يا «منّة»، حمدًا لله على سلامتك، أنرتِ المشفى.

— سلمك الله يا دكتور، من بعد إذذك أودّ مناقشتك بأمرٍ ما.

— طبعا يا «مَنَّة»، تفضّلي.

فقلت في ثبات:

— دكتور «وديع»، سيادتك على علم بحالة المريض «خليل ديمتري العجايبي»، أليس كذلك؟!

أوما الدكتور «وديع» مؤكّداً، وقال:

— نعم، أليس هو المريض الذي أجريتُ له بنفسي عملية استئصال المرارة، ثم استئصال الكلّة اليسرى قبل أيّام؟!

— هو بعينه يادكتور. (أكّدت «مَنَّة»..)

— ماذا به؟ هل حدثت له مُضاعفات، أو ما شابه؟! (سألها الدكتور «وديع» باهتمام بالغ)

بلغَ منها القلق مداه، وهي تسأل بارتعاب:

— هل أفهمُ من كلام سيادتك هذا؛ أنّ حضرتك لم تُصرّح بخروجه من المشفى بعد؟!

تجهّم وجه الدكتور «وديع»، وقال بلهجة عتابٍ حادّة:

— ماذا دهاك يا «مَنَّة»!! هل يُعقل أن يصدر مثل هذا السؤال الساذج منك أنت؟ هل جُننتُ أنا حتى أُصرّح بخروج حالةٍ مثل تلك؟ إنّ حالة

«خليل العجايبى» حالة استئصال كُلية، أي أنّها حالة حرجة، ولا بُدَّ من وضعها تحت الملاحظة والمتابعة.

- هذا بالضبط ما يُحيرني يا دكتور!! (أكدت «مَنَّة»)

زوى الاستشاري الكبير بين حاجبيه، وقال:

- ماذا حدث بالضبط يا «مَنَّة»؟!

قالت، وقد التمعت الدّموع بعينها:

- عمّ «خليل العجايبى» ليس بالمشفى يا دكتور!



(ما بين هيمنة القانون، وصوت الإنسانية؛ شعرة رفيعة)

غفت عينا «علا» بعد أن أحسّت بأن الأرض تدور بها دوراً متواصلاً..
 فيما بقيت أمها «غرام» تصارع شبح سجن ابنتها الوشيك؛ فقد تعثر تحريات
 الباحث عليها في غضون ساعات. أخذت «غرام» تبكي بكاءً مريراً، وتتساءل
 في هلع، كمن تُحدثُ شخصاً آخر أمامها:

— لماذا يا «مجري»؟! لماذا أضعت ابنتك الوحيدة؟! لماذا دفعت بها إلى ذلك
 المصير المظلم؟!

ثم راحت تعضّ على يديها، وهي تصرخ صرخاتٍ مكتومة؛ حتى لا
 يُفتضح أمر ابنتها الوحيدة، وتقول بدموعٍ مدرارة:

— ماذا أفعل الآن؟ وما جدوى حياتي دون ابنتي؟! لقد صدّقتك يا «علا»
 عندما قلت لي «سأجعل أبي يعترف بي يا أمي، ولن أعود إلا وييدي شهادة
 ميلادي المدوّن بها اسمي يتبعه اسم «سمير المجري».

بقيت «غرام» على تلك الحال ساعةً أو ساعتين، لا تدري بالوقت..
 ثم اهتدت إلى ضرورة لقاء اللّواء «علي أبوسيف» بأيّ ثمن، ذلك الرّجل
 الذي تعاطف معها وتدخل بالأمر عندما طردها «المجري» من مكتبه قبل
 ثمانية عشر عاماً، عندما جاءته ترجوه أن يعترف بذلك الطفل الذي تحمله
 بأحشائها، ولكنّ «المجري» لم يكن هو ذلك المتّصح الذي يقبل مراجعة أو
 توجيه!

أغلقت الشقة بمفتاحها، تاركةً ابنتها «علا» تغطّ في سباتها العميق، ثمّ حملت حالمها إلى حيث يعمل اللّواء «علي أبوسيف» بمديرية أمن القاهرة، وظلّت تلهج بالدعاء طوال الطريق إليه، حتى تجده..

لم تجده بمكتبه، فطلبت إلى أحد الضباط أن يتصل به للضرورة، ففعل بعد توسلاتٍ منها، وأعطاها الهاتف كي يتبيّن من جدّية أمرها من عدمه، فأخذت تتوسّل قائلة عبر الهاتف بصوتٍ خفيض:

- سيادة اللّواء «علي أبوسيف»، معك «غرام»..

ثمّ همست دون أن يسمعها الضابط الذي يقف على مسافة متراتٍ منها:
- أنا «غرام» زوجة «سمير المجري» السابقة، أرجو وودك يا سيادة اللّواء، أنا واقعة بمصيبةٍ كبرى، وأريد لقاء سيادتكم بضِع دقائق فقط، من فضلك..

أخبرها اللّواء الإنسان «أبوسيف» بقبوله طلبها، ثمّ أوصى الضابط بأن يُبقي المرأة لديه بالمكتب، وأن يُحسن معاملتها إلى أن يصل إليها..

ترك «أبوسيف» عشاءه، بينما تذرّرت زوجته، متعللاً لها بأهمية الأمر دون أن يخبرها بأمر تلك المتّصلة التي أتاها صوتها عبر الهاتف من وراء عقدين من الزمان تقريباً!

لم تمضِ نصف ساعة، حتى وصل «أبوسيف» مُرَجِّباً بها، وقد أمر بإحضار كوب من العصير لها، ثمّ أمر الضابط بالانصراف.

بقي اللّواء «أبوسيف» بالمكتب و«غرام» وحدهما، فاطمأنت، وبدأت تُقصّ عليه قصّة مقتل «المجري» قبل ساعتين تقريبًا على يدي ابنتها «عُلا»!
اعتدل في جلسته، وكأنّه يستمع إلى ضرب من ضروب الأساطير! أبعد كلّ هذا الجبروت والتسلّط والجور؛ يُقتل «المجري» بيدي مراهقة بالسّابعة عشر من عمرها؟! ومن تكون القاتلة! إنّها ابنته التي أنكرها وأبى الاعتراف بها وهي مازالت نطفةً بأحشاء أمّها!!

أغرقت «غرام» وشاحها بدموعها المنهمرة، وهي تُنهي سرد قصّة مقتل ابنتها للمجري للّواء «علي أبوسيف»، وهي تتوسّل إليه قائلة:

— أرجوك يا سيادة اللّواء، اقبضوا عليّ أنا، إنّني على استعداد تامّ للاعتراف الآن بقتل «سمير المجري»! اشنقوني، اقتلوني، أو حتّى احرقوني أنا، ولكن اتركوا ابنتي، لقد جئتُك قبل أن تتوصّل التحريّات إليها، ليتك تعتقلني أنا دونها، فهي مازالت صغيرة، لا تقضوا على مستقبلها، أرجو ووكم!

زفر اللّواء «علي أبوسيف»، وهو يمرّر بنصر يده اليمنى فوق حاجبيه، مستغرقاً في التفكير.. ثمّ قال:

— اطمئني يا «غرام».

لم تتمالك نفسها، وقاطعته تسأل:

— كيف! ماذا ترى يا سيادة اللّواء؟!

زفر مجدّداً قبل أن يقول:

— لأوّل مرّة بحياتي سأخالف القانون، وأخترق الثوابت!

سألت «غرام» بلهفة ثانية:

- كيف؟!

فقال:

- سأعتبر أنني لم أسمع شيئاً، ولم أعرف بالأمر برمته.

حملت به بعينين حراوين من أثر البكاء، وقالت:

- لا أفهم، ماذا تعني؟!

قال في جدية:

- لولا أنني كنت شاهداً منذ زمن بعيد على جرائم «المجري»، وانتهاكاته للقانون، وتجاوزاته التي لا حصر لها؛ ما قلت لك ما قلته الآن.

ثم استطرد موضحاً:

- غادري فوراً، اذهبي إلى محافظة بعيدة، ابتعدي قدر استطاعتك، وقبل ذلك.. أعيدي المال الذي جلبته ابتك من فيلا «المجري» إلى خزينة الدولة، وأنا سأدبر الأمر؛ وكأن فاعل خير قد وجد هذا المال، وسلمه إلينا.

انهمرت دموعها جارية فوق صفحة وجهها، وهي تنظر إليه ممتنة له، كمن تنظر نحو ملك هبط إلى الأرض بمعجزة ربانية، فقال بشفقة، وشريط ذكريات «المجري» الملوث يجري أمام ناظريه كقطار في أوج سرعته:

- ليس من العدالة أن نُميت الفتاة مرتين، وإن كان القانون يقول بغير ذلك!! إن رجل القانون المثالي يخالف القانون الليلة مرغماً،

فالمقتول بناظره هنا، هو القاتل الحقيقي! ما بين القانون والإنسانية؛ بُعد المشرقين، والفارق بينهما كذاك الفارق بين السماء والأرض! وأحياناً نادرة الحدوث تكون ما بين سيادة القانون، وحضور الإنسانية وغلبتها؛ شعرة رفيعة، واليوم قد آثر «أبوسيف» أن يُبقي على تلك الشعرة، وألاً يقطعها.. سيخالف القانون، ولعله سيندم جرّاء ما سيفعل، ولكنه لو طبق القانون بهذه الحالة الشائكة؛ فربما سيكون الندم أقسى وأمرّ.. يكفي ما جناه «المجري» على طفلة بعمر الزهور؛ لذا.. لم يشاركه «أبوسيف» في القضاء عليها بلا رحمة.. سيدعها تبعد، علماً تنسى ما كان.. وعله قد أصاب في ذلك القرار، رغم وخزات ضميره التي لا تستكين.

لقد اطمأن ضمير الإنسان «علي أبوسيف» إلى قراره هذا بعض الشيء.. بينما ظل ضميره «المهني» يجلده بسوطه الغاضب!

ذهبت «غرام» وهي تمطره من بين دموعها الممتنة بفيض صادق من الدّعوات، فيما أعطاهها كافة أرقام هواتفه، وأوصاها بأن تتصل به فور استقرارها وابنتها بمكان بعيد آمن، حتى يعرف عنوانها الجديد، ويمكنه الاطمئنان عليهما من آن لآخر!



لقد أتاح الانفلات الأمني، وغياب الوجود الكثيف للشرطة بأنحاء البلاد؛ الفرصة إلى «غرام» وابنتها «علا» للرحيل إلى محافظة ريفية بعيدة دون أن تحوم الشكوك حولهما.

أما «سالي»، فقد ترددت كثيرًا على مكتبٍ ومنزل اللّواء «علي أبوسيف» بعد مقتل زوجها بعدة أشهر، عندما استتبّ الأمنُ تدريجيًا، تريد استعادة أموال «المجري» التي دخلت إلى خزينة الدولة!

لقد كانت أموال المجري - التي تتجاوز المليون دولار - بأمانة اللّواء «علي أبوسيف» حتى استقرّت الأوضاع الأمنية للبلاد، ومن العجيب للغاية أن «سالي» لم تذكر الخادمة الصغيرة «سلمى» بالتحقيقات مُطلقًا.. فالخادمة الصغيرة، كانت، وما زالت بناظرها هي ذلك الملاك الذي خلّصها من «المجري» الذي لم تبغض شخصًا قدر بغضها له!

لم تأبه «سالي» لمقتل «المجري»، وإنما تهتم فقط بما خلفه وراءه من مال وفير..

كادتْ تحنّ عندما أخبرها اللّواء «علي أبوسيف» بأنهم لم يعثروا بعدُ على الأموال المسروقة من خزينة «المجري»! كمْ لهتْ خلف تلك الأموال، رغم علمها التام بأنّها ما اكتسبت سوى من الحرام!

فشتان بين «سالي» الرّاغبة بالمال الحرام، وبين «غرام» التي ابتغت الرّزق الحلال، فعزفت عن الثّراء المشوب بالخطايا والآثام.



(مراوغة لا بُدَّ منها)

مكث اللّواء «علي أبوسيف» بعضَ الوقت بمكتبه بمديرية أمن الجيزة، بعد ذهاب «غرام» إلى حال سبيلها، فإذّ بالمُقَدِّم «غانم السنهوري» يُطرق بابَ المكتب، ويستأذن للدخول.. فقال «علي أبوسيف»:

- تفضّل يا «غانم».

«غانم السنهوري» مقدّم شرطة قد تجاوز الأربعين بعام وبضعة أشهر، تتأخّر ترقياته، ربّما لأنه لا يرى الأمورَ دائماً من زاويته الضيقة فقط، وقد تآقت نفسه للتّرقية إلى رتبة «لواء»، كاللّواء «علي أبوسيف»، ذلك الرجل المعروف بنزاهته، وحسابه لكلّ خطوة قبل أن يخطوها.

كم أعجب «غانم» بشخصيّة «علي أبي سيف»، ولكنّ نفسه أبت أن تسلك مسلك «أبي سيف» القويم، فقد يحترمك أحدهم، لكن لا يقتدي بك، قد يستحسن أحدهم فعلك ولكن لا يحذو حذوك، فكم يبدو لك هذا الشّخص متناقضاً، كمَن يُحبّ الصالحين ولكنّ عمره كلّ ينقضي دون أن يصبح واحداً منهم!

ظهرت علامات التّرقّب على وجه المقدّم «غانم»، وهو يقول:

- هل لي أن أسأل سيادتك.. ماذا هناك؟!

لقد لمح اللّواء «أبوسيف» بخبرته الكبيرة، ذلك الفضول البوليسي يُطلّ من عيني المقدّم «غانم»، لذلك قال «أبوسيف» في سرعة بديهة:

- عمّاذا تسأل يا سيادة المقدم تحديداً؟!

التمعّ التّحدي الأهوج بمقلتي «غانم»، وهو يقول:

— أَظُنُّ أَنَّ وراء هذه السيدة التي ذهبت للتو؛ قضية كبيرة تستحقّ البحث والتحقيق.

ثم استطرد المقدم «غانم السنهوري»:

— وأرجو أن تمنحني شرفَ التحريّ عن تلك السيّدة، والقيام بأيّ مهمّة تتعلق بقضيتها يا سيّدي.

قال «علي أبو سيف» في تمويهٍ مُتعمّد:

— طبعاً، لو كان هناك ما يستحقّ لأخبرتكم على الفور، ولكنّه موضوع شخصي.

كان المقدم «غانم حربي السنهوري» يتعجّل الترقية، ويضع كرسي اللواء «علي أبو سيف» نُصبَ عينيه، ولا يكفّ عن البحث والتّنبّش في بعض القضايا الجنائية التي نُسبت بعضها إلى جانٍ مجهول؛ لعلّه يظفر بخيطٍ مفقود، يُقرّبه خطوة من الترقية!

اللواء «أبو سيف» يعلم جيّداً بأنّ «غانم» لا يبذل كلّ ذلك الجُهد المُضني حُبّاً في أمن هذا البلد، وإنّما يسعى لنيل مكسبٍ فرديّ خاصّ به، حتى تُسلط الأضواء عليه، ويلتَمع نجمه في سماء وزارة الداخلية بأسرع وقتٍ ممكن!

رسم اللواء «علي أبو سيف» على وجهه الوسيم ابتسامةً بلاستيكيةً روتينيةً، لم يضطرّ إلى استخدامها بأحاديثه من قبل، ولكنّه كان بالفعل يشعرُ

ببعض التوتر والقلق إزاء فضول «غانم السهوري»، ذلك الفضول الذي قد يدفعه إلى تعقّب «غرام» وملاحقتها..

أطلّت نظرة ماهرة من عيني المقدّم «غانم السهوري»، وهو يقول:

- وهل ذلك الموضوع الشخصي يدفع بمثل هذه السيّدة إلى أن تأتي حتّى المديرية مساءً باكية، ثمّ تتوسّلني حتّى أخطرَ سيادتكَ برغبتها في محادثتك عبر الهاتف، ومن ثمّ تأتي سيادتكَ إلى المديرية على الفور من أجلها؟! ثمّ قال في خبثٍ قد نضحَ من صوته:

- هل لي من بعد إذنِ سيادتكَ طبعًا يا سيادة اللّواء؛ أن أطلع على ذلك الأمر الهام؟ خاصّةً، وأنّي أعتقد أنّ هذه المرأة تشبه امرأة معروفة؟!

ثمّ ألقى «غانم» بقنبلة موقوتة في وجه اللّواء «أبي سيف»، حين قال:

- إنّها تشبه الرّاقصة المعزلة «غرام كامل» التي اشتهرت بنهاية الثمانينيات، أتذكّرها «يا فندم»؟!

قال اللّواء «علي أبو سيف»، وهو يتكتم قلقه بضحكة مفتعلة:

- ربّما، ولكنّي كما تعلم عني؛ أنا لا أعرف راقصات، ولستُ من هواة متابعة أخبارهنّ.

ثمّ قال في محاولة لمحو أفكار «غانم»، التي بدأت في التنامي حول «غرام»:

- إنّ المرأة التي جاءت الليلة ما هي إلّا أمّ، تريد الاطمئنان على ابنها الوحيد المُجنّد بالجيش؛ حيث حالت الأحداث الجارية، وأحوال البلد من الاطمئنان عليه، وابنها هذا قد جُنّد بالعريش قبل ستة أشهر.. وقد أرسلها

إلى مسؤل من معارفي بمحافضة كفر الشيخ، لذلك جاءتُ تـرجوني أن أحاول نقلَ ابـنها إلى وحدةٍ جيشٍ قريبة من قريتها، فهل لديك أسئلة أخرى، يا سيادة المُقدّم؟!

بُهِتَ المُقدّم «غانم السنهوري»، واقتنعَ مبدئيًّا بما قاله اللّواء «علي أبوسيف» حيث لم يشهد عليه كذبةٌ واحدة من قبل، ولم يجد ما يقوله للّواء «علي أبوسيف»، وفكر أن يُخرج نفسه من ذلك الموقف المُحرج، فقال في مكرٍ ملحوظ:

- هل لي ب -اسم هذه السيّدة، واسم ابـنها المُجنّد؟! فلعلّ بإمكانني مساعدتها، بعد إذنك يا سيادة اللّواء.

ثمّ تابع «غانم» في مكرٍ كذلك:

- فكما تعلم يا سيادة اللّواء أنّني دائماً بخدمة المواطنين.

إنّ المُقدم «غانم السنهوري» شخصٌ ذكي ماهر، ولكنّ اللّواء «علي أبو سيف»، يفوقه ذكاءً، ودهاءً..

ولكنّ ثمةَ فارق ملحوظ بين الرجلين.. ألا وهو أنّ «علي أبوسيف» كان دائماً يوظف ذكاءه هذا في فعل الخير، وإنصافِ البريء، وإغاثة الملهوف، والوقوف إلى جانب المُستضعف، والمظلوم.. اللهم إلّا حالة واحدة، وقفَ أمامها عاجزاً قبل ثمانٍ وعشرين عاماً، عندما لم يستطع إخراج امرأة بريعان شابها من محبس «سمير المجري» بقسم شرطة الوراق! كان الرائد «علي أبوسيف» يجلس بمكتبه، يسمعُ صرخاتها، بعد أن أوعز

«المجري» إلى بعض السّجينات المحتجزات بالقسم - هؤلاء النّسوة الساقطات، صاحبات قضايا الدّعارة، والقتل، والسّرقة بالإكراه - بضرب هذه المرأة ضرباً مُبرّحاً، حتى لاقت حتفها على أيديهن النجسة!

هذه هي الحالة الوحيدة، التي أرقت «علي أباسيف»، وجعلته يشتهي النوم الهادئ، والخلاص من عذاب الضمير..

أمّا «غانم السّنهوري»، فهو لا يختلف كثيراً عن «المجري»؛ حيث أنّه لن يتورّع عن القيام بأيّ شيء من أجل مصلحة الشخصية وحسب..

فكّر «علي أبوسيف» برهّة، ثمّ سحب ورقة بيضاء من فوق مكتبه، ودوّن بها اسمان وهميان لسيدة، وابنها..

كان على «أبي سيف» أن يلجأ إلى مرواغة لا بدّ منها في التّعامل مع شخصية ليست سويّة، كشخصية هذا الغانم اللاغانم.

انفرجت أسارير المقدّم «غانم السّنهوري»، وشكر اللّواء «أبا سيف»، وما أن خرج من مكتب أبي سيف، إذ دقّ بقدمه على الأرض في غيظٍ شديد، ومزّق الورقة التي أعطاه إياها «أبوسيف»، وهو يلعنُ حظّه كنسر يائس لم يتمكّن منذ أشهرٍ من اقتناص صيدٍ ثمين؛ حيث لم تكن في نيّته مساعدة هذه السيّدة كما ادّعى. عاودت «سالي» التردّد على مبنى مديرية الأمن على أمل أن يخبرها اللّواء «علي أبوسيف» بجديد فيما يتعلّق بالعثور على أموال المجري؛ ولكنها لم تجدَ جديداً، ولكن ثمة فرصة كان عليها أن تغتنمها؛ فقد تودّدت للمقدّم «غانم السّنهوري»، وهو كذلك، لا لحُبّ ربطَ بينهما.. وإنّما لأنهما

شخصان متشابهان إلى حدّ كبير، يجمع بينهما الطّمع وعشق المال، ولا يهتمّهما ما إذا كان ذلك المال ملوّثًا بشبهةٍ أم لا!! فتزوّجا، وماذا يحدث في حال أن تزوّج عقربان! ألن يقضي أحدهما على الآخر ذات يومٍ؟! إنّ العقارب لا تعرف الحبّ.



(عندما يَحْتَلِّ الميزان)

٢٧ مارس ١٩٨٦م، السّاعة السابعة مساءً..

مكث اللواء «علي أبوسيف» بمكتبه عَقِب انصراف المقدّم «غانم السنهوري»، يسترجع أحداثَ ليلة فارقة في حياته المهنية.. فقد ذكّره أسلوب «غانم» المتلوي بسمير المجري، وما فعله قبل خمسة وعشرين عامًا.. فيها هو يتذكّر أحداث تلك اللَّيلة التي لم ينسها يومًا؛ عندما وقف العسكري «عويضة مورييس» يرتجف أمام الرّائد «سمير المجري» معاون مخفر الورّاق، بينما راح «المجري» يلكمه، ويصفعه في قسوة جنونية إلى أن سالت الدّماء من فم العسكري البائس، على إثرِ حدوث كسرٍ بفكّه السفلي، وسقوط ثلاثِ أسنانٍ من فكه العلوي..

استشاط «المجري» آنذاك هادرًا:

- ألم أقل لك أحضر لي «سنا جوده» فور فراغ بطنها من حملها؟!

هزّ «عويضة» رأسه، وهو يتلقّى ضربات «المجري» مؤكّدًا ما سمع.

دفع «المجري» عويضة نحو الحائط الكائن خلفه، فشجّ رأسُ العسكري، وطرّحه أرضًا، ثم أخذ يصرخ به كالمجنون:

- إنّ بعضَ عيوني التي زرعتها هنا وهناك؛ قد جاءتني بخبرٍ يقيني يؤكّد

بأن «سنا» قد وضعتُ بيوم الحادي والعشرين من الشهر الجاري!

كثيراً ما نرى الخطأ، والممنوع يقع أمام أعيننا، ولكننا نبتلع ألسنتنا، ونغض الطرف عنه حتى لا نتعرض للمساءلة القانونية أو العقاب التربوي بحجة؛ «أن من تدخل فيما لا يعنيه نال ما لا يرضيه!..»

لذلك كان الرائد «علي أبوسيف» يجلس بغرفة مكتبه بالمخفر ليلتذّ يتميّز غضباً؛ لأنه شعر بالعجز إزاء صدادى «المجري» لإنسان بمثل هاك الموقف العصيب!

استأذن العسكري «مختار» للقاء الرائد «أبي سيف»، وهو يقول في سرعة، بأنفاس متلاحقة:

- «علي» باشا، أرجوك أنقذ «عويضة»!

اقتضب جبين «علي أبوسيف»، وسأل متعجباً:

- وماذا حدث لعويضة يا «مختار»؟!

بخوف شديد، قال «مختار»:

- «سمير باشا المجري» سيقتله!

قفز «علي أبوسيف» من مقعده، وتوجّه صوب مكتب «المجري»، ثم ضرب الباب بقدمه بقوة، ففتّح، فإذ بالمجري يواصل ركلاته السريعة إلى جسد «عويضة»، المسجى أرضاً، ذي الوجه المخصّب بالدماء!!

لم يلبث «أبوسيف» أن دفع «المجري» بعيداً عن «عويضة»، الذي أوشك على الموت، وهو يهدر غاضباً:

- كفاك افتراءً على خلق الله يا «مجري».

وإذ بالمجري يتوعد «أبا سيف» قائلاً:

- وحقّ اسم «المجري» سوف أعمل بكلّ جهدي لفصلك من الخدمة يا «أباسيف»!!

ظلّ كلّ منهما يدفع الآخر، حتى استطاع «أبوسيف» أن يُلقي بالمجري ممدداً فوق مكتبه!!

ثم ارتفع صوت «أبي سيف» يستدعي العسكري «مختار» الذي كان يقف على مقربة من باب المكتب، متفضّ القلب، بارد الأطراف:

- «مختار»، يا «مختار»..

- تمام «يا فندم». (أجابه «مختار» مرتجفاً)

فقال «علي أبوسيف» بغضبٍ وحزم:

- هيا احمل «عويضة» إلى مكتبي، واستدع في الحال أي طبيب من تحت الأرض.

لم يُفوّت «المجري» موقفَ «أبي سيف» منه بهذه الليلة، واعتبر ما كان منه إهانة لا تُغتفر.. لذلك اعتزم ألا يسعها المخفر معاً بعد هذه الليلة، واستعان «المجري» بصهره «وحيد الأشقر» للإطاحة بعلي أبي سيف من الخدمة بأي ثمن!!

كما حاول الرائد «علي أبو سيف» إيضاح تفاصيل ما حدث، وما اقترفه «المجري» في جبروت، وافتراء سافر في حق المجند «عويضة مورييس»، الذي قضى سنوات عديدة في خدمته بالمخفر، وخارجه! ولكن «مأمور القسم» لم يقتنع بدوافع «أبي سيف» مؤكداً على تجاوزه حدوده، وأن «المجري» قد تكون له دوافعه فيما فعل، ثم ختم المأمور وصلة توبيخه للرائد «علي أبي سيف»، وتحذيره تحذيراً مُغلظاً بقوله:

- هذه هي المرة الأخيرة التي سأذكرُكَ بآلاً تخاطر بمستقبلك، وتُلقي بنفسك نحو مصير مُظلم، يا «علي» أنت ضابطٌ كُفء، ولكن يبدو أنّ مشكلتك مع «المجري» لن تنتهي على خير، اتركه وشأنه يا «علي»، وركّز على عملك أنت فقط.

لم يُتَح له مأمور القسم مجالاً للدفاع عن نفسه، وتابع توبيخه:

- لقد بذلتُ قصارى جهدي حتى لا تصل شكوى «المجري» منك إلى مكتب سيادة وزير الداخلية. ولكن اعلم أنّ ترقيتك سوف تتأخر بسبب ما فعلت الليلة، ويكفي أنّك ستشاهد بنفسك «المجري» وهو يحصل على الترقية قبلك بأعوام!!



(ذئبٌ، وفريسة متمرّدة)

الليلة الثانية، ٢٨ مارس ١٩٨٦..

حمل مختار «عويضة» إلى حيث مكتب الرائد «علي أبو سيف»، ثم انطلق إلى مشفى الوراق المركزي لإحضار طبيب على وجه السرعة، وعاد بعد قليل، وبصحبته أخصائي جراحة عامة، وقد قام الطبيب بما يلزم لوقف نزيف «عويضة»، بأن أخاط شج رأسه، ونصح الطبيب بضرورة عرض المجند المصاب على طبيب أسنان، ليفحص فكّيه، ويطبّبه حسب ما تحتاج حالته!

مكث «عويضة» بمنأى عن أيدي «المجري» طيلة ليلتين متتاليتين، بأمر من الرائد «علي أبو سيف»، الذي لم يستطع التخلّي عن إنسانيته، رغم كلّ ما لاقاه من المجري، وما قد يلاقيه من رؤسائه إذا علموا بما فعله من اعتناء بذلك العسكري المسكين، ولم يستطع «أبو سيف» أن يحضر لعويضة طبيب أسنان إلى قسم الشرطة حيث يرقد بحال سيئ؛ فطبيب الأسنان لا يستطيع علاج حالة مثل حالة «عويضة» إلا بعيادته الخاصة، أو بالمشفى، وقد حال «المجري» دون خروج «عويضة»، وعرضه على طبيب أسنان متخصص!!

وقد عبّ «المجري» على ما أخبره به العسكري «مختار» عن حالة «عويضة»، وضرورة علاجه سريعاً قبل أن تسوء حالته؛ فقال في سخرية، وهو يقهقه كثيراً:

- طبيب أسنان! لمن! لعويضة العسكري؟ هل سيّدك الرائد «علي أبو سيف» يريد أن يُحوّل المخفر إلى مشفى خاص من أجل «عويضة» باشا؟!

ثم تغير وجهه، وراح يهدر:

- اذهب، وأرسل لي العسكري «عويضة» في الحال!

كان وجه «عويضة» متورماً، ولا يقوى على التحدث، ورغم «المسكنات» التي أعطاهها له الدكتور «وديع مكرم» إلا أنه ظل يصارع آلاماً مُضنية.

طأطأ «علي أبو سيف» رأسه في عجز قاتل، يعتصره الحزن لما يراه من بطش «المجري» دون أن يستطيع ردعه.

بمكتب «المجري»، جلس «المجري» المتغرس جلسته البغيضة، بأن وضع ساقاً فوق أخرى، وحذاءه فوق مكتبه في وجه مُحَدِّثه، وراح يكيل لعويضة شتى صنوف السخرية من وجهه المتورم، وكلامه الخارج من فيه بعناء شديد، ثم أمره أمراً مباشراً بإحضار المدعوة «سناء جودة» أمامه في الحال، غير أنه بحالته الصحية المتردية، فيما حاول «عويضة» بعينين دامعتين، ولسانٍ يصارع الأحرف؛ أن يُثني «المجري» عن تلك الرغبة الخبيثة، متوسلاً إليه أيما توسُّلٍ..

ولكن لا حياة لمن ينادي!

كانت حال «عويضة» سيئة إلى حد أنه لم يكن ليتحمَّل صفعه أخرى من المجري، ولما يئس من «المجري» مضى صوب شقة «رشاد القباني» لاستدعاء زوجته للمثول بالقسم، وهو يتمنى لو مات بين يدي «المجري» قبل أن يفعل، خاصة وأنه يدرك ما يريده «المجري» من «سناء»!!

بعد أقل من نصف ساعة، كان «عويضة» يقف أمام شقة «رشاد القباني»، متعرق الجسد، محمومًا، يسأل «أميرة» أخت «رشاد» عنها بصوت خافت، وبالكاد تمكنت «أميرة» من فهم مُرادِه، فأخبرته بأن «سناء» زوجة أخيها بالكُشك. توجه إلى كُشك «الشريف» ليجد «سناء» منهمكةً بترتيب بعض البضائع فوق الرفوف، فيما تحمل «بسيسة» الطفلة الوليدة، ويلهو الطفل «شريف» ذو الأعوام الثلاث أمامها، ويدور حول مقعدها بجوار الكُشك.

ما أن رأَتْ «سناء» العسكري بوجهه المتورم، وعينه الدامعتين؛ إلا وتذكرت تهديد «سمير المجري» لها.. بينما اعتقدت «بسيسة» أن المجند «عويضة» مجرد زبون قد أتى لشراء شيء من الكُشك.. فلم يُمكنها نظرُها الضعيف من رؤية وجهه، والتعرف عليه بعد!!

وإذ بسناء ترى وجه السماء وقد تلبّد بالغيوم على حين غرة، واندرت أضواء المصابيح من حولها.. همست في نفسها مرتعبة:

- ما كل هذا الظلام المبالغت؟! أعوذ بالله.. ترى ماذا يُحیی لي هذا «المجري» اللعين؟!

رسمت ابتسامةً مصطنعة على وجهها، واقتربت من حماها «بسيسة»، وهي تقول:

- أمي، أغلقي الكُشك، وعودي إلى المنزل، حتى أرجع..

فزعت «بسيسة»، التي نهضت من مقعدها، مقتربةً من «عويضة»، فأدركت أنه أمرٌ جلل، لذا راحت تسأل سناء في هلع:

- ماذا يا ابنتي؟! هل أرسل معاون القسم في طلبك مرةً ثانية؟ ماذا يريد هذا الرجل الوضع منك؟!

ربت «سنا» بقلبٍ واجف على كتفِ حماها، وهي تنادي بعض المارة:

- لو سمحتم يا إخوة، ساعدوا حماي في إدخال البضائع إلى داخل الكُشك، وأغلقوه معها، بُورك لكم.

في فرعٍ ملحوظ، قالت «بسيمة»:

- سآتي معك يا «سنا»!

«سنا» وهي تسير إلى جوار «عويضة»، منعتها بقولها:

- أبنائي و«رشاد» بأمانتك يا أمي حتى أعود، اطمئني فهي ساعة على الأكثر، وأكون بالبيت، لا تخافي يا أمي..

من بين هؤلاء المارة الذين هموا بمساعدة «بسيمة» في جمع البضائع، وإغلاق الكُشك كان رجلاً ثلاثينياً قويّ البنية، مفتول العضلات، فارع القامة، قد تولّى تلقّف الصناديق «الكراتين» منهم، وإدخالها إلى داخل الكُشك، وقد شكر الجميع، فانفضّ الناس من حوله بعد إدخال كافة البضائع، وهم يحسبونه أحد أصحاب الكُشك، وقد تولّى هذا الرجل «مفتول العضلات» إغلاق الكُشك بنفسه، وكان هو الآخر المارة، الذين قد رأتهم «بسيمة» بذلك اليوم. لقد دسّ الرجل الغريب مفتول العضلات شيئاً بأحد صناديق الكشك قبل إغلاقه، دون أن يلحظه أحد!



لم يفسر «عويضة» لسناء شيئاً ممّا حدث له من «المجري»؛ فقد كان وجهه وفكه السفلي الذي أخذ بالاعوجاج قبل ليلتين مضتا؛ كلّها علامات تبوح بها لاقاه هذا العسكري البائس لرفضه استدعائها مرةً أخرى للمجري، بعد أن تيقن من نيّة «المجري» نحوها؛ فلم تسأله، ولكنّها استسلمت للمضي معه اتقاءً لشرّ المجري اللعين، آملةً أن يمرّ الاستدعاء بسلام، وتلحق بحماتها، وطفليها بالبيت.

كان «عويضة» يسير في وهن، والحمى تزحف كالحية الرقطاء من رأسه حتى أخص قدمه، ترتج، ثم سقطَ بينما كانا بطريقهما إلى المخفر، فحمله المارة بالشارع قرب قسم الشرطة إلى داخل المخفر بعد أن هتفت «سناء» فيهم؛ تستحثهم على حمله، وسرعة إنقاذه!

فزع «مختار» عندما رأى «عويضة» محمولاً هكذا فوق الأكتاف، ولطم وجهه صارخاً:

— «عويضة» مات؟! —

ثم راح يبكي، ويقول دون أن يحترز لأذان المجري المنتشرة هنا وهناك:

— «الله ينتقم منك يا مجري»!

فوق أريكة خشبية قديمة برُدْهة القسم، تمدّد جسد «عويضة»، وتحسّس أحد المواطنين وجهه، فقال هلعاً:

— إنه فاااثر، حرارته عالية!

خرج كل من «المجري» و«علي أبوسيف» من مكتييهما على إثر تلك الجلبة، والتقت أعينهما، وسرعان ما صرف «المجري» عينه يوارى خوفه الذي ملأه تمامًا، ثم تظاهر بالثبات والقوة كعادته، وأخذ يصيح في الناس حتى يذهبوا، ويتركوه..

انفض الناس، كل إلى حال سبيله، ثم أخذ «المجري» يصفع «عويضة»، يريد أن يستفيق.. بينما يقف الرائد «علي أبوسيف» عاجزاً، مكتوف الأيدي، فقد جاءت أوامر مباشرة من مأمور القسم بعدم الاقتراب من «عويضة»، أو طلبه بمكتبه مرة أخرى، حيث أن «عويضة» هو المجدد المنوط بمكتب «سمير المجري» فقط، وبُناءً عليه فإنه يتحتم على الرائد «أبي سيف» ألا يحاول الحديث مع هذا المجدد تحديداً، حتى لا يثير حفيظة «المجري».

وتدريجياً، تمّ تحجيم مهام الرائد «علي أبوسيف»، وحصره بمهام إدارية محدّدة بالقسم!!

شهق «عويضة»، وحاول استجلاء المحيط حوله، وبالكاد نظر بعينين نصف مفتوحتين، فكان آخر ما طالعت عيناه هو وجه «مختار» يبكي بصوت مكتوم، ووجه امرأة بريعان الشباب تبكيه كذلك رغم كل ما ينتظرها من ابتلاء عظيم على يدي «المجري»!!

لم تفكر «سناء» بالهرب، فمن استدعاها الليلة سوف يستدعيها غداً، أو بعد غدٍ، ولن يكف عن اختلاق المكائد!!

نظر «المجري» إلى «مختار»، وقال امرأ، وهو يعطيه بعض المال:

— أعد «عويضة» إلى قريته الآن.

كلّ من «عويضة موريس»، و«مختار عبدون» من القرية نفسها بأغوار الجنوب..

التفت «مختار» ينظر نحو الرائد «علي أبوسيف»، فأوماً له «أبوسيف» يحثّه على تنفيذ أمر «المجري».. رغم أنّ براكين الغضب كانت ماتزال تستعرُ داخل «أبي سيف»، ولكنّه مجبرٌ على الصمت، ولكنّه انتحى إلى زاوية بعيدة يتّصل بأحدهم، فكانت تلك المحادثة الهاتفية:

- سيادة المأمور، بعد إذن سيادتك، أريد أن أعلمك بأمر هام..
أجابه المأمور في جدية:

- معك يا «علي»، تكلم..

شرح «علي أبوسيف» ما يجري بالقسم قائلاً:

- العسكري «عويضة» يا فندم..

- ماذا به ثانية؟! ألم تنسَ أمره يا سيادة الرائد؟! ألم أمركَ بعدم التّدخل بشأنه، وشأن المجري أمس؟!

عاود «علي أبوسيف» الحديث، قائلاً:

- إنّ حالة «عويضة» سيئة جدًّا يا سيادة المأمور، وربّما يموت أثناء سفره الليلة!

صاح مأمور القسم:

- ومن سمح له بالسفر يا «علي»؟!

- الرائد «سمير المجري» يافندم هو الذي أمر العسكري «مختار» بمصاحبة «عويضة» لإعادته الليلة إلى قريته بالجنوب يا سيدي!

بغضب عاصف، قال مأمور القسم:

- إذاً، فلينفذ «مختار» أمر «المجري» في الحال!

قاطعته الرائد «علي أبو سيف» قائلاً:

- ولكن حالة المجدد «عويضة» لا تسمح بسفره، و.....

هدر مأمور القسم بأعلى صوته:

- لا تتدخل يا «علي» واترك «المجري» يفعل ما يريد. أخرج نفسك من الأمر برؤمته يا «علي»، وهذا هو الإنذار الأخير لك!

ثم أغلق مأمور القسم الهاتف.

بعد أن استجاب العسكري «مختار عبدون» لأمر «المجري»، وذهب وهو يحمل جثمان «عويضة» متوجّهاً به إلى قريته البعيدة بقلب الصعيد الجوّاني، جالّ الرائد «سمير المجري» بعينين زائغتين حوله، فإذا به يلمح تلك الشابة المليحة «سناء»، فالتمعت مقلته شراً، فقد سنحت له الفرصة الآن مذلة حتى ينفرد بضحيتها الجميلة!

ما إن رآها المجري، إلّا وأشار لها بأصبعه «أن تعالي»، ثم دخل غرفة مكتبه، وهي تتبعه، ثم أغلق الباب دونها!!

فهل تُراه الذئب سيظفر أخيراً بفريسته، أم ستفرّ الضحية من بين براثنه بالوقت المناسب؟!



(من خلف زجاج غائم)

ما زالت الصدمة تعقد لسان "لوي"، وما زال يعيش كابوساً مقيتاً، يودّ لو استفاق منه، ولكن من أين له بمنّ يذيب جمود أوصاله؟! لا يسعه إلا أن ينصت لتلك المرأة الغامضة التي لا يعرف هل يدعوها بكلمة «أمي» أم «مدام آسيا» أم بـ «السيدة مُهجة»!!

من هي، ومن هو، وماذا يجري؟! لا يعلم شيئاً!

كانت تعرف ما يدورُ برأسه، فقالت بهدوءٍ، وهي تتحسّس جيبها الذي تفصّد عرقاً، رغم المكيّف الذي يلطف جوّ السيارة حولها:

— أصغ إليّ، فلم يعدّ هناك متّسع من الوقت، وقد لا نلتقي بعد الآن!!
انتفض جسده، وعاجلها بسؤاله:

— لماذا قد لا نلتقي؟! أين ستذهبين؟ وأين سأذهب أنا؟!

أجابته بهدوءٍ شديد، وهي تغالب وجعاً هاجمها بضراوة:

— أنت من ستقرّر الآن أين ستذهب!

قبل أن يتفوّه بسؤال آخر، أشارت له، «أن اصمت»، فسكت، والحيرة تلهب مقلتيه، فتلتمع في ترقّب..

ثم واصلت «آسيا»، تقول:

— أظنّ أنك قد عرفت قدرك جيداً من دوني، فأنت بدوني لا شيء، لا مال، ولا جاه، ولا عمل، ولا حتى يمكنك أن تثبت هويّتك، التي صنعتها لك!!

طأطأ رأسه في انكسار، فقالت:

- لا أقصد إذلالك، وإنما أضع صورتك الحقيقية بدوني نصب عينيك..

رفع رأسه ببطء، ثم التفت نحوها وهي تقول:

- لك الآن أن تقرّر أن تبقى «لؤي نُعمان الرَّاجح» ابن سيدة المجتمع الشهيرة «آسيا حسيب الميهي»، أو أن ترجع إلى أهلك، وتخبرهم بأنك «شريف رشاد القَبَّاني»، ولتعلم أنهم قد لا يصدقونك، وقد يكذبونك ويطردونك، وعندها لن تجدي، ولن تستطيع الوصول إلى عالمي مرة أخرى مهّما فعلت، وحتى لو استطعت لقائي - بموافقتي طبعاً - وقتها سأنكرك ولن أعترف بك، ولو ركعت أمامي متوسلاً، تبكي بدلاً من الدموع دماً؛ فالقرار لك الآن.. لو اخترت «شريف القَبَّاني» فلا بد أن تهبط من السيارة في الحال، ولن تراني بعد اليوم، أمّا لو اخترت عالم «لؤي الراجح» فلا بد من قبولك بشرطي أولاً..

- أي شرط؟! (انطلق سؤاله هذا في سرعة خاطفة)

فقالت بمكر، رغم ما يعترها من آلام:

- لتختَرِ أولاً مَنْ تريد أن تكون!

تلاحقت أنفاسه كمن يعدو بهاراثون دولي، واضطرب قلبه، ولكنه لم يتمهل، وأسرع يقول:

- أنا «لؤي الراجح»، ولا أعرف سوى «لؤي الراجح»، ولا أريد أن

أكون سواه..

- فكَرَّ قليلاً، فما ستقرّره الآن هو ما ستظلّ عليه بقية حياتك، وقد
تساورك الرغبة في لقاء أهلك الحقيقيين! (قالتها في دهاء)

فقال بإصرارٍ أكبر، وبلهجة مندفعة:

- لا أريدهم، لا أريد سوى أن أبقى «لؤي نعمان الراجح»، أعيديني إلى
عالمي.

- ألا تريد أن تعرف شرطي أولاً؟! (سألت بكبرياء)

فقال بشفتين مرتعشتين:

- أيّا كان هو شرطك فسأقبل به، المهمّ ألا أفارق عالمك!

فقالت في وهنٍ، وهي تحذّره بإشارة سبّابتها اليسرى:

- ليس لك أن تنكصَ على عقبيك، ولا أن تتراجع عن قرارك،
وإلا.....

قاطعها متعجباً:

- سأقبل بشرطك ولو كان فيه موتي، المهمّ أن أبقى ابنك «لؤي الراجح»
وحسب..

فقالت في نبرة الظافر بمبتغاه:

- إذاً، هيا انطلق بنا إلى الفيلا، وبالطريق سأخبرك بقصة عثوري عليك،
ومن ثمّ بـ شرطي الأوحده!!

قاد «لؤي» السيّارة، بينما كانت «آسيا» تُغالب وجعاً تملك منها أيّما تملك، ورغم ذلك راحت تقصّ عليه حكاية لقاءهما الأوّل قبل سنوات، فقالت:

— (كنت أمرّ، ورجالي بالجوار، أمام مدرسة خاصّة للتعليم الأساسي، وشعرت بالظّمأ، وطلبتُ إلى سائقي السابق أن يتوقّف أمام الكُشك المقابل للمدرسة - وهو «كُشك الشريف»، الذي كان لأبيك - وطلبت منه أن يجلب لي زجاجة مياه، فترجّل بينما أراقب الشارع من خلف زجاج سيارتي الغائم، وإذ بي أراك، وأنت ابن ثلاث سنوات تقريباً، تلهو، وتدور حول مقعد سيّدةٍ بعقدِها الخامس تقريباً، بينما تقف امرأة شابةٌ تباع للمشتريين ما يطلبون منها، كانت هذه الشابة هي أمّك، والمرأة التي تلهو حولها هي جدّتك لأبيك، لا أعلم لماذا خفق قلبي لمراك؟ ولا أدري لماذا عدتُ عدّة مرّاتٍ إلى المكان ذاته حتى أراك مجدّداً!!

لقد وجدتُ نفسي أتوقُّ لإلقاء النّظرات العابرة نحوك من خلف زجاج السيارة المُعتم، وهكذا حتى وجدتني أطلبُ من واحد من أخلص رجالي أن يحضرك إليّ في غفلةٍ من جدّتك، وقد واتتنا الفرصة فوق طبقٍ من ذهب، عندما حملتُ جدّتك أختك الرّضيعة بين يديها، وأمسكتُ بيدك، وسرتَ إلى جوارها حتى المشفى لتحصلا أنت وأختك على جرعة التطعيم ضدّ شلل الأطفال، وقد واتتنا الفرصة - بهاك اليوم - حيث كان الازدحام شديداً أمام حجرة التطعيم، ووسط تلك الجلبة، انسلّ مبعوثي بين الجميع، واستطاع أن يفلتَ يدك من بين أصابع جدّتك التي شُغلت بإسكاتِ أختك الرّضيعة يومذاك!..

لم يُعقب الشابُّ على ما اعترفتْ به «آسيا» من جريمة خطفه، ولم يكن يعنيه سوى ذلك الجاه الذي انتزع منه، ولم يكن «لؤي» يفكر سوى بسيارته التي ستعود إليه، وحوض السباحة الذي سيمتلئ ثانيةً من أجله، وهاتفه، ورحلاته، وملابسه الفاخرة، وعطوره الثمينة، ومتعلقاته التي أدرك الآن قيمتها الكبرى!

لم يسألها عن أمّه، أو أبيه، أو جدّته، أو حتى عن أختها التي فارقتها، وهي رضيعة لا تعي عنه شيئاً! لم يكثرث، ويسألها عن حال أمّه حين علمتْ بخبر فقدانه من جدته بالمشفى، فسألته «آسيا» تريد بسؤالها هذا أن تُطمئن نفسها أنّها لن تفقده، ولن يلعنها، أو يكرهها يوماً لا خطافه من أحضان ذويه:

- أما غضبتَ مِنّي لا خطافك صغيراً هكذا؟!

أدار وجهه إليها، وابتسم ابتسامة عريضة، وهو يمدّ يديه ملتقطاً كفّيها، ويلثمهما بقبلاته المتتابعة، قائلاً:

- أغضب منك!! بل أنا أعجز عن شكركِ لما فعلت!!

حملتْ به فور ما سمعت، فقد قال ما لم تتوقّع منه أبداً، ولكنها اطمأنت تماماً إلى أنه قد أسلمها نفسه إلى أبعد الحدود، ولا سبيل له بالنزوح عن حياتها مهما حدث..

استرسل في شكرها، قائلاً:

- لقد استنقذتني من الفقر والحاجة، وأهديتني الثراء والجاه، والنفوذ، فكيف لي أن ألومك يا أمّي؟!

لقد استتبّ لآسيا أمر السّيطرة التامة الآن على الشاب، وضمنت ولاءه لها، وقد بات على استعداد تام للقيام بأي شيء يُرضيها حتى لا تُخرجه من عالمها البرّاق، التقطت هاتفها من داخل حقيبة يدها الأنيقة، واتّصلت بأحدهم، وقالت:

- فليعدّ كلّ شيء كما كان، إنّي قادمة ومعّي «لؤي» بيه، ولتعدّ أشهى الطعام الذي يحبّه على الفور.

أدرك «لؤي» على الفور أنّها كانت تتّصل بخادمها، ومستودع أسرارها «عرفان»!

أنهت المكالمة، بينما تجري الابتسامة الرّائقة في وجه الشاب، الذي تنفّس الصعداء عندما وصل إلى الثيّلا، فوجد حمام السّباحة، وقد امتلأ بالماء النقي، وعندما دلف إلى بهوها وجد ما لذّ وطاب بانتظاره فوق مائدة الطعام.

اغتسل «لؤي» سريعاً، وانهمك في تناول الطعام كما لو كان لم يذق طعاماً أو شرباً منذ دهر، بينما تراقبه كلّ من «آسيا» الجالسة قبالتها، و«عرفان» الذي يقف بقربه بجوار المائدة يترقّب أوامره، فيما تلتقي عينا «عرفان» وسيدته في رضاء واطمئنان، وتفاهم فريد للغاية!

أتمّمه الطّعام الذي تناوله، ثمّ صعد إلى غرفة نومّه، فوجد بها كلّ ما فُقد منها، فقد اكتظّت خزانة ملابسه بما كانت تحوي من قبل، وزيادة..

وتراصّت فوق طاولة زينتّه؛ عبوات الكريبات، وزجاجات العطور الثمينة، التي جلبها من كافة أنحاء العالم! تأمل كلّ شيء حوله بعيني طفل تسعده ألعابه، وملابس العيد، وحلواه المفضلة..

تذكّر - لوهلة - ذلك الكُشك المغلق، وذلك الشّمع الأحمر العالق بقفله، وحديث «آسيا» عن أمّه، وجدّته، وأختها الرّضيعة، فهزّ رأسه لطرده صورة الفقر، والمستوى المعيشي الذي كان سيشبّ بكنفه إذا لم تتلقّفه يدا «آسيا الميهي»، قبل أن يعاني معاناة شابّ نشأ بأسرة، بالكاد تجد قوتَ يومها!! رفضَ مجرّد تذكّر ما يتعلق بهم من حكايتها عن أصله، ومسقط رأسه، تلك الحكاية التي قصّتها عليه قبل قليل.. لا يريد عالم أسرة «القبّاني».. لا يريد إلّا أن يكون «الملياردير المستقبلي المدلّل» الذي سيرث ثروة «آسيا الميهي» ذات يوم، لا يريد أن يرى أهله الحقيقيّين مجرّد رؤية عابرة!

نفّضَ تلك الصّور عن رأسه، وأشاح بوجهه ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام رأس الأسد، الذي أهدته إيّاه «آسيا الميهي» بعيد ميلاده الخامس عشر، وحلق بعينيه اللامعتين، وهو يشعر بأنّ شرط «آسيا»، ومكمن سرّها قد يقبع بذلك الرأس المرعب!! لقد أرجأت «آسيا» الحديث معه حتى غدٍ، ريثما يحصل على كفايته من النوم، والاستجمام بعد تلك الأيام العصيبة التي عاشها بمفرده فاقداً لكلّ شيء كان بحوزته.



(وكانت ليلتها الموعودة)

٢٩ أبريل ٢٠١١م، مشفى الوراق المركزي..

خرجتُ «منّة» من مكتب الدكتور «وديع مكرم» مدير المشفى، ومسحةً من الحزن تعلو قسماها، فهي لم تعهد الدكتور «وديع» إلاّ أباً حانياً، يناقشها بهدوء، ويدعمها برحة خالصة.. فما له اليوم يغضبُ منها هكذا لمجرد سؤالها عن حالة اختفتُ من المشفى بصورة غامضة؟! وما له يُغلق باب النقاش هكذا دون تحرّ عن مصير المريض «خليل العجايبى»؟!!

ليست تلك طبيعة الدكتور «وديع»، فما الذي طرأ عليه، وجعل ردّ فعله نحوها بذلك القدر من الغضب، والهجوم؟!!

منكسة الرأس، تسير شاردة ببطء، وفيما تتجاز الرّدهة الممتدة أمام عنابر المرضى، إذ بأحدهم يتوقّف أمامها مباشرةً، ويقول مبتسماً:

- أما من تهنئة؟!!

انتبهتُ لصوته، ورفعت رأسها لتجده يبتسم، ويقول:

- ماذا بك يا «منّة»؟ إلى ذلك الحدّ أنت شاردة؟!!

تلعثمتُ الفتاة، وبوجهٍ ممتقع، ابتسمت ابتسامة شاحبة، وهي تقول:

- دكتور «مروان»!! أها، آسفة.

فقال متفهمًا:

- عذرِك معكِ يا رئيسة المرضات، كان الله في العون.

استدركت قائلة:

- مُبارك يا دكتور، ولكن علام؟!

قال الطبيب ذو الخمسة والأربعين عامًا منشرحًا:

- لقد تمَّ تعييني وكيلًا للمشفى، ونائبًا للدكتور «وديع».

اتسعت ابتسامتها، وراحت تقول بسعادة:

- مبارك يا دكتور «مروان»، تستحقُّها عن جدارة حقًّا.

- أشكرك جدًّا يا «منَّة».

لن تجدَ ما تضيفه، فمضت تواصل اجتياز الرّدهة، ولكنه استوقفها بقوله:

- من فضلك يا «منَّة»، هلا مررتِ باستراحة الأطباء بعد انتهاء مناوبتك

اليوم قليلًا؟!

في جديةٍ سألته:

- لماذا يدكتور؟!

- لا شيء سوى أمر هامٍّ أريد أن أعرضه عليك، أريد خمسَ دقائق من

وقتِك وحسب. (قالها بارتباكٍ باد)..

أو مأث «منَّة» موافقة، ثمَّ ذهبَتْ.

لم يكن الدكتور «وديع» ينهرها بكلمةٍ ما إلا ليدفعها لتصبح أفضل، أو لينبّهها إلى شيء قد يضرّها أو يؤذيها؛ فهو الذي رسم لها مسارها التعليمي، ثمّ الوظيفي دون أن تعرف بأنّه هو ذلك الجندي المجهول، الذي كان يتابع خطواتها منذ نعومة أظافرّها، وحتى اليوم.. يعتبر الدكتور «مكرم» «منّة» بمثابة ابنته رغم أنّه لم يتزوَّج، ولم يكن له أبناء، فقد تزوّج العملَ والمشفى، ولم يرغب بالزّواج بعد أن فقدَ خطيبته الأثيرة «إيفا» التي فارقت الحياة في حادثٍ سير قبل يوم زفافهما بثماني ليالٍ فقط.. استرخى الدكتور «وديع مكرم»، رئيس المشفى، بمقعده خلف مكتبه القديم بالمشفى شاردًا قليلًا فيما حدث اليوم، خاصّةً بعد أن حدّث «منّة» في حدّة، وقد باغتته ذكرى موجهة كم حاول جاهدًا أن يطمس معالمها ويمحوها من ذاكرته، فهاتِه الذّكرى الموجهة تشعره بأنّه كم كان عاجزًا مستسلمًا، بعد أن استحوذ الخوف على نفسه بهذه اللّيلة الغابرة فأجبره على الصّمت!

مازال يذكر تاريخَ هذه اللّيلة جيّدًا، ففي ليلة السابع والعشرين من شهر مارس عام ١٩٨٦م، وقبل اليوم بخمس وعشرين سنةً تقريبًا، كان يمرّ بعنابر المرضى، وقد وافت السّاعة التاسعة مساءً، عندما أبلغته ممرضة من ممرضات المشفى بوجود مُجنّد من مخفر شرطة الورّاق، يريد طبيبًا للمشفى ليلتدّ، نزع الدكتور «وديع» على وجه السرعة، ولم يكن سواه طبيبًا بالمشفى ليلتدّ، نزع الدكتور «وديع» معطفه الطبي الأبيض بسرعةٍ خاطفة، والتقط حقيبته الطّبية، وهرب نحو مخفر شرطة الورّاق، بصحبة المجنّد.. حاول استجلاء الأمر من ذلك المُجنّد ذي اللكنة الصعيديّة الخالصة، ولكنه لم يعرف منه سوى أنّ الرّائد «سمير المجري» قد أرسله لجلب طبيبٍ لفحص سجنينة نزيلة بزناانة المخفر..

ركض الدكتور «وديع» بكل ما أوتي من سرعة حتى عبر الحُجْز، فإذا ببعض النساء تُحْطَن بِشَابَّةٍ ببداية العَقد الثالث من عمرها، ممددة فوق الأرض وسط الزنزانة، تسيل الدماء من رأسها ووجتها حيث يوجد جرحٌ قطعي يتجاوز الخمسة سنتيمترات بشقٍّ وجهها الأيمن، كما لاحظ وجود كدمات بارزة على جانبي فمها الدقيق، وكدمة متورمة واضحة على جانب جبينها، وأخرى قد اتخذت موضعها بجفن عيناها الأيمن، بالإضافة إلى آثار أسنان حادة على ساعدها الأيسر، كانت «عَضَّات» متقاربة شديدة الأثر، فقد حفرت تلك الأسنان ثقباً نازقة بذراع المرأة، مما جعله يتيقن سريعاً من أن تلك المرأة قد تعرّضت لضربٍ مُبرَّح من بعض نزيلات الحجز.

فتح عينيها المغمضتين، فإذا بمحجريها ثابتان لا يتحركان، فالتقط يدها، وأمسك برُسغها يتفقد نبضها، ونظره مُثَبَّتٌ على عقارب ساعة يده، فإذا به يجد النبض ضعيفاً، يخبو تدريجياً، وتتباعد النبضة، وتاليتها شيئاً فشيئاً!! هبَّ واقفاً، يهدر بالمُجَنَّد الذي امتقع وجهه:

- أين المسئولون هنا؟ إنَّ المرأة تحتضر!!

اضطرب «عاشور»، وأسرع إلى الرائد «علي أبو سيف»؛ فلم يجده بمكتبه، وقد علم بذهابه إلى بيته، وإذ بالمُجَنَّد المسكين يلتفت ليجد الرائد «سمير المجري» أمامه، فيتفحص جسده النحيل لمرآه، فأخبره متلعثماً بما قال الطبيب.. فما كان من «المجري» إلا أن أدار ظهره عائداً إلى مكتبه، وهو يقول في صلفٍ وأنفة:

- أرسل هذا الطبيب إلى مكنتي.

على وجه السرعة، استدعى المجند الطبيب، واستأذن لدخوله مكتب «المجري»، وأغلق باب المكتب دونها.. بلا مقدمات، قال الدكتور «وديع» في عُبالة:

- إنَّ المرأة بحاجةٍ لأنْ تُنقل بالحال إلى عناية مُركزة، فهي على مشارف الموت.

سحبَ «المجري» دخان سيجاره، ثم زفره بهدوء شديد، وهو يرمي الطبيب بنظراتٍ بليدة، ولم يُعقب..
هدرَ الدكتور «وديع» غاضبًا:

- أنا أتحدّث إلى سيادتك، إنَّ المرأة تحتضر، عليك أن تأمر بسرعة إسعافها، أو على الأقل لا بدّ أن تسمح لي بإسعافها بمشفى تتوافر به غرفة عناية إنعاشٍ فورًا.

نهضَ «المجري» من مقعده، وسار نحو الدكتور «وديع»، ثم أطبق يديه على طرفي ياقة بذلته، وهو يهدّده في هجوم مفاجئ:

- أنتَ لم ترَ ولم تسمع شيئًا، ولم تأتِ إلى هنا من الأصل، أمفهوّم ما قلتُ لك، أم لا؟!

زاغت عينا الطبيب، وقال بصوتٍ متهدّج:

- ماذا تقول؟!

في صوتٍ أجشّ يغلفه البرود، قال «المجري»:

- ما سمعته تمامًا..

ثم استطرد وهو يدفع بالطبيب إلى الحائط، ويلصقه به:

- إياك أن تفتح فمك بكلمة، وإلا سأجعلك تلقى مصيرها، بل أنقع مما لاقت!!

خرج الدكتور «وديع» من المخفر يحير أذبال الاستسلام مرغماً، ولم يدر ماذا يفعل، ولا ماذا حدث لتلك المرأة، ولكنه أشار للمجند الذي استدعاه قبل خروجه من المخفر، وسأله عن جريمة تلك المرأة، وعما حدث لها قبل وصوله للمخفر؛ فأخبره المجند في عجالة بأنها لم ترتكب أي جريمة تُعاقب عليها، وإنما استدعاها الرائد «سمير المجري» دون وجه حق للاعتداء عليها، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يستدعيها بها، فلما تمتعت عليه وواجهته بالصد؛ كال لها اللكمات والركل، ولم يكتف بذلك فقد أمر بعض السجينات من ذوات القضايا المنافية للأداب أن يضربنها ضرب تعذيب، وقد فعلن!! اغتم الدكتور «وديع» مما سمع، وسأل المجند عن اسمها، وعنوان سكنها، فأجابه «عاشور»:

- كل ما أعرفه عنها أن اسمها «سناء»، هكذا سمعت «المجري» يدعوها من بين سباب كثير، وقد رأيتها من قبل تقف بكشك بقالة مقابل مدرسة خاصة بالقرب من سوق الوراق.

عاد بعدها الدكتور «وديع»، ولم ينم ليلته حزناً على ما آل إليه حال تلك المسكينة، وكادت غصة حلقه المريرة تقضي عليه لشعوره بالعجز، وكتمان الشهادة بحق تلك البائسة، حتى لم يبق على بزوغ فجر يوم الثامن والعشرين من مارس سوى أقل من ساعة، وإذ بصوت جلبة كبيرة أمام المشفى!

هُرع الدكتور «وديع» ليستجلي الأمر؛ فإذ ببعض الأهالي يحملون جثة إلى داخل المشفى في هلع.. وضعوا الجثمان فوق أحد أسرة قسم الاستقبال لتَهوِّله الصدمة، وتفجعه المفاجأة!! لقد كانت الجثة لـ «سناء»، تلك المسكينة التي فحصها قبل ساعات بمخفر الشرطة.



العثور على جثة..

لقد تعرّثَ قداما الشيخ «شعبان» مؤذن وإمام الزاوية القرية بشيء أذى إلى انكفائه على وجهه، وسقوط عصاه التي يتوكأ عليها، ومن ثمّ إلى تلطّخ جلبابه بالطين، فأخذ يحاول النهوض مستغفراً، ثمّ نظر يميناً ويساراً حتى يرى ذلك الشيء الذي اعترض خطواته بذاك الوقت، فالظلام لم ينقشع بعد، ولم يكن بصره بالحلّة التي تسمح له برؤية معالم الطريق بوضوح..

ولكنّه كان قد اعتاد على الطريق حالّ ذهابه إلى المسجد، والعودة منه، مُدّ كان طفلاً.. لم ير شيئاً عن يمينه، ولا عن يساره!

التقط عصاه، ثمّ استدار مُعنعاً النّظر خلفه، فإذا بشخص مُسجّى بعرض الحارة الضيّقة التي تصل بين بيته والزاوية حيث يُصليّ بالنّاس الصّلوات الخمس كلّ يوم. تجمّدت أوصاله، ولكنّه دنا على مهل من ذلك الجسد الساكن، وقد راح حدسه يرمي إلى أنّ ذلك الجسد المُمدّد قد يكون لأحد السّكارى وقد غلبه النوم بعرض الطريق، فلا بدّ من إيقاظه، وإنّ ناله منه بعض الأذى والسباب.

ساوره بعض القلق، أو انتابته الحيرة من أمره؛ فإنّ أذان الفجر سيحين موعده بعد دقائق ثلاثٍ على الأكثر، فهل يمضي ليرفع النّداء، أم يرجع إلى الخلف ليوقظ ذلك النائم بطريق الناس؟!!

توقّف ثوانٍ، حتى سار قُدماً نحو الجسد الهاجع بالطريق بلا حراك.. جثا على ركبتيه، ومال قليلاً متأملاً وجه ذلك الشخص، فإذا به يشهق شهقةً كادت تشطر فؤاده شطرين!!

شقَّ عويلُ سيدة خمسينة أجواء المشفى، فيما كانت تحمل رضيعاً يلفه غطاء أخضر من الصوف بين يديها:

- الويل من الله «للمجري» المجرم الذي قتلَك يا «سنا»، ثم ألقى بك بالشارع يا حببتي.

ثم راحت السيدة تصرخ في هلع وذعر، وهي تحتضن الرضيع قائلة:

- مَنْ سيُرضع ابنتك «مَنَّة» الآن يا «سنا»؟! ماذا سأقول لها عندما تكبر وتسالني عن أمِّها؟!

لقد انتزعكِ «المجري» الظالم من ابنتكِ الوليدة، فيا رب انتقم منه شر انتقام.



لقد أسفر ضوءُ النهار عن فاجعتين أخرتين كانتا تتربّصان ببسيمة؛ فقد لحق «رشاد» بزوجته عقب سماعه خبر وفاتها بتلك الصورة الوحشية وهو مُسجى بفراشه، كما داهمت قوة من شرطة قسم الورّاق كُشك «رشاد القبّاني»، وتمّ إعداد محضر - سبق فتحه، وإعداده قبل ساعات - ينصّ على عثور قوة من الشرطة بقيادة الرائد «سمير المجري» على لفافتين من مُخدر «الحشيش» داخل كرتونة بكُشك البقالة المملوك لرشاد القبّاني، وقد تمّ القبض على زوجته التي تدير الكُشك، وتروّج للمخدرات من خلاله؛ حيث كان نشاطها في ظاهره بقالة، في حين أنّها كانت تتاجر بالمخدرات متسترةً بنشاط الكُشك الظاهري.. ولكنّ المُتهمة «سنا جودة» استطاعت الفرار من طاقم الشرطة، ثم انتحرت حتى لا تقع تحت طائلة القانون.

لقد ربّ «المجري» لكلّ شيء بما لا يدعُ مجالاً للشك، في تلبّس تلك المسكينة «سنا» بالتّهمة المنسوبة إليها، وهي التي لم تقترف جُرمًا في نظر «المجري» سوى التعفّف والتمنّع عن مجاراته في ما يخلّ بالأخلاق والأعراف التي تربت عليها.. لقد أتقنَ «المجري» - اللّعين - لعبته بإحكام، واحترز لنفسه كعاداته، فلم يستطع أحدٌ إثبات براءة الرّاحلة «سنا»، ولم يترك خلفه أيّ دليل إدانة قد يُدينه أو يلحق به ضررًا، وانتقم من «سنا» لعفّتها وطهارتها، ورفضها أن تصبح خليلته وعشيقته، كما ألصق بها تهمّة الإتيار بالمخدرات؛ فقد أرسل «المجري» أحد أذرع الشيطانية إلى داخل الكُشك، وقد كان رسوله المجرم، هو ذلك الرّجل قوي البنية، مفتول العضلات، الذي تطوّع يوم الحادثة بإدخال صناديق البضاعة إلى داخل الكُشك متظاهرًا بمساعدة «بسيمة» حتى تغلق الكُشك بعد استدعاء زوجة ابنها «سنا» لقسم الشرطة.. كلّ شيء تمّ ترتيبه بمكر فاق مكر الأبالسة، لقد فاز «المجري» بهذه الجولة، مُخلفًا - بفعلته الرخيصة - طفلة رضيعة لم تكمل شهرًا من عمرها؛ تتصوّر جوًّا، تحنّ إلى صدر أمّها؛ فلا تجده!

وكانت تلك ليلة «سنا» الموعودة، مع قدر قد نسجه شيطان مريد، لم يدرٍ للحظة بأنّ نهايته ستكون على يدي ابنته الوحيدة «علا»!



(وكانت ليلته لقاءً بلا فراق)

ليلة التاسع والعشرين من أبريل ٢٠١١م..

انسابت مدامع «خليل العجايبى»، وأخذت عيناه تغوران بمحجريهما الواسعين، فيما ينبعث شدو كوكب الشرق «أم كلثوم»، الراديو من خلال موجة المحطة الإذاعية، بأجل ما غنّت من القصائد الساحرة، فقد تذكّر «دميانة» زوجته؛ ضحكاتها، حكاياها، إقبالها نحوه باسمه، وحين وافتها المنية، وهي تغالب وجعها، باسمه، رائقة الوجه، وبينما يرجوها من بين دموعه المدرارة:

- ابقى معي، لا تغادري من دوني يا «دميانة» عمري.

وقد بدأ الغروب يُدثر الأفق، وبدا العنبر مُظلماً إلا من ضوء خافت، قادم من دورة مياه العنبر، وشدو كوكب الشرق ينساب بنفس العاشق المكلوم، فيوقظ بمخيلته ذكريات فائتة طمرتها الحوادث المتعاقبة...

هذه ليلتي، وحلم حياتي

بين ماضٍ من الزمان، وآتٍ..

وكانها يرى «دميانة» تُقبلُ صوبه دالفة عبر باب العنبر.. لكانها قد جاءت به بأهوى زينتها، وألقٍ طلعتها كعروس قد تهيأت، وتجمّلت بلبلة عرسها، فيما يغني «خليل» مع صوت أم كلثوم:

الهوى أنت كُله، والأمانى

فاملاً الكأس بالغرام، وهاتٍ..

تتهادى خطوات «دميانة»، كمن تقطع مسافةً تقدر بالأميال بينهما، فيما يردد زوجها المحب:

بعد حين، يُبدل الحب دارًا..

والعصافير تهجر الأوكارا..

تذكر بيته حين كان دافئًا بأنفاسها، وبصوتها الحاني، وهو يغني بصوتٍ متهدج، تخنقه العبرات:

وديارٌ كانت قديمًا؛ ديارا

سترانا كما نراها قفارا..

خفق فؤاده، فيما يدنو طيفُ الحبيبة الغائبة، فمدَّ ذراعه رغمَ خرطوم المحلول المثبت به، يريد مصافحتها، واحتضان كفه لكفها البعيد، وصوته يصاحب صوت أم كلثوم فيما تغني:

سوف تلهو بنا الحياة، وتسخر

فتعال، أُحبك الآن أكثر..

على حين غرة، قد اختفى من أمام ناظريه طيفُ زوجته المقبلة نحوه، عندما جاءت مُمرضةً بدينة، قصيرة القامة من ممرضات المشفى، تمسك بين أصابعها أمبول معبأً بسائل شفاف، سرعان ما حقت به بعبوة المحلول المعلقة أعلى الحامل المعدني القائم بجوار سرير العجوز الحالم، ثم خرجت مُسرعة، فيما لم يستبين «خليل العجايبى» ملامح وجهها، فقد كانت عيناه مغرورتين بدموع شوقه الجارف لزوجته الحبيبة «دميانة»..

غاب طيف «دميانة» هنيهة، وما أن خرجت الممرضة البدينة، حتى عاد يترأى
«لخليل» تارة أخرى بصورة أبهى من سالفتها، فيما يغمره شدة المدياع بسعادة لا
يعلم سرّها بعد، رغم تلك البرودة المعرّبة بشرايينه كالزّهرير العاصف:

والمساء الذي تهادى إلينا
ثم أصغى، والحبّ في مُقلّتيننا..
لسؤالٍ عن الهوى، وجواب
وحديثٍ يذوبُ في شفّتيننا..
فادنُ منّي، وخُذْ إليك حناني
ثمّ أغمضْ عينيكَ حتّى تراني..

أحسّ «لخليل العجايبي»، بوخز ينتشر بجميع جسده، إلى حدّ أعجزه عن
الصراخ، وطلب الاستغاثة!! تباطأت أنفاسه، وكأنّ الكون كلّهُ يجثم فوق
صدره، فأغمضَ عينيه مستسلماً، خائر القوى، فيما تقترب خطا محبوبته من
مرفقه، وهو يشدو بصوتٍ مبحوح خافت أيّما خفوت:

وليكنّ ليلنا طويلاً طويلاً

فكثيرُ اللقاء كان قليلاً

سوفَ تلهو بنا الحياة، وتسخر

فتعالِ أحبّك الآن أكثر..

وكانت ليلته الأخيرة، التي لعلّه انتظرها طويلاً، تلك الليلة التي التقى بها
بـ«دميانة» من بعد طول غياب..

لقاءً بلا فراق!!

(قواعدُ، كالأحاجي)

استفاق «لؤي» من نومه قرابةَ عصر اليوم التالي، ولكنه لم يبرح فراشه، بل مكث به بعضَ الوقت يتقلب، ويتململ ذات اليمين وذات اليسار، وهو لا يكاد يصدّق أنّه قد عاد إلى رفايته وفراشه المكسو بالأغطية الحريرية الناعمة، وقد عادتِ العطور الثمينة تملأ أنفه، وأطياب الأطعمة تُسكّت تمرّد بطنه..

وراح يهمس إلى نفسه:

- لا تتركْ عالمك هذا مهما كان الثمن يا «شريب.....»

ثمّ استدركَ ما كاد ينبُث به سهواً، فقال بصوتٍ عال:

- لا، لا، لا، أنا «لؤي»، ولا أحد سوى «لؤي»..

ثمّ راح يرّدّد هامساً:

- أنا «لؤي نعمان الراجح»، ولن أكون شخصاً آخر.. هذه هي الحقيقة،

التي لن أصدّق سواها!!

هذبَ شعره الأملس المنسدل فوق جبينه بيده، ثمّ نهض يقصد غرفة «آسيا».. هالهُ أن فوجئَ بخروج «لاشين الجيّار»، الطبيب الخاصّ المعالج للسيدة «آسيا» من غرفتها، يتبعه «عرفان» إلى الطابق الأسفل، هرول خلفهما، واستوقف الطبيب بسؤاله:

- ماذا هناك يا دكتور «لاشين»؟!

تنحى «عرفان» جانباً منكس الرأس، يتجلى العبوس على وجهه الممتلئ، وقد تنحج الطيب، ولم يُجبه، فانتاب الشاب بعض القلق، وراح يسأل استشاري الجهاز الهضمي الشهير بإلحاح:

- أرجوك يا دكتور، طمئني، ماذا بأمي؟!

التقت عينا الطيب الستيني الخبير بعيني «عرفان»، مدير الفيلا، الذي أوماً للطبيب برأسه إيماءة تعني؛ «فلتخبر الشاب بالحقيقة»، ثم انصرف «عرفان» لترك المجال للطبيب لكي يخبر الفتى بحالة السيدة «آسيا»، فقال الطبيب في هدوء:

- لم يبقَ أمامها وقتٌ كثير!

في هلعٍ صرخ الشاب:

- أستموت؟!

أطرق الطبيب قائلاً:

- الأعمارُ بيد الله وحده يا بُني، ولا يستطيع طبيبٌ أيّاً كانت خبرته أن يجزم بموعد رحيل إنسان، ولكنه قد اقترب، فكنْ إلى جوارها، وسأمرّ عليها من حينٍ لآخر..

متلهّفاً، عاود «لؤى» التساؤل:

- ممّ تعاني؟!

تنهّد «الجيار»، ثمّ قال ببطءٍ وهدوء:

- ورمّ خبيث بالكبد، ناتجٌ عن تليفٍ شديد؛ بسبب إدمانها للخمر.

ثمّ تابع الطبيب توضيحه:

- لكم حذرتها من خطورة احتساء الخمر، وكم شرحت لها أضرارها

البالغة، ولكنها كما تعلم عنيدة، ولا تأبه بمرضٍ، أو موت!!

هزّ «لؤي» رأسه مؤكّداً:

- نعم، صدقت يا دكتور، فهي دوماً تسخر من الموت، ولا تهابه، ولا

تخشاه.

أوماً الطبيب مؤكّداً صحّة ما قال الشاب، ثمّ همّ بالانصراف، فيما يؤكّد

على «لؤي» ضرورة الاعتناء بالسيدة «آسيا»، وضرورة بقائه بقربها، فقد

يأتيها الموت بغتة!!

لم يدر «لؤي».. هل يخشى فراق السيدة «آسيا» لأنّه يحبّها حبّ ابنٍ لأمّه

حقاً، أم يخشى ذهابَ جاهه، وسلطانَه برحيلها قبل أن تتولّ كلّ ممتلكاتها إليه!!

وعلى الأرجح، كان يخشى الفقر، يخشى الحاجة، يخشى أن يفارق رفاهيته

بمفارقة روح «آسيا» لجسدها، وراح يتساءل في نفسه... «كيف يجعلها تُسرّع

بالتنازل عن كلّ ما تملك له قبل أن ترحل؟!»، ولكنّه صرف تلك الفكرة

عن رأسه مؤقتاً حتى يراها ويطمئنّ عليها، فدفنَ إلى حجرتها في سرعة،

ودون أن يطرق بابها قبل أن يدخل..

كانت تجلس مسندةً ظهرها إلى وسادةٍ كبيرةٍ محشوةٍ بريش النعام، شاحبة الوجه، وقد تجلّت بعض التجاعيد حول عينيها، وفمها، تلك التجاعيد التي كم حاولت إخفاءها بعمليات «شدّ الوجه، والعنق»، وكم تعهّدتا بكرميات الصباح والمساء المضادة لعلامات الشيخوخة!

جثا فوق رُكبتيه بجوار سريرها، وهو يمسك بيديها، ويقبلها كثيرًا، ويقول:
- سلامتك يا حبيبتى، أنا ليس لي سواك، إنّي بدونك لا شيء!
بلا مقدمات، وبحزمها المعتاد، قالت وهي تتصنّع القوّة، والتظاهر بالعافية:
- ما من وقتٍ حتى نُضيّعه في التّباكي، لتصنّع إلى شرطي الذي نوّهت لك عنه أمس.

قاطعها بقوله:

- أمّي، سأقبل بأيّ شرط تريدني حتى أبقي بقربك، وحتى أظلّ «لوي» ابن «نعمان الراجح»، و«آسيا الميهي»..

قاطعته هي كذلك، وقالت بجديّة واضحة:

- قلتُ لك اصغ إليّ، فما ستعرفه الآن قد يجعلك تحيد عن قرارك هذا، أعرفني سمعك، وانتباهك وحسب.

أصاخ السّمع إليها، فيما راحت تتحدّث بصوتٍ يغشاه الوهن، ويدفعه الكبرياء كي تواصل الكلام:

- لقد تملّكت الغيرة من قلبي، لذا رأيتُ أنّ «ماجد» قد ذبحني وأنا ما زلت على قيد الحياة، فذبحته بيدي بعد أن أجبرته على ارتداء ملابسه الرثة التي رأيته عليه بلقائنا الأوّل حتى يتذكّر من كان، ويودّع الدّنيا على حاله الأولى!!

ثم نسجتُ حيلةً على فتاته التي شغفتهُ حبًّا، غريمتي «نهي»؛ بأن دعوتها للقائي بمنزلي القديم بأثر النَّبي بعد رحيل أمي، وتظاهرتُ بالتوَعك، ورجوتها أن ترافقني لزيارة طبيب فوافقتُ على الفور..

فلم تكنْ لشكِّ للحظةٍ بأنني أنا الزَّميلةُ المسالمة، قد اتفقتُ مع جراح شهير، قد أعلن مشفاه بجريدةٍ قوميةٍ عن طلب متبرِّع بالكلِّ لمرضى بحالة حرجة، وقبل أن نغادر المنزل معًا - أنا ونهي - قد قدَّمتُ لها كوبَ عصيرٍ قد أذبتُ به بعض قطرات مخدرٍ فعَّال، فخرجتِ الفتاة معي، وهي تترنَّح دون أن يساورها الشكُّ فيما نسجته من حيلةٍ حولها.. وعندما وصلنا إلى مشفى الطبيب الشهير، استقبلنا بحفاوة، وكنت قد نوَّهتُ له عن قريبةٍ لي قد حاولتُ الانتحار مرَّاتٍ عدَّة، وكلَّ مرةٍ كنا ننقذها من الموت بأعجوبة، وأنَّ هذه الفتاة سوف تفلح ذات يومٍ في الانتحار الذي لا يفارق ذهنها.. لذا؛ فقد قرَّرتُ تلك الفتاة التبرُّع بكلَّيتها لمن يحتاج إليها..

شهقَ «لؤي»، وأردف بوجهٍ مرتعب:

- وبالطَّبع كانت هذه الفتاة هي «نهي»!!

أومأت «أسيا» مؤكِّدة، وقالت:

- ولعلَّ القصَّة المكدوبة قد لاقت استحسان الطبيب الكبير، الذي سألني بصوتٍ باردٍ..- مادامت هذه الفتاة تنوي الانتحار، فلماذا لا تتبرَّع بكلِّتا كليتيها؟!

فأجبتُه على الفور:

- لديك حقٌّ يا دكتور، دعني أسألها، وهي لنُ تمنع بكل تأكيد.. ثم تركتُ الطبيب وقصدتُ الغرفة التي كانت «نهي» ممدَّدة بها فوق سرير

مغطى بالأغطية البيضاء، فكانت شبه نائمة من أثر المخدر، الذي دسسته لها بالشراب، ومكثت إلى جوارها دقائق - دون أن أحدثها بكلمة - ثم عُدت إلى الطبيب كي أخبره بموافقتها..

نزعَ الطبيب كليتيها، واستلمت أنا جثتها، وثنَمَ كليتيها، ومن ثم استهوطني اللعبة، وشيئاً فشيئاً نمتُ ثرواتي، والتمعَ اسمي بالمجتمع الداخلي والخارجي خلف سلسلة لا حصر لها من المصانع، والفنادق، والقرى السياحية، تغيرتُ قلباً، وقالباً..

وكانت نواة التغيير أن غدوتُ «آسيا الميهي»، لا «مُهجة البصري»!! باغت الألمُ المرأةَ الحديديةَ، متحجرة القلب، «آسيا الميهي»، ونضح العرق فوق جبينها، فأشارت للشابِّ نحو «الكومود» حتى يناولها قرصاً مسكناً، فنهض بخطواتٍ متثاقلة بطيئة، ومازالت بشاعة القصة التي ألقتها على مسامعه تتمثل أمام عينيه، وتساءل في نفسه، وهو يُمسك بعبوة الأقراص، ويسكبُ الماء من إبريق زجاجي شفاف بكوب زجاجي أنيق من أجلها:

- لم أعد أدري؛ هل مثلها يستحق الدواء، أم السمّ الناقع؟! هل تلك امرأة عادية مثل كل النساء، أم شيطانة ملعونة، تشكلت بصورة بشر؟! قطع عليه جبلُ شروده، أن استحثته بصوتٍ يكابد الألم:

- هَلَمْ يا «لوي»، أعطني الدواء بسرعة!!

ابتلعت قرص الدواء بسرعة خاطفة، فالألم لم يكن يُحتمل، وتبعته بشرية ماء، ثم سكنت بموضعها برهةً، وقالت:

- أعلم أنك مصدوم مما سمعته الآن.

ثم بررت مسلكتها الإجرامي بقولها:

- هناك أمورٌ في الحياة لا تدعُ أمامك سوى خيارٍ واحد، وقد يكون ذلك الخيار الذي لا بديل له؛ هو «القتل»..

حملت الشاب بوجهها بعينين جاحظتين، وغمغم مرتعبا:

- القتل؟!

هزّت رأسها أن.. نعم، رغم ما تكابده من آلام فتّاقة، إلا أنها - كعادتها - ضربت على الحديد وهو ساخن، فسألته السؤال الذي أجب بصدده هيب الانتقام:

- أن ترتقي «غادة» محبوبتك بين ذراعي شاب غيرك؛ ألا يليق بها الموت على يديك، جزاءً وفاقاً على ما فعلت بك؟!

ثم واصلت شحنة، وإغارة قلبه نحو حبيبته:

- أستر كُها تهم حباً غيرك؟ وتبته الأشواق، بينما أنت تصطلي بنيران فراقها، وازدرائها لك رغم وسامتك، وثرائك؟! ألم تُؤثر ذلك «الأدهم» عليك؟! هدر «لؤي» صارخاً، كمن يحترق، فيستغيث بكل ما أوتى من قوة:

- ساعديني حتى أقتلها، لن يتلج صدري إلا إذا أرقّت دمايها على يدي..

فقال بصوتٍ متهدج:

- تحلّ بالصبر قليلاً حتى يكون الانتقام أقسى، وأنفع..

صرخ، يسألها:

- كيف؟!

ابتسمت رغم الألم، فقد أخرجتُ مارد الانتقام من قُمقمه الخبيء،
وقالت:

- سأخبرك، ولكن اذهب الآن وألق بجسدك بحوض السباحة حتى
تهدي من روعك، ولنلتق بالمساء كي أطلعك على قواعد عالمي السري، تلك
القواعد ستصبح هي كنزك الأثمن على الإطلاق!

لقد ظلّ «لوي» يسبح بحوض السباحة ساعات وساعات، ولكنه كان
يسبح بأفكاره المتلاطمة كأموج يَم هائج، تمرّ الثواني بطيئة، يترقب حلول
المساء، ذلك المساء الذي سيحمل بين طياته السبيل لإخماد الحريق المستعر
بصدره، لا بُدّ من إنجاز الأمر بأقرب فرصة، كلّ من «غادة»، و«أدهم» يليق
بهما الموت لا الحياة، لذا؛ لم يمهّل «آسيا» حتى تبندر الحديث..

رغم الآلام، تحاملت «آسيا» على نفسها، وهبطت إلى حيث المائدة العامرة بما
تشتهي النفوس، كان الشاب الوسيم بانتظارها، يجلس قبالة مقعدها إلى المائدة،
لم تطالع عيناه شيئاً ممّا أعدّه «عرفان» من أطعمة يسيل أمامها لعابُ الجائعين،
لم يكن يشغل ذهنه سوى ذلك الأثر الخفي الذي سيتسلّمه، ويوليه جُلّ
عنايته، واهتمامه، أمّا هي.. فلم تعد تشتهي الطعام، وإن اشتتهه فالطبيب قد
سمح لها بتناول أطعمة محدودة..

عاجل الشاب «آسيا» بسؤاله:

- كيف لي أن أصبح مثلك؟ أنتقم متى شئت، وبالوقت ذاته تظلّ صوري
ناصعة، وسيرتي بيضاء؟!

راق لها سؤاله الذي ينم عن ذكاء حادّ، فقد وفّر عليها حديثاً مطوّلاً..

تنهّدت مبتسمة، وقالت:

- سيكون لك كلّ ما تريد، لكن لا تتعجّل!

في نبرة غاضبة، قال:

- لم أعد أحتمل!

فقال:

- ألن تتراجع، أو تندم؟!

هدر وقد غشت وجهه حمرة الغضب:

- مؤتي دون تراجع.

فقال في هدوءٍ باد:

- إذا تناول طعامك، ثمّ نكمل حديثنا.. في غضبٍ، راح يشيح بوجهه

بعيداً عن المائدة، قائلاً:

- لا أريد الطّعام، بل أريد الارتواء من دمائها..

في حدّة، قالت «آسيا» آمرة:

- قلتُ تناول الطّعام لعلّ هذه الليلة هي الأخيرة.

- ماذا؟! (سأل بفرع..)

فقلت، وقد عادت الالام تنخر بجسدها مجددًا:

- لا تخف، لن أرحل قبل أن أروي ظمأك.

تناول الطعام في عجالة، لم يأكل ما يقيم أود طفل صغير، بينما احتست هي ملعقتين من طبق الحساء الذي وضعه «عرفان» أمامها بناءً على تعليمات الدكتور «لاشين»، ثم نهضا وجلسا بالحديقة الفسيحة، عاجلها «لوي» بقوله:

- لقد طال انتظاري، متى ستثقين بي، وتعلميني بما برأسك؟!
فقلت في وهن:

- لن يستتب لك أمرٌ بهذا البلد سوى بالعلاقات الوطيدة بساساتها..

- وكيف ذلك؟ فكلهم يعرفونك أنت، لم أتعامل معهم بصفة رسمية من قبل. (سألها شغفًا بمنصب كبير..)

قلت ووجهها يزداد شحوبًا:

- البرلمان، البرلمان هو منفذك إليهم.

هز الشاب رأسه، ومطَّ شفتيه، يعني أنه لم يفهم ما تريد قوله..

أوضحت قائلة:

- سأمهّد لك حتى تصبح برلمانيًا شهيرًا، وسيكون لك مقعد بالبرلمان

الوشيك.

- ولكن ما علاقة البرلمان بالارتواء، بالانتقام؟!

ثم تابع:

- أريد أن أشفي غليلَ صدري من غريمي؛ «غادة، وأدهم».

قاطعتُه:

- إذا كان عليك صعودُ درجٍ من مائة درجة، فهل يمكنك أن تصل إلى قمته بقفزةٍ واحدة؟!

هزَّ رأسه نافيًا، فقالت:

- إذا، فلتكن لديك حصانة، ودورٌ بارز بالمجتمع، حينئذٍ كلُّ ما سيحوم حولك من شبهات لن يتجاوز كونه إشاعاتٍ مُغرضة، أخطُ نفسك بسياج شائك؛ لا يمكن لأعدائك أن يتخطونه لينالوا منك. هذه هي القاعدة الأولى..

زفرَ بقوة، ثم همس في نفسه:

- يا لك من داهية، وجعبة أسرار لا تنفذ، يا «مدام آسيا»!! حقًا؛ إنَّ روح الانتقام إذا حلت بنفسٍ جعلتها أخبث من نفوس الأبالسة اللثام.

- القاعدة الثانية: أمت قلبك، فلا ترقِّ لبكاء طفل، ولا لعويل امرأة، ولا لتوسلات ضعيف.

قالتها «آسيا»، وهي تحتسي كئوس الخمر الواحد تلوَ الآخر، رغم تحذيرات الدكتور «لاشين الجيار» لها، والتشديد على «عرفان» بالألا يقدم لها

قطرة خمر واحدة، ولكن «عرفان» لم يكن ليردّ لها طلباً، ولعلّ وراء طاعته العمياء لها سرّ لا يعرفه سواهما، لربّما ستسفرُ الأيام التالية عنه، ربّما..

كان «لؤي» ينصّت إلى قواعدها التي تلقّيها على مسامعه كالأحجية، وكأنّه قطعة من الأسفنج تمتصّ ما حولها من سوائل، يحفظ كلماتها عن ظهر قلب، دون أن يراجعها..

لقد أزمع أن يسير على نهجها، ويتتبع خطاها ويمثّل لتعاليمها، فلا صوت ضمير يُردّعه، وما سوى الرغبة بالانتقام تسكنه، وتتملكه! تابعتُ كمَن تلقى بوصية مشروعة:

— القاعدة الثالثة: الدماء شريانُ الحياة، فكلمّا سفكت دمّاً؛ كلمّا أحسست بالحياة تسري بأوردتك.. حيث تبقى أنت الأقوى، أقوى من كلّ ضحاياك، السالفين، واللاحقين.

اخترقت كلماتها مسامعه بلا عناء، فانتفخ صدره، وامتلاً بقوة زائفة، مصدرها هراء امرأة بلا حسّ، ولا قلب، قد عزفت عن زقزقات العصافير، وتغريد العنادل؛ كي تتلذّذ بحشرجات الأنفاس حال بلوغ أرواح الضحايا حلوقهم.. وكأنّها واحدة من أذرع الموت المحلق فوق رؤوس المخلوقات، جعلت لنفسها عرشاً واهياً، كعرش الشيطان فوق الماء.

كتلميذٍ أبله، يحفظ، ويصمّ ما يُملّى عليه، دون أن يُعمل عقله لوهلة؛ أنصتَ إليها بفمٍ فاغر، وعقلٍ غائب في غياهب الظلمات، فراحت تتلو عليه قواعدها المسمومة، فحانت القاعدة الرابعة:

زجرته، قائلة:

- إذا حصرت انتقامك بدائرة أعدائك فقط؛ فستظلّ ضعيفًا هشًّا، لن تصبح قويًّا إلا عندما تقتل مَنْ أحببت، وأنتَ مازلتَ تحبّه!!

أحسّ بغصّةٍ بحلقه، ووخزةٍ مؤلمةٍ بصدره، فما زالت «غادة» ترتبّع بقلبه، مازال يحبّها، ولا يريد سواها..

فهل تُراه سيطبّق منطق «آسيا» الشاذّ، ويقتل الفتاة التي مازال يحبّها ملء فؤاده، أم سيقول الحبّ كلمته الفاصلة، ولتذهب «آسيا» بقواعد المريعة إلى الجحيم؟!



(ويحك أيها الآدمي المغرور؛ تتجبر، بينما تجهل بما سُطر باللّوح المحفوظ)

أومضَ قلب «غادة» بالفرح كلّما أومضت شاشة هاتفها الخلوي باسم «أدهم»، وافترّ ثغرها عن ابتسامةٍ رائقة، فتجيب، ورنّة السعادة تغمّر صوتها الناعم الرقيق:

- ألو، «أدهم»، لم تأخّرت، الغداء سيبرّد، و«بابا» و«ماما» بانتظارك؟!
- آسف يا حبيبتي، فما أخّرني عنك سوى مهرِك الباهظ، يا مليكتي الجميلة!

تصمّت لحظات، ثمّ تسأل في حيرة:

- مهري!! والباهظ! أنا لم أطلب منك مهرًا يا أدهم، أنا لا أريد سواك، وأنت تعلم ذلك جيدًا!

يداعبها بسؤال علّه ينعش ذاكرتها:

- ألم تشترطي عليّ أمرًا؛ عندما فاتحتك في أمر عقد قراننا الشهر القادم؟!!

أخذت تفكّر، وتحاول استرجاع حديثهما حول عقد القران القريب:

- إمممم، أنا أريدك بقربي طوال عمري بلا شروط.

ضحك، ثمّ قال:

- افتحي الباب يا ذات الذاكرة السّمكية، فأنا أقف خارج البيت.

تركْتُ الهاتف، ثم ركضت وهي تتقاذف فرحًا، وفتحت الباب لتجده أمامها
قمرًا وضياءً بوضوح النهار، فقال:

- ألن تباركي لي؟!

اتسعت ابتسامتها، وهي تشاكسه:

- «أدهم»، ماذا بك اليوم؟ حديثك كله ألغاز، لا أفهم منه شيئًا، أوضح
رجاءً، ما عدتُ أحتمل الانتظار!

جاءها صوتُ أبيها يقول مداعبًا:

- دعي «أدهم» يدخل أولًا، ثم سَليه ما شئت!

دلف «أدهم»، ثم وضع باقةَ الزهور فوق منضدة قريبة، وهو يقول:

- ألم تشترطي عليَّ أن أتقدم للانتخابات البرلمانية قبل أن نعقد قراننا، وقلتِ
لي إنَّ ذلك هو مهرُك الذي تريدين؟!

ثم استطرد: وها أنا قد وفيتُ لكِ بما تريدين، وقدّمت طلبًا للانضمام للبرلمان
عن دائرة الوراق.

صاحت «غادة» في فرح عارم، قائلة:

- يا لها من مفاجأة يا أدهم!

وتبعها والدها، يقول في سعادة كذلك:

- إنِّي متبئّي لك بالفوز السّاحق يا «أدهم»، وسيكون لك دورٌ بارز في البرلمان
بلا شك.

تزامن ذلك مع تقدّم «لؤي» بوازعٍ من «آسيا الميهي» بطلب لعضوية البرلمان عن دائرة العجوزة!

كانت أعين «آسيا» تأقي للفتى المدلل بشتى الأخبار التي يريد أن يعرفها في الحال، وقد استعرَ غضبه عندما علم بتقدّم «أدهم» لعضوية البرلمان، فصار بنفوذ «آسيا» وماها يدير حملة شعواء لإطلاق الشائعات المغرضة لإسقاط «أدهم»، فدارت الحرب الباردة من قبل «لؤي» ضده أينما ذهب.. ولكن «أدهم» قد ربح بالانتخابات بعدد هائل من الأصوات فاق توقّعاته بمراحل، ومن ثم، فقد تمّ عقد قران «أدهم، وغادة»، وتلاه زفافهما، ونعما بحياة هادئة، رغم مكر ماكر يتربّص بهما الدوائر، أمّا «لؤي» فقد ربح كذلك، ولكن بعدما بذلت «آسيا الميهي» أموالاً طائلة لتمويل حملته الانتخابية، وللإطاحة بمنافسيه المرشحين عن دائرة حي العجوزة، لقد فاز «أدهم» فوزاً نزيهاً شريفاً، بينما فاز «لؤي» بالرشاوي، وشراء الأصوات وتشويه سيرة الآخرين؛ فشتان بين من صدق واجتهد، ومن غشّ وتملّق!!



- قلتُ لك اهدأ، فلم يحن وقت الانتقام بعد، أنا أرتّب لكل شيء.. هكذا أخذت «آسيا الميهي» تهدئ من روع فتاها المدلل «لؤي» رغم وهنها، ودائها العضال الذي يستفحل ويضعف قواها يوماً بعد يوم.

صاح «لؤي» هادراً في جنون:

- إلى متى؟ أتريدني أن أذهب بنفسي كي أبارك لهما لزواجهما الميمون؟!

أجابته بصوتٍ كالفحيح في بروده، وخبثه:

- بل اصبر قليلاً، وسيكون لك ما ترجو!

صرخ من دون وعي، وهو يُلقِي ما تطاله يده من مزهرياتٍ وتحف، في غضبٍ سافر:

- ماذا تقولين؟ أتحسينني طفلاً يسهل خداعه؟! أراكِ تصرفينني عما اعتزمته، تبين لي بقواعدك الدُموية، ثم تتخاذلين عن دفعي لتنفيذها، ماذا تريدن بالضبط؟ أنا لا أفهمك!!

كعادتها، تصمتُ كمن على رأسه الطير، تتركه ينفث عن غضبه تارة بالصراخ، وتارةً بالنفور والهرب من النقاش حتى يهدأ تماماً، ثم تُفجّر قنابلها الموقوتة التي لم تمرّ بخاطره مطلقاً.

سكتت، فقالت له بهدوء:

- سنجعل غريمك «أدهم» يُفجّع بفراق شخصين على الأقل، لا شخصٍ واحد، فلا تقوم له بعدها قائمة!

أغرته بهذه الفكرة فأعجبته، رغم عدم إدراكه لما كانت تعني بقولها «شخصين لا شخصٍ واحد».. وتصبّر حتى يحين القطافُ الثمين!!

ويحك أيها الإنسان المغرور، حين تظنّ بأنك سيد ذلك الكون، فتسحق هذا، وتنتقم من ذاك، جاهلاً بما سطر من حكمةٍ بالغة باللوح المحفوظ!

(هذا قَدَرُكُمْ، فلماذا أتيتم للقصاص !!؟) —

فيلا «آسيا الميهي»، بمدينة الشروق، الثاني من سبتمبر، عام ٢٠٠٥م، التاسعة مساءً..

عاد «لؤي»، مضطراً إلى الفيلا، وهو يضرب مقود السيارة في غيظٍ سافر، بعد أن ألقى بهاتفه أسفل قدميه، تاركاً خلفه صديقين من الأصدقاء المرفهين مثله، هؤلاء الذين لا يعينهم من الحياة سوى اللهو والاستمتاع ما استطاعوا؛ حيث اتفقوا على قضاء سهرة الليلة بفندق بشرم الشيخ، برفقة ثلاث فتيات فانتات، ثم ينطلقوا بصحبتهنّ بصباح يوم غدٍ إلى جولة سفاري بصحراء سيناء، وسط الأجواء البدوية الساحرة.

فقد اعتزم أن يلقي بحبه لغادة عرض الحائط؛ آملاً في أن تنسيه الليالي الحمراء، بصحبة فتيات الليل، وراغبات الهوى؛ إيّاها، وكانت هذه الليلة هي أولى عتباته التي سيلجُ بها ذلك المستنقع، لم يكثرثُ بأنّه قد أصبح واحداً من أعضاء البرلمان «مجلس الشعب»، فلم يعنه الشعب، ولا مطالب أهل دائرته، وما كان البرلمان في ناظره سوى رُتبة أو مكانة شكلية تزكي من بريقه المجتمعي، وحصانة؛ ظنّ - حُماً - بأنها سوف تُتيح له حرية العبث والمجون بلا حساب، ولا رقابة، لقد غفلَ عن أن عيون الشعب تبقى للمسؤولين بالمرصاد، ترصد هفواتهم، ولا تغتفر لهم تقصيرهم، وإهمالهم مصالح الناس. مقعد البرلمان لا يمكن أن يدوم مثله، وكذلك «آسيا»، التي لا بُدّ سترحل

ذات يوم، وسيتبقى ظهره عاريًا، لا سند له إلا ما صنعت يده، لكنه لم يصنع شيئًا بعد!

لقد أومضَ هاتفه باتّصالٍ من «عرفان» مدير فيلا السيدة «آسيا الميهي»، يحثّه على القدوم في الحال..

بكلماتٍ معدوداتٍ قالها «عرفان» والعبرات تخنق صوته الرخيم:

- «لؤي» بيه، مدام «آسيا» تحتضر، عُد فورًا!

حتّى تلك اللحظة لم يكن «لؤي» يدرك على وجه الدقة؛ هل أذعن وعاد أدراجه من أجلها لأنّه حقًا يحبّها كأّمّه، ولا يستطيع فراقها؛ أم أنه يريد اللّحاق بها قبل أن تغادر دنياه، وتتركه بلا شيء؟! ولكنه قد حزم أمره؛ وقال في نفسه، بدون وعي:

- لا ترحلي، قبل أن تمنحيني كلّ ما تملكين.

لقد تأكّد من أنه لا يريد سوى ممتلكاتها وحسب..

فهو كائنٌ لم يعرف الحبّ، وكأنّه قد خلّق بلا قلب!

ولكنّ العقبة التي مثلت أمامه، وأزعجته ممّا أدّى به لقيادة السيارة بجنون، والانحراف بها في رعونة، حتّى أوشك على الاصدام بسيارة مارة بالاتّجاه المعاكس من الطريق، ولكنّه قد انتبه قبل حدوث الكارثة؛ ألا وهي.. «كيف سيمكنه أن يطلب منها كلّ ما تملك، وهي بالنّزع الأخير؟! كيف سيفاتها في ذلك الأمر؟!

وهل ستمكّن من بين سكرات الموت أن تحبّه إلى ما يريدّه منها؟!
لَعَنَ «آسيا» و«غادة» والمال ومنصبه البرلماني الجديد، وذلك «الشريف»
الذي لم يعرفه، ولم يرِدْ أن يكونه يومًا!
ولم يهيمَن على ذهنه آنذاك سوى أن كيف يمكنه أن يتجنّب معبّة موت
«آسيا»، بينما مازالت مقاليد كلّ الجاه بين يديها وحدها؟!
نكّس دكتور «لاشين» رأسه، أعقبه كذلك «عرفان»، وهما يقفان بجوار
سريرها يرقبان نهاية حياتها في يأس وتسليم.. دخل «لؤي» غرفتها مهرولًا،
رأته بعينين شبه مُغمضتين، دنا منها مصدومًا منعقد اللسان، فقالت بلهاتٍ
ثقيل:

- «عَرَفَ ااااا»، سيخبرك بكلّ شيء.

لم يع الشّاب مغزى ما قالت، فالسرّ الآن بساحة الخادم الأمين وحده..
ذلك الرّجل الأشيب الذي انسابت دموعه حارّة، حزنًا على سيدته التي
عكف على خدمتها زمناً، ولم تستبدله بغيره عبر عقودٍ متعاقبة.. ثمّ اشتدّ
نزعه، فأزبدت، وجحظت عيناها، وهمست بصوتٍ خافت، سمعه الشّابّ
المتصلّب إلى جوارها:

- اتركوني، ابتعدوا، لم أقتلكم وحدي.

كانت تُحدّث أناسًا آخرين، أكّد ذلك أن أشاحت بناظرها صوب زاوية
بعيدة عن تلك التي يتجمع بها الطبيب، و«عرفان»، و«لؤي».

تعلّق بصرها بباب الغرفة، فقالت في همس خفيض كذلك:

- هذا قدرُكم، فلماذا أتيتم للقصاص مِنّي؟!

- لا تأخذوني، أنا بريئة، لقد أرحتكم من الشقاء، ومنحتكم الرحمة الأبدية.. فاتركوني ي ي ي!

انتفض جسدها في عنف، كما لو تعرّضَ لتيارٍ كهربائي صاعق، سَكَنَ جسدها على إثره إلى الأبد!

لقد رحلت «آسيا» تاركةً بين يدي «عرفان» جعبةً من الأسرار.. لعلّه قد حان وقت اعتراف الخادم الكتوم بالأسرار التي لم تكشف سيدته «آسيا الميهى» اللثام عنها لربيبها حتى وفاتها!

تَمَّتْ مراسمُ العزاء على وجهٍ يليقُ باسمِ «آسيا الميهي»، وقد استقطبَ سُرّادقُ العزاء رجالَ الأعمالِ من داخلٍ وخارجِ البلاد، وأُفردتْ صفحاتُ كاملة بكافّةِ الصحف، والمجلاّت من أجلِ نعيها.

وقف «لؤي» يستقبل المعزَّين المصريين والعرب والأجانب، بوجه جامد، لا حزنًا لرحيلها بقدر حزنه الدفين لأنَّه لم يعرف رأسه من قدميه إزاء ثرواتها، وحساباتها البنكيَّة، وممتلكاتها المترامية هنا وهناك!

ظَلَّ سَوَّالٌ كَادَ يَحْطِمُ رَأْسَهُ..

- (إلى مَنْ ستَتول إمبراطورية «آسيا الميهي»؛ لو لم تكن له؟! له وحده!)
بعد اليوم الثالث للعزاء، رفضَ «لؤي» استقبال مزيدٍ من المعزّين، وقد راق قراره ذلك لعرفان، فقد أنهكها أيام العزاء الثلاثة، ولم يتحدّثا، وقد غرقت فيلا «آسيا الميهي» في صمتٍ مُطَبّق خانق، حتى طرقَ «عرفان» باب غرفة «لؤي»، وقد سمح له الأخير بالدخول.. وقفَ «عرفان» صامتاً كتمثالٍ

حجري، رماه كذلك الشاب بنظرة خالية من أي تعبير، بدون أن تنبس شفتاه بكلمة واحدة، جال الصمت بينهما جولته، حتى سأل «عرفان»:

- إلى متى يا سيدي ستظلّ تجلس وحدك هكذا؟!

بنبرة صوتٍ ساخرة، ردّ «لؤي»:

- وماذا يتوجب عليّ أن أفعل يا «عرفان»؟!

قال «عرفان» باحترام جمّ:

- لديك منصبك البرلماني، وقد هاتفك بعض أعضاء المجلس كثيرًا، ولكنني اعتذرتُ لهم نيابةً عن حضرتك، للظرف الطارئ الذي تمرّ به.

ضحك «لؤي» بمرارة، وقال ساخرًا:

- أرايتَ يا «عرفان» برلمانيًا مفلسًا، ضائعًا مثلي من قبل؟!

ثم هدر، والغضب يتطاير من عينيه الصافيتين:

- لقد رحلتُ، وتركتني عاريًا من كلّ شيء.

ثم سأله صارخًا:

- إلى مَنْ ذهبتُ جميعُ ثروات السيّدة العظيمة «آسيا حسيب الميهي»؟!

قل لي.. لمن؟!

طأطأ «عرفان» رأسه، وقال في هدوء:

- كلّ ما تركتُ السيّدة «آسيا» مازال بالحِفظِ والصّونِ يا سيّدي!



رحلة البحث عن رضوى، صيف عام ٢٠١١م

بعد أن أنهت عملها، تذكّرت «مِثَّة» الدكتور «مروان»، حين طلب منها أن تمرّ عليه للضرورة، ففعلت..

وما أن رآها، إلّا وهشّ، وافترّ ثغره عن ابتسامة صافية، وطلب إليها أن تجلس.. كانت متعجّلة، فثمّة أمر يشغلها للغاية، فلا بدّ أن تواصل البحث عن «رضوى»، والوقوف على سرّها الغامض، فقالت في حزم:

- معذرة يا دكتور «مروان»، لا بُدّ أن أغادر سريعاً..

تلعنم مرتبكاً:

- ولكن ما أريد قوله لا يمكن أن أحدثك به، ونحن وقوف هكذا. جلست، من دون أن تنظر إليه، فاستشعر رغبتها في أن يختصر ما يريد قوله، لذا عاجلها بسؤاله:

- أمازلتِ تنتظرين مسعداً؟!

أفرعها سؤاله الذي لم تكن تتوقّعه، فوقفت في الحال، وقد امتنع وجهها، فهل حبّها المكنون لمسعد بات جلياً إلى ذلك الحدّ؟! هل كلّ طاقم المشفى يعلم بما يعتصر قلبها من حبّ وألم؟!!

اكتظّ ذهنها بالأسئلة، وقد انتبه «مروان» لما انتابها، فأراد أن يُسرّي عنها، فقال:

- الحبّ ليس جريمة يا «مِثَّة»، أنا نفسي كنت أعشق زوجتي منذ جمعتنا قاعات المحاضرات بالجامعة، وحتى لحظة رحيلها قبل خمسة أعوام.

لم تُعقب، فاسترسل:

- لقد تركت لي ذكرى غالية، طفلي الوحيد «هيثم»، بالمناسبة.. هو بالسابعة من عمره الآن، فقد رحلت «أمنية» وهو ابنُ عامين فقط.

سكتَ برهةً، ثم قال:

- ولم ينبض قلبي لامرأة بعدها إلا لك.

حانت منها التفاتةٌ نحوه بصورة مفاجئة، فأكد لها:

- نعم يا «منة»، فأنا أحبك، ولكن لم تواتني الشجاعة لأن أعترف لك بذلك قبل اليوم.. وللحقيقة؛ قد كان «مسعد» أشجع مني، وعندما تيقنتُ من قبولك به؛ استسلمتُ وقبلتُ بالأمر الواقع.. ولكني أقسمُ لك؛ ما استطعتُ أن أنساك، أو أرتبط بغيرك.

نضَحَ صوت الدكتور «مروان» بالصدق، ممّا جعلها تنصت له دون مقاطعة، فقال:

- كل ما أرجوه، أن تفكرني بالأمر على مهل، وسأظل على أمل أن أكمل حياتي، و«هيثم» معك.

انعقد لسانها، فأومأت مؤكدة بأنها ستفكر، ثم استأذنت، وذهبت في سرعة خاطفة!

كانت الدكتورة «مها» ترمي بمسامعها، منصتةً لحديثها، ملتصقة بحائط المكتب الخارجي، فهي طبيبة نساء، ومُطلّقة من بعد زيجة فاشلة غير

متكافئة.. وقد أخذت منذ سنوات تُمني نفسها بالظفر بقلب الدكتور الوسيم الماهر، «مروان الرشيدى».. أدرك «مروان» مغزى ما ترمي إليه «مها» كلما جمعها مكان، حيث سعت بشتى السبل إلى أن تستميله إليها ولكن راحت كافة محاولاتها أدراج الرياح، فقلبه ممتلئ برئيسة الممرضات فقط.

متى امتلأ القلب بأحدهم؛ فلن يسكنه سواه مهما كانت المغريات..

لقد أخبرت «رضوى» الدكتور «مروان» بمشاعر «منة» و«مسعد» عندما أثنى الدكتور «مروان» على أداء «منة»، وتفانيها بالعمل بالمشفى، فقد استشعرت «رضوى» بحاسة الأنثى، وغيرها المستعرة، ذلك الاهتمام الجلي في نظرات الدكتور «مروان» برئيسة الممرضات المفضلة لدى معظم طاقم الدكاترة والتمريض؛ لذلك حاولت أن تُغير صدر الطبيب الوسيم نحو «منة»، ولكن «رضوى» لم تكن تعلم بأن هناك صنفاً متعلقاً من البشر كالـدكتور «مروان» يحترم المشاعر، ويبقى على احترامه وتقديره للغير، ولو لم يبادل له الآخر المشاعر ذاتها!! فخاب مسعاها، وفشلت خطتها!



كم ترددت «منة» على منزل الممرضة «رضوى عبد الله» بحي «بولاق الدكرور»؛ بالزيارة الأولى، قد التقت بوالدة «رضوى»، وعندما سألتها عن «رضوى» وسر غيابها عن المشفى لعدة أيام؛ أجابت المرأة وإمارات الصدق تتجلى على وجهها:

- «رضوى» سافرت.

سألتهـا «مَنَّة»:ـ

— إلى أين؟!

— لا أدري يا ابنتي، ولكنَّها قد حزمت حقيبة ملابسها، وقالت لي بأنَّ هناك مؤتمراً طبياً بالإسكندرية لا بُدَّ أن تحضره. (هكذا ردَّت المرأة في عفوية..)

تملَّكت الحيرةُ «مَنَّة»، فقد اختفى «خليل العجايبى»، ثمَّ «رضوى»، ثمَّ «بركات» نزيل العنبر رقم ٣ دون أن يقرَّر الدكتور «وديع مكرم» له الخروج من المشفى، سلسلةٌ من الألغاز تتلاحق، وتتلاحم، فتزداد تعقيداً!!

بعد مرور ثلاثة أيام..

عاودتْ «مَنَّة» الذهاب إلى منزل «رضوى» عسى أن تلتقيها، وتعرف سرَّ غيابها الذي تلا تغيب «خليل العجايبى» عن المشفى؛ فكانت المفاجأة!! لقد رأَتْ «رضوى» تخرجُ من بيتها، وهي ترتدي ثياباً فاخرة، وتُعلّق بكتفها حقيبة نسائية رائعة كذلك، وتتعل حذاءً ذا كعب رفيع أنيق، ثمَّ تشير لسيارة أجرة، وتندسّ داخلها، وتنطلق السيارة بينما «مَنَّة» تركض خلف السيارة، وتنادي بصوتٍ عالٍ:

— «رضوى»، انتظري، رضوى يى يى يى!!!

أطلَّت «رضوى» برأسها من نافذة السيارة، والتقت عينها بعيني «مَنَّة»، ولكنَّها طلبتْ إلى السائق أن يُسرَّع بأقصى سرعة إلى وجهةٍ لا يعرفها سواها!!

لم تلحق «منة» بالسيارة، ولكنها أيقنت أن «رضوى» تخفي وراءها سرًا كبيرًا، ترى ما هو؟!

عادت «منة» إلى منزل «رضوى»، والتقت بوالدتها ثانية، ولم تخبر والدتها بـرضوى، بما رأت للتو..

وبسؤالها للسيدة عن ابنتها «رضوى» تعلّمت المرأة قائلة:

- لم أرها، لم أر «رضوى» منذ سافرت لحضور المؤتمر الطبي.

جالت «منة» بعينها حولها، فأذ بحقيبة ملابس كبيرة جديدة نصف مفتوحة، يظهر بعض ما بداخلها، كما أن هناك رزمة من المال مازالت موضوعة على منضدة التلفاز الصغيرة بأحد زوايا صالة البيت.

توترت المرأة، ولم تعقب، فقالت «منة»:

- يا خالة، أخبريني بالحقيقة رجاء، فثمة خطر سيلحق بـرضوى إذا لم تعد للعمل، وتصارحني بما حدث أثناء إجازتي من المشفى.

سألت السيدة في توسّل: - ماذا فعلت رضوى يا ابنتي؟!

قالت «منة»:

- لقد اختفى مريض من المشفى، مريض لا يستطيع الحركة، ثم اختفت «رضوى» بعد ذلك.

امتقع وجه المرأة، وقالت:

- صدّقيني يا ابنتي، أنا لا أعلم عن «رضوى» شيئًا سوى أنها جاءت

اليوم محمّلة بهذه الملابس، وبعض المال، وقالت إنّها قد التحقت بعمل جديد

بمشفى كبير، وراتبها بهاك المشفى مغر، وعملها به أيسر من عملها بالمشفى العام، الذي كانت تعمل به، وقد يتطلب عملها الجديد ألا تبيت بالبيت أياماً، أو حتى أسابيع متوالية، هذا كل شيء أعرفه.
كان صوت المرأة مُفعماً بالصدق.

تحت ذريعة الفقر تطمُر الأسئلة، ولا يلتفت إلى مصدر المال الذي تجلبه فتاة هي كبرى أخواتها، وإخوتها!!

إنّ الفقر هو الديوث الملعون في كل زمان، ومكان؛ ديوثٌ يلجم الألسنة، ويُحْدِر الضمائر، مادام هناك مقابل يسدّ الأفواه، وفي الغرض؛ لذلك فقد ذهبَت «مِنّة» دون أن تصلَ لشيءٍ من الحقيقة بعد!

جاءها اتّصالٌ من الدكتور «وديع» يطلب عودتها إلى المشفى في الحال؛ فقد وقع حادثٌ سيرٍ مروري قد نجمَ عنه إصابات لعددٍ من موظفي شركة قطاع عام، حين اصطدم أتوبيسهم بشاحنة أخشاب ضخمة.

انتهت المكاملة، ومازالت غلالةٌ من غبار تحيطُ بها، تلك الغلالة التي قد خلّفتها السيّارة التي أقلّت «رضوى»، وما أن هَمَّت بالسّير خطوتين، حتى لاح لها وجهٌ تعرفه جيداً!!

كان الوجه الذي رآته للتوّ؛ لرجلٍ ممتلئ الجسم، عريض الكتفين، ذي بشرةٍ سمراء، ولكن ثمة شيء غير منطقي لم يستوعبه عقلها بعد.

لقد كان ذلك الرّجل يجلسُ إلى منضدةٍ بمقهى شعبي، ويتحدّث إلى رجل يجلس إلى ذات المنضدة أمامه، فيما يجتسيان الشاي، فكيف ذلك؟!

كيف يتحدّث «بركات» الأبكم الأصمّ بلا إشارات أيدي؟!

إنَّه «بركات» نزيلُ العنبر رقم ٣، ذلك الشخص الغامض الذي لم يتفوّه بكلمةٍ واحدة منذ دخوله المشفى، وحتى ليلة اختفاء «خليل العجايبي» لم يتكلّم..

نعم، هي واعيةٌ لما ترى، إنه يتكلّم الآن، فلماذا تظاهر بالخرس؟!

لم يشخّص الدكتور «مروان» حالة «بركات» إلّا بأنّها مجرد «اشتباه في التهاب الزائدة الدودية»؛ لذلك أبقى «بركات» قيد الملاحظة، ولكن.. كيف خرج «بركات» من المشفى!! ومتى؟ وكيف له أن يتحدّث هكذا كأَيِّ إنسان طبيعي؟! أخذت «منّة» تغذُّ السّير نحوه، ولكنّه انتبه إليها فنهض مسرعاً يركضُ مبتعداً!!

بدا لها الآن، بل وتيقّنت، من أنّ «بركات» لديه تلك الإجابات التي تبحث عنها، فركضت خلفه.

إنّها الفرصة الذهبية التي لطالما انتظرت أن تحين، وها هي قد حانت. صاحت بأعلى صوتها، حتى يوقفه المارّة:

- أمسكوا بهذا السارق، لقد سرق هاتفي!

لاحقَ بعضُ الرجال «بركات» حتّى أمسكوا به، ولكنّ «منّة» قد أدركته قبل أن ينهالوا عليه ضرباً.. كان يلهث، والعرق يتصبّب من كافّة مسامّ جلده، حملقت بعينيّه الخائفتين، وقالت مخاطبةً الحشد المحيط ببركات:

- أشكّر لكم شهامتكم، أتركوه؛ فسوف يُعيد إلى ما سرقه.

اعترض بعض الرجال، قائلاً:

- هل تثقن بسارقٍ وضيع؟! لن نتركه قبل أن يسلمك هاتفكِ أما مناجيعةً.
تلعثمت، قائلة:

- أتركوه، فقد وجدتُ هاتفِي عندما سقطَ منه فيما كان يجري.
لم يطمئن المحيطون بهما إلّا عندما أرّتهم الهاتف، فذهبوا، وتركوهما!
رانت لحظات من الصمت، وقد بدا الخجل بعيني «بركات»، بينما عاجلته
«منة» بأسئلة متتابعة:

- لماذا! لماذا ادّعتِ البُكم، والصمّ؟! وماذا تعرف عن اختفاء عمّ
«خليل»? وكيف خرجت من المشفى؟
ثم لماذا؟!؟

قاطعها «بركات» بصوتٍ خشنٍ متهدّج:

- لأنّي كنتُ مضطراً..

ثم أشار لها نحو مقهى ثانٍ قريب، فسارت بجواره ولم تعقب، حتى دعاها
إلى الجلوس.. فجلسا، ثم راح يلتقط أنفاسه في بطءٍ، ويحكي لها كلّ شيء..
لقد أخبرها بأنّه قد قدّم إلى القاهرة فراراً من ثأرٍ قديم وقع بين الأجداد،
وكان لزاماً عليه أن يدفع هو الثمن، بما أنّه الذّكر الوحيد بين ستّ
أخوات، وقد تناهى إلى مسمع غرّمائه الموتورين خبر هروبه إلى
العاصمة الكبيرة، فجاءوا في أثره، ولم يجد مكاناً يختبئ به أكثر أماناً

من المشفى.. وأدعى البكم والصمم، وأشار لطبيب النباطشية آنذاك - الدكتور «مروان» - نحو بطنه؛ لذا وضعه الطبيب تحت الملاحظة، حكى لها كيف كان يمضي الليل ساهراً يراقب خطوات الأطباء والممرضين، والممرضات؛ حيث لم يعد يثق بأحد.. وكيف كاد القلق يفتك به كلما مرّت وجوه أمّه وأخواته بمخيلته!! وكيف هو الثّار لعين، بغىض، يحصد أرواح أبرياء لا شأن لهم بحماقاتٍ قد اقترفها كهولٌ قضوا نحبهم، ورحلوا، موريثين أفكارهم المسمومة للأبناء والحفدة!! ثمّ قصّ عليها ما رآه ليلة اختفاء «خليل العجايبي» من العنبر رقم ٣!! فقال، وفرائضه ترتعد:

- لكم سمعتُ بأنّ الطبيبات والممرضات هم ملائكة الرحمة، ولكّني لم أكن أعلم بأنّ منهنّ شيطانات الجحيم.. لقد رأيتُ الدّكتورة «مها» تكتبُ شيئاً بورقةٍ فيما تقف بالقرب من سرير «خليل»، ثمّ أعطتِ الورقة لرضوى الممرضة، ثمّ ذهبتا.. كان «خليل» يغطّ في نوم عميق، أو لربّما كان مغمض العينين فقط، فقد كان يحرص على موعدِ حفلة السّهرة الإذاعية حيث يستمع لأغاني «أمّ كلثوم» كلّ ليلة.. بينما كنْتُ أنا «أتصنّع النوم»، وأراقبُ ما يجري بهاتِهِ الليلة من طرفٍ خفي، من أسفل الغطاء السريري.. اختلستُ النّظر، وأصخْتُ السّمع؛ فقد توجّستُ خيفةً من وقوع أمرٍ جلل، وبالفعل، سرعان ما أقبلتُ ممرّستان، وعلى مقربةٍ من باب العنبر، ومن خلال الضّوء الخافت المنبعث من الرّدهة الخارجيّة؛ تبيّنت لي ملامحهما؛ إنهما «رضوى، وعزيرة».

أنصتُ «منّة» إليه جيّداً، بينما لم تقاطعه، بينما كاد رأسها ينفجر، وأخذت ضربات قلبها تتسارع كلّما واصل حديثه، واكتفتُ بأنّ تومئ له برأسها تحته

على الكلام، وعيناها تغمرهما دموعٌ قد امتزج بها الحزن والخوف، فتابع
«بركات»:

— لقد أخرجتُ «رضوى» زجاجتي عقار صغيرتين من جيبٍ معطفها،
ثم أعطتهما لعزيزة، وهمستُ بأذنهما ببضع كلماتٍ، ثم وقفت تراقب «عزيزة»
وهي تتقدم صوب سرير «خليل»، ثم تملأُ «سرنجتين» من هاتيك الزجاجتين
الصغيرتين، وتفرغهما بعبوة «الجلوكوز» المعلقة بالحامل الحديدي المجاور
لسريره، تلك العبوة التي كانت قد نفذ أكثر من نصفها تقريباً.

بصوتٍ خفيضٍ تخنقه العبرات الحارة، سألت «منة»:

— ثم ماذا حدث؟ أين ذهبوا بعم «خليل»؟!

غمغم «بركات»، مرتعباً:

— لم تتحرك أطراف «خليل»، فقد سكن جسده تماماً، بعد مُضي نصف
ساعة تقريباً، فحسبته نائماً.. ولكنني مكثتُ أراقبه، والظلام يلفّ مرقدي
بزاوية العنبر المقابلة..

ثم سمعتُ خطواتٍ تقترب من سريري، فأغمضتُ عيني، ثم توجهت
الخطوات نفسها نحو «خليل»، فتابعتُ المراقبة؛ فإذ بها «الدكتورة مها» تمسك
بمعصم «خليل» تارة، وتضع سماعة الفحص فوق صدره لتؤكد لمساعدتيها
الماكرتين «رضوى، وعزيزة»، قائلة:

— لقد مات، أنقله فوراً إلى خارج العنبر، وأنا سأتولى بقيّة المهمة.

كان جسدُ «خليل» ضئيلاً كما تعلمين، فحملته الممرضتان دون عناء فوق سريرٍ ذي عجلات «تُرولي»، وسحبا التروليّ ببطء شديد، حتى لا يتنبه أحدٌ إليهما. شهقتُ «منّة»، وقد انتابها الذّعرُ تماماً، فقال «بركات»:

- تسلّلتُ خلفهما، وعند نهاية الرّدهة، كانت تقف امرأةٌ متّشحة بوشاح أسود، لها وجهٌ كالح، وحاجبان غليظان، وقد أعطتِ الدّكتورة «مهما» مبلغاً من المال، ثمّ لوّحت لرجلين فتقدّما، وحملا جثمان عمّ «خليل»، وخرجا به من المشفى، عدتُ على الفور إلى العنبر، ورأيتُ بقية المشهد من خلال النافذة، لقد وضعاه داخل شاحنة من ذلك النوع الذي يحمل توابيت الموتى.

أدركتُ «منّة» عندها بأنّ تلك المرأة المتّشحة بالسواد، هي نفسها التي جاءت تعرض عليها تمرير جثث الموتى إليها قبل شهورٍ خلت، وتساءلت في فرع، في نفسها:

- تُرى من تكون هذه اللّعينة؟ وكيف تحلّت الدّكتورة «مهما»، وكلّ من «رضوى» و«عزيزة» عن ضمائرهنّ إلى هذا الحدّ البشع؟! وكيف يمكن لها أن تثبت تورطهنّ في تلك الجريمة؟!

قطع حبل أفكارها قولُ «بركات»:

- خشيتُ أن أصبح ضحيّتهنّ التّالية، فهربتُ من المشفى بين جموع الزائرين بظهيرة الأمس!

ثمّ قال بلهجةٍ ساخرة مغلفة بالمرارة:

- أأهرب من الثّار فأحتمي بمشفى قد أقتلُ به، وتُباع جثتي، وتستلم ملائكة الرحمة الثّمن!!

سألته «منة»:

- «بركات»، هلا أسديت إليّ معروفًا؟!

هزّ الرجل رأسه مؤكِّدًا، فقالت:

- أريدك أن تأتي معي، وتُدلي بكلّ ما رأيته للدكتور «وديع مكرم» مدير المشفى، ومن ثمّ بقسم الشرطة، حتّى تنال هؤلاء المجرّمت جزاءهنّ، وتنتهي سلسلة الانتهاكات والعبث ببحث المرضى!

هلع «بركات»، وقال حازمًا أمره:

- حتّى هنا، انتهى كلّ ما عندي، سأعود إلى قريتي بالصّعيد، قد أموت.. ولكنّي سأموّت وأنا بين أهلي، وسيكون لي قبرٌ يعرف أهلي موضعه جيّدًا، لن أبقى هنا بعد اليوم؛ فأموّت غريبًا وحيدًا، ولا أدري إلى أين سيذهبون بجثتي.

ثمّ عقّب «بركات» كعجوزٍ جنوبيّ حكيم:

- «إنّ الموتَ في قرّانا البعيدة، ولو كان برصاصة؛ هو موتٌ رحيمٌ يليق بآدميتنا، موتٌ لا يُمين، ويسحقّ هامات الرجال، كما الموت في مدينتكم؛ تلك المدن التي لا تعباً بقدسيّة الأزواح، وقيمة الإنسان!...»

ثمّ ركض بأقصى سرعته مبتعدًا.

عادت «منة» إلى المشفى تريد أن تُلقِي بها ناء بها كاهلها بالعمل، عسى أن تستطيع أن تتناسى ما سمعت وما علمت، تريد أن تنسى أنّها تملك حقيقة، ولكن بلا دليل مادّي بعد!!

لم تتوانَ عما أوكَلَ إليها الدكتور «وديع» من مهامٍّ، ولم تفرغَ يداها من العمل قبل منتصف الليلة التالية..

بعد انقضاء يوم مشحون بالعمل المتواصل، دعاها الدكتور «وديع» إلى الحديث معه لأمر هامٍّ.. فقال بلهجة أبوية:

- لقد فاتحني الدكتور «مروان» بخصوص رغبته في الزواج منك يا «منّة»..
بدا مزيجٌ من الخجل، والتوتر يغزو قسما وجهها البريء، فاختصر مراده قائلاً:

- فكّرني مليّاً، فهذه حياتك أنتِ، ولكنّي أعرف الدكتور «مروان» كما أعرف نفسي تماماً.. صدّقيني يا ابنتي؛ لن يسعدكِ إنسان مثله.
ثم قال بصوتٍ يُغلّفه الأسى:

- لا تهدري شبابك بالانتظار، فلا أظنّ أنّ «مسعد» سيعود.

هرولت تبكي بحرقّة دون أن تُعقّب، فقد نكأت كلمات الدكتور «وديع» الصادقة جرحها الذي مازال ينزفُ لوعةً لغياب الشاب الوحيد الذي دقّ له قلبها، وراحت تتساءل في نفسها في كمدٍ: (لماذا لا يهجرنا إلّا مَنْ أحببناهم بصدق؟!)

عادت تجر قدميها في وهنٍ بالغٍ، وإذ بأقدام تتبعها تماماً كما كان يفعل «مسعد» متطوّعا في شهامةٍ، ونبُلٍ حال عودتها من العمل بساعات متأخرة..
انتفض قلبها فرحاً، واستدارت من دون وعي هاتفه في لهفة:

- «مسعد»!! هل عدت؟ أين كنت؟!!

وجدت «منة» نفسها وجهًا لوجه أمام شابّ فارح القامة، قوي البنية، رائق المقل، تبدو عليه أمارات الثراء من خلال؛ ملابسه الفاخرة، وعطره الجذاب، والسلسلة الذهبية البرّاقة المحيطة بعنقه المشرّب، و«الأنسيال» الذهبي السميك الذي يطوّق معصمه، وسلسلة المفاتيح ذات الزرّ الإلكتروني التي يمسك بها بيده اليمنى ذاتها!

فزعتُ تسأله:

— مَنْ أَنْتَ؟ ولماذا تتبعني؟!

حملق الشابّ بها كالثمل، ثمّ دنا منها قائلاً بصوتٍ خافت:

— ألا تريدان أن تري «مسعد»؟!

ثمّ غامت رؤياها، ودار رأسها، وترنّح جسدها، فتلقّفها ذراعاه، وحملها، ثمّ ألقي بها إلى داخل سيّارته، وذهب بها إلى حيث سترى ما هو أغربّ من الخيال!!



(«هاردلْك»؛ عصفوران بضرية واحدة!)

العاشر من أغسطس ٢٠٠٥م، السّاعة الواحدة والنصف ظهرًا..

بينما «أدهم» بمقرّ البرلمان يوشكُ على دخول قاعة المجلس لحضور جلسة هامّة سوف يناقش خلالها عدّة طلبات هامّة وردت إليه من أهالي حي «الورّاق»، تتعلّق بالمرافق العامّة الضرورية للمنطقة، وتطوير عددٍ من المدارس؛ إذ صدح جرس هاتفه بلحنٍ شَجِيّ، قد جعله نعمةً خاصّةً بزوجته «غادة» فيعرف أنّها المتصلة به فورَ تناهي النّعمة إلى مسامعه، أجابَ على الفور دون أن ينظر إلى الشاشة:

- حبييتي.

قالتُ ورنّة الفرح تغمرُ صوتها الرقيق:

- «أدهم» حبيبي، عُدْ على الفور، لقد أعددتُ لك مفاجأة.

قال وقلبه ينبض بحبّها:

- وما هي تلك المفاجأة يا نور العين؟!

ضحكتُ، ثمّ قالت:

- لا تسلّ، وإلا لن تصبح مفاجأة، سأذهبُ إلى مكانٍ ما، وسأعود خلال

ساعةٍ على الأكثر، أرجوك لا تتأخّر!

في حنوّ بادٍ، قال:

- سأنتهي من جلسة اليوم، وسأعود على الفور.

— ساشتاقُ إليك.

— أنا أكثر يا حبيبة عمري.

ثم أجرت «غادة» عدّة اتصالات أخرى، حيث هاتفّت والديها، وبعض صديقاتها المقربّات، تدعوهُنَّ للعشاء بمنزلها الليلة، بعدها انطلقت بسيارتها صوب محلّ لبيع الزهور، ثم إلى مول شهير لشراء ثوب جديد يليق بتلك المناسبة، ثم أوصت حلواتيّاً شهيراً بإعداد «تورتاية» ذات مواصفات خاصّة، وتركت لديه عنوانها ورقم هاتفها، انتهاءً بمركز تجميل «بيوتي سنتر» لتصفيف شعرها الناعم المنسدل على طول ظهرها..

عادَ «أدهم» من جلسة البرلمان في تمام السادسة والنّصف مساءً، ومكث بانتظار عودة «غادة» برفقة والديها اللذين قد وصلا بعده بدقائق، يتحرّقون شوقاً للقاء «غادة»، والوقوف على مفاجأتها التي لم تفصح عنها لأيّ منهم بعد.. أجروا عدّة اتّصالاتٍ بها، ولكنها لم تُحبّ أيّاً منها.

وصلَ مندوب محلّ الزهور، تبعه «أوردر» الحلواني الشهير، ووصلت بتمام الثامنة والثلاث ثلاث صديقاتٍ مقربّاتٍ لغادة، ومكث جميعهم بانتظار نجمة تلك الحفلة الفاتنة.

بتمام التاسعة واثنني عشرة دقيقة، دقّ جرس المنزل الأنيق - الذي وضعت «غادة» لمستّها الفنية الناعمة بكلّ زاوية به - فتأهّب الجميع لاستقبال «غادة»، ونهضوا من مجالسهم بوجوهٍ تشعّ سعادة..

ولكن عندما فتحت الخادمة الباب هذه المرة؛ لم يكن الطارق سوى رجل يرتدي كاباً ونظارة سوداء تخفي ما يقرب من نصف وجهه تقريباً، قد سلّمها ظرفاً مغلقاً أبيض اللون، كبير الحجم، ثم ذهب في الحال.

عُثِنَ الظرف من الخارج بعبارة كُتِبَتْ بخط نسخ غليظ متقن..

(يُسَلَّم لسيادة النائب «أدهم الروبي»)..

التقط «أدهم» المظروف في عجلة، وفضّ لاصقته، وأخذ يُقلّب الصور، والرسالة المرفقة، فإذا به يجثو فوق ركبتيه من هول ما رأى!!

انتشل المستشار «عدي أبو هاشم» الظرف من بين يدي «أدهم»، وراحت زوجته، وصديقات غادة، يحملنّ معه بالصّور، إنها عدّة صور لغادة، وهي.... مذبوحة!!

وهناك صورٌ لها.. ورأسها مفصولٌ عن جسدها!!

شَقَّت الصّرخات الأفق، بينما سقطت والدّة غادة غائبة عن الوعي إلى أمدٍ قد استمرّ بعد ذلك شهوراً..

لم تُسفر تحريات رجال المباحث عن هويّة القاتل بعد!!

بات شغل «أدهم» الشّاغل؛ هو عثوره على قاتل زوجته، أو على الأقلّ، على طرف خيطٍ يوصله به.

كان يواصل الليالي لا يغمض له جفنٌ حتى نحَلّ جسده بشكل ملحوظ، وفقدت بشرته نضارتها.. يتأمل الصّور ويبيكي بحُرقة، حتّى لآح له شيء بإحدى الصّور.. كانت «غادة» مذبوحة، وموثوقة اليدين إلى كرسيّ مرتفع، بينما وقف أحدهم وراءها، ووضع أحدهم يده اليمنى فوق كتفها الأيمن!!

بدت الكفُّ لرجل يلتف أنسيال ذهبيّ حول معصمه، ولكنه هيثته لم تكن بشرية كاملة؛ فهو إنسانٌ له رأسٌ أسدٍ أشعث خفيف..

التقط «أدهم» الصورة ذاتها بواسطة كاميرا هاتفه الخلوي «الموبايل»، ثم قام بتكبيرها.. فأصابه الذعر، وجحظت عيناه، فلقد رأى ذلك الأنسيال الذهبي السّميك بيدٍ أحدهم قبل أيام أثناء العزاء الذي أقامه من أجل زوجته الراحلة، كان منكس الرأس، شاردًا في مصابه المُفجع، فإذا بأحدهم يُسلم عليه، وقد رأى الأنسيال لحظتئذٍ، وعندما رفع رأسه ليرى وجه الضيف، صاحب الأنسيال الذهبي؛ وجده «لؤي نعيمان الراجح».. وقد ندّت منه نظرة غريبة، لم تحمل أدنى معاني التعاطف، بل كانت مغلفةً بابتسامة صفراء خاوية.. كانت نظرة شماتة لا تستبينُ إلّا لشخصٍ مثل «أدهم» يقرأ لغة العين جيدًا!!

ركض «أدهم» في الحال نحو «الكومود» الملاصق لفراشه، ليطلع الرسالة المرفقة بصور زوجته المقتولة، ليقرأها مرّاتٍ تلو مرّاتٍ.. لقد كتبت الرسالة بنفس الخطّ المعنون به الظرف..

(هاردُ لك، عصفورانٍ بضربةٍ واحدة)!!

وردَ «أدهم الروبي» اتّصالٌ من الرائد «يحيي سرحان» يخبره بعثور المباحث على سيّارة زوجته المجني عليها «غادة أبو هاشم» بطريق مصر إسكندرية الصحراوي، حيث لم تتعرّض السيارة لأيّ صورةٍ من صور السرقة أو التّخريب، وقد حملتْ مكاملة الرائد «يحيي سرحان» مفاجأةً ثقيلة العيار، حيث قال:

- ولكن ثمة شيء قد عثرنا عليه داخل «تابلوه السيّارة»!!

- وما هو؟!

(سأل «أدهم» متلهفًا) فقال الرائد بعد أن صمت بُرهة:

- «إنه تقريرٌ طبيّ صادر من معمل تحاليل شهير؛ يقول بأن السيدة «غادة أبوهاشم»... كانت «حاملًا»!!

مادت الأرض بأدهم؛ فتكوّم فوق مقعده خائر القوى، وقد أدرك للتو مغزى الرسالة، «عصفوران بضربة واحدة»!!

الآن فقط؛ علمَ من هُما العصفوران؛ إنهما زوجته «غادة» وطفله الذي لاقى حتفه معها قبل أن يرى النور!!

قفزَ «أدهم» صوب هاتفه، وضغطَ زرَّ الاتصال، يقول في لهفة:

- «يحيى» بيه، لقد توصّلتُ إلى القاتل!!

لقد حذا «لؤي» حذو «آسيا»؛ حيث لازمه كأسُ الخمر، يعاقره.. خاصّةً قبل أن يهَمَّ بالإجهاز على ضحيةٍ جديدة..

ذلك إرثُ «آسيا الميهي»، إرثُ الدماء التي لم تكفَّ عن الجريان على يديها، وأيدي سفاحين قد اختارتهم بعناية؛ حيث تجمع بينهم قواسمُ مشتركة؛ على رأسها الانتقام، ثم شغف الثراء؛ على حساب الإنسان، على حساب الضمير، والمنطق، غير عابئين بمحكمةِ عدلٍ إلهية ستقتصص منهم يومًا.

لقد ألحَّ الشابُّ في سؤال «آسيا» في بلاهةٍ عندما بدأت المرأة الداهية في إحكام نسجِ الشُّرك الذي سيسفني غليل ربيها المدلل:

- وكيف سنفجّع «أدهم» بفراق شخصين معاً؟ ماذا تقصدين؟!
- أجابته «آسيا» يومئذٍ بصوتٍ كالضحك:
- سنتنظرُ حتى تحمل «غادة» طفله الأول، وعندها يمكنك الانتقام.
- امتقع وجه «لوي»، فقد فاجأه ردّها الذي لم يكن يتوقّعه، فتابعت تفاصيل خطتها الخبيثة:
- سأرصدُ لحبيته مَنْ يأتيني بأخبارها لحظةً بلحظة، وعندما تتيقّن من خبر حملها؛ ستخضّب دماؤها يديك.
- حملت الشاب، وقد نال منه بعضُ الفرع، فأومأت «آسيا» له قائلة:
- صدّقني، عندما تذبّحها بنفسك؛ ستشعرُ بلذةٍ عارمة، إنّ متعة الانتقام لا تُضاهيها متعةٌ يا صغيري!!
- فاختمرتُ خطتها المحكمة برأسه، وقامَ بتنفيذها بحذاويرها، وكانت «غادة» أولى ضحاياه، ولكنّها لم تكن الأخيرة!
- قبل أن ترحل «آسيا» أوصت عيونها المنتشرة هنا وهناك بإبلاغ «لوي» بيه بكلّ شيء يتعلّق بغادة أبي هاشم، وحتى لو لم تبقَ على قيد الحياة، وقد دفعت «آسيا» ثمن ذلك الخبر مقدّماً!!



(لا تثقوا بالغُرباء)..

دعا الرائد «يحيى سرحان»، البرلمانى «أدهم الروبى»، إلى لقائه بمقرّ المباحث بعد أن أكّد «أدهم» علمه بهويّة القاتل، سأله الرائد «يحيى»..

- مَنْ هو القاتل؟ وكيف توصّلت إليه بهذه السرعة؟!

أخرج «أدهم» تلك الصّورة التي يضع القاتل ذو الأنسيال «السوار» الذهبي يده بها فوق كتف الضّحية «غادة أبى هاشم»، وقال:

- أنا أعرف صاحب ذلك الأنسيال الذهبي جيّدًا!

حكّ «يحيى» أنفه، وتأمّل الصّورة التي لم يُريه إيّاها زوج المجنى عليها قبل اليوم، وأثار انتباهه جسمٌ بشري يرتدى رأس أسدٍ خفيف.

لم تكن معالم مكان الجريمة واضحة، حيث تمّ تعميم خلفيّة الصورة، بحيث لا تظهر سوى الضّحية، وقاتلها المتنكر خلفها!!

رانت دقائق من الصمت، حتى قال الرائد «يحيى سرحان»:

- إنّه قاتل مجنون، لماذا يتقنّع برأس أسد؟!

ثم استدرك الرائد «يحيى سرحان»:

- ثم أنّ السّوار الذهبي ليس دليلًا قاطعًا يدلّ عليه، فلربّما هناك مئات الأنسيالات بنفس التصميم بمحلات الصاغة.

عادت دائرة البحث تنغلق تارةً أخرى، خاصّةً بعد أن أدلى «أدهم» باسم «لؤي الراجح».. ذلك البرلمانى الثّرى المعروف؛ ممّا جعل الرائد «يحيى»

ينصح «أدهم» بعدم ذكر اسم النائب «لؤي» بأيّ حديث صحفي، أو برنامج تلفزيوني، حتى لا يفتح على نفسه باباً من أبواب الجحيم! لأنّ «لؤي» وقتها سيعتبر ذلك تشهيراً باسمه، ولن يكون لدى «أدهم الروبي» دليلاً قاطعاً على تورّط «لؤي» بهذه الجريمة البشعة!

ضمّ المستشار «عدي الروبي» صوته إلى صوت الرائد «يحيي سرحان»؛ حيث رأى أنّه من الحكمة التأمّي وعدم الخوض بذلك الحديث مرّة ثانية، حتى تنبلج شمس الحقيقة يوماً.

كثّف «يحيي سرحان» التّحقيقات حول مُلبسات الجريمة، ولكنّ بلا جدوى؛ حيث لم يُعثر على جثّة «غادة» بعد!

ولكنّ ثمة مخابرة وردت إلى الرائد «يحيي سرحان»، تُدلي بأنّ المجني عليها «غادة» قد شوهدت ساعة خروجها من مركز التّجميل «الكوافير»، وبينما أدارت محركَ سيارتها إذ بامرأةٍ عجوز كانت تعتمد عكازاً خشبياً قد اعترضت طريق السيارة، ووقفت أمامها تلوّح للمجني عليها بالانتظار، ترجّلت «غادة» من السيّارة، وتبادلت الحديث مع هذه العجوز، ثمّ أمسكت بيدها، وأجلستها بالمقعد المجاور لها بالسيارة، وقد أدلى شهودُ العيان من العاملين الذين شاهدوا الموقف من وراء زجاج واجهة مركز التّجميل بأنّ المرأة العجوز قد بدا عليها الإعياء، وأدركوا أنّ العجوز قد توسّلت للمجني عليها أن تُقلّها إلى مكانٍ ما..

لقد تناسّت «غادة» - بدافع الإنسانية - أولى نصائح أمّها التي كم عكفت على تذكيرها بها منذ نعومة أظافرها، وهي.. «ألا تثقَ بالغباء!!».. تلك

النصيحة التي تسكن قلب ولُب كلٍّ أمٍّ مَهْمَا كانت درجة ثقافتها ووعيتها، فكلُّ الأمّهات يحفظنها عن ظهر قلب، تلقّنها للأبناء صباح مساء.

(لا تتّقوا بالغرباء)..

ولكن، يبقى السّؤال: «مَنْ تكون هذه العجوز التي شوهدت برفقة «غادة» يوم مقتلها؟!»..

سؤالٌ كم تردّد كثيراً بأذهان كلٍّ من بلغته تلك المعلومة الهامّة.

لقد أودعت «آسيا الميهي» كلَّ ما يوثّق ملكيتها لمالٍ، أو عقاراتٍ بالإضافة إلى حُلّلي، ومجوهرات تُقدّر بالملايين بين يدي «عرفان»، ذلك الشّخص الغامض، الذي لم تكن تربطها به أدنى صلة قرابة..

ورغم ما أُوتِن عليه لم يهرب، ولم يطمع في شيءٍ ممّا استودعته لديه.

فهل كان «عرفان» أميناً إلى حدِّ حالٍ بينه وبين الفرار بكلِّ ما تملك سيّدته الراحلة؟!!

حقق قلبُ «لؤي» فرحاً، وخمدَ بركانُ غضبه عندما طمأنه «عرفان»، وأخبره بأنَّ كلَّ تركةِ السيدة «آسيا» مازالت بالحفظ والصّون؛ ما دفع الشابَّ لسؤاله في لهفةٍ بدتْ كالتّوسل:

- صحيح يا «عرفان»؟ هل تركتُ أمّي كلَّ شيءٍ من أجلي وحدي؟ إذا أين أخفتُ ثرواتها؟!!

قاطع «عرفان» سيل أسئلة الشاب، قائلاً بهدوءٍ عجيب:

- ولكن مازلتُ لا أعلمُ موقفك من إرثها الفعليّ بعد!

دار رأس الشاب، وحدث نفسه:

- وهل هناك شيء لا أعلمه عن «آسيا الميهي» غير ما قصّته عليّ قبل

رحيلها بأيام؟!

لقد تذكّر اعترفاتِها حول قتلها لماجد ونهى، لاحظ «عرفان» شروده، فقال:

- بقي لك أن تتعرّف إلى طاقم عملها، ومكمن سرّها الأعظم!

أسرع «لوي» يسأله:

- وأين ذلك الطاقم؟ وما هو ذلك السّرّ يا «عرفان»؟!

في برودٍ مخيف، أجابه الرّجل الخمسيني:

- قبل أن أطلعك على فصل الحكاية الأخير؛ لا بدّ أن تنلّ قسطاً كافياً من

الراحة.

ثم همّ بالانصراف، ثم عاود النظر إلى الشاب، قائلاً:

- موعدنا ليلة الثامن من أغسطس الجاري، ستعلم ليلتئذٍ بكلّ شيء،

ولكن.. لو لم تقبل بقيادة طاقمها، ومنحه كلّ ولائك؛ فلنّ تحصل على شيء

من تركة السيدة «آسيا»، وسيحتّم عليك مغادرة هذه الفيلا بلا رجعة.

حدّجه «لوي» بنظرة ملؤها الغضب، وهدرَ نائراً:

- أتهدّدي! كيف تجرّؤ أيها الخادم ال-.....

قاطعهُ «عرفان»، وشرُّ الغضب يتطاير من مقلتيهِ الخضر اوين:
 - لا تستهنْ بي إلى حدِّ إهانتِي، فكم تحمَلْتُ صلفَكَ الرَّائِفَ، ومازلْتُ،
 وللصبرِ حدودٌ كما يقولون.. لولا أَن أوصتني بك سيّدتي العظيمة «آسيا»؛ ما
 أبقيتُ عليك حتى الآن.

ثم قال بلهجةٍ باردة، أربكتِ الشاب، وقذفت الرعبَ بنفسه:
 - قد تراني مجرّد خادمٍ بائس، أنفُذْ أوامرك، وأعتني بك رغم رعونتك،
 ولكنني أستطيعُ أن أرسلَكَ إلى حيث تتمنّى الموت ولا تجده!!
 وقبل أن يجتاز «عرفان» باب الغرفة خارجًا، استدار مرةً أخرى، وقد
 صوّب نظرتَه الغامضة مباشرةً نحو عيني «لوي»، وقال:

- سأعطيك كلَّ ما تتمنّى الحصول عليه، فقط اثبتْ لنا ولاءك.
 استجمع الشاب شتاتَه بشقِّ النفس، فسأله:

- لكم! فَمَنْ أنتم؟!

ضحك «عرفان» حتى امتلأت عيناه بالدموع، ثم قال:

- ستعرف مَنْ نكون، ليلة الثامن من أغسطس!!

ثم ولّى مدبرًا، فيما تجمّدت الدماء بجسد الشاب، وقد أوشك على الجنون،
 فهي متاهة، كلّما وجد مخرجًا من أحد ممرّاتها؛ أفضى المخرج إلى ممرٍّ جديد، فلا
 مناصَّ من انتظار الليلة الثامنة الوشيكة!

«عرفان».. مستودع الأسرار!

ألقي «عرفان» بجسده الرقيق، رغم تجاوزه العقد الخامس من عمره فوق فراشه، بالطابق الأرضي من فيلا «آسيا الميهي»، بغرفته الملاصقة للمطبخ الكبير، ولم يداعب النعاس أهدا به بعد، فقد استعاد عقله الباطن يوم لقائه الأول بالسيدة «آسيا الميهي»... اسمه الحقيقي «سليمان خضير»، ذلك الاسم الذي يحاه من ذاكرته قبل ما يربو على عشرين عامًا.. كان يعمل طاهيًا ماهرًا بارعًا للغاية بإعداد المأكولات البحرية على وجه الخصوص بمدينة «رأس غارب»، توطدت علاقته بنادلة بالفندق الذي يعمل به، سحرته برقتها، وجمالها، فأحبها بجنون، ثم تزوجا، ورغم أن راتبه كان يوفر له حياة مستقرة بمدينة الزعفرانة، إلا أن «ليا» زوجته أصرت على البقاء بوظيفتها بالفندق؛ فلم يمانع، ولم يمانع كذلك رغبتها في إرجاء فكرة الإنجاب بحجة أنها مازالا ببداية حياتهما الزوجية، والإنجاب سوف يحول بينهما والارتقاء بمستواهما المادي، ولكن قبل أن يمضي شهران فقط على زواجهما، كان قد أنهى عمله ذات مساء، وعاد إلى منزله فلم يجدها، رغم أنه يعلم بأن اليوم بالتحديد قد انتهت فترة عملها بكافيه الفندق بتمام الثانية ظهرًا، حاول الاتصال بالفندق كثيرًا للسؤال عنها، ولكن زميلاتها قد أكدن له بأنها غادرت الكافيه فور انتهاء وردية عملها، فقرّر العودة إلى الفندق للبحث عنها بنفسه، وما أن رآته صديقتها «الأنثيم» «ريهام»؛ إلا وأسّرت الخطا مبتعدة، لاحقها، ثم سألتها مباشرة عن «ليا»، فتلعثمت، واضطربت، ثم هزلت، فتبعها...

لقد استقلت المصعد الكهربائي «الأسانسير» إلى حيث الطابق الخامس من الفندق.. تتبّعها كذلك عبر الأسانسير المجاور، واختبأ، ومازال يراقب «ريهام» حتى وجدها تطرُق باب الغرفة رقم «٢٠٨»، ثم فُتِحَ الباب، فهنّهمتُ بحديثٍ خافت إلى أحدهم، ثم هرولتُ صوب المصعد ثانية، هابطةً إلى الكافيه حيث تعمل..

مكثَ حيث يختبئ عن الأنظار عدّة دقائق، حتى فُتِحَ بابُ الغرفة ذاتها، وإذ بزوجته تخرج من الغرفة، ثم تلتفت لتعانق سائحًا أمريكيًا عاري الجسد، ثم يتبادلان القُبَلات الحارّة، ثم يمدّ الأمريكي يده نحوها ببعض الدولارات، فتأخذها ثم تدسّها بصدرها أسفل «اليوني فورم» الرسمي لنادلات الكافيه، ثم تودّع الأمريكي بوعدٍ بلقاءٍ ساخن بالليّلة القادمة..

تعبرُ «لميا» الرّدهة متوجّهة صوب «الأسانسير»، فإذا بالزوج «سليمان» يعترض طريقها، بينما لا يجدُ ما يقوله؛ فقد شلّت صدمتها أطرافه، وعقدت لسانه، سألت دموعه ضاربةً بكبريائه، وعشقه لها عُرِضَ الحائط، لم يدرك ماذا يفعل.. هل يفضح نفسه على مرأى ومسمع من نزلاء الفندق وعاملية، أم يتأنّى حتى يعودا إلى منزلها؟!

بينما يتخبط بحيرته فرّت «لميا» كما لو كانت قد تبخّرت، بحث عنها هنا وهناك، فلم يجدّها.. لم تعدّ كذلك إلى منزلها.

سيدكره الفندق - بداية - بما كان بينهما من حبّ، وانتهاءً بخيانتها التي أفقدته صوابه، وحياته، واستقراره!

قُتِلَ السَّائِحُ الأمريكي بعد ذلك في ظروفٍ غامضةٍ بالصحراء، ولم يُستدلَّ على الجاني الذي لم يترك خلفه دليلاً يُرشد العدالة إليه!!

ولَّى «سُلَيْمَانُ خُضَيْر» وجهه شطرَ العاصمة المزدهمة، ثمَّ التحقَ بالعمل بفندقٍ كبيرٍ شهيرٍ بالقاهرة، وقد راقَتْ وجبةٌ بحريةٌ للسيدة «آسيا» عندما نزلت بهذا الفندق، لذا طلبَتْ لقاءَ الطَّاهِي، ثمَّ عرضَتْ عليه العملَ كطاهٍ خاصٍّ لها بفيلاتهما بمدينة الشُّروق لقاءَ راتبٍ فاقَ خياله، فقبلَ بعرضها، وصار طاهيها، وخادمها الوحيد حتى رحلَتْ عن الدُّنيا قبل أيام..

شيئاً فشيئاً.. وثق بها، وقد كانت هي على قدرٍ خارقٍ من الذكاء، فتنبهتْ إلى ذلك الحزن الدفين الكامن بمقلتيه، طمأنته، ووعدته بالوقوف إلى جانبه مهما كانت مأساته.. باح لها بسرِّه، فأنصتَتْ له، بينما يقصُّ عليها حكايته بنشيجٍ حارق، فما زال شبيب صدره في استعار.. ما أن انتهى من حكايته الأليمة، حتى قالت له مؤكِّدةً بلهجةٍ صارمة:

- سأجلبها لك.

أدهشه وعدُّها المفاجئ، فهي سيدة المفاجآت، ولا أحد يستطيع أن يتوقع ما يدور برأسها، فقال مُستفسراً من بين دموعه:

- لقد بحثْتُ عنها بكافَّة الأنحاء؛ فلم أجدها، فكيف ستجلبينها إلى هنا؟! قهقهتْ، ثمَّ قالت في سُخرية:

- يبدو أنَّكَ لم تعرف مَنْ هي «آسيا الميهي» بعد!

في غضون أيام، كانت «لميا» مقيدة، مكومة الفم، وقد ألقى بها رجالُ «آسيا» أسفلَ قدمي الزوج المقهور بفيلا السيدة «آسيا» بمدينة الشروق، أطفالاً الزوج نيران صدره ريثاً بدمائها، وقد خلصته سيدة «آسيا» من جثتها في يسرٍ..

ومن ذلك اليوم، واسمه «عرفان»، لا «سليمان»، فقد غدا «عرفان» الذي لم ينسَ معروف سيدة حتى آخر لحظات حياتها، فكان بخدمتها في طاعة عمياء في كل ما توكل إليه من مهام..

وقد تأكدها ولاؤه الشديد، وتفانيه في طاعتها، فصار مستودع أسرارها السحيق!

كم بكأها «عرفان»، ولعله الشخص الوحيد بهذا العالم الذي أوجعه فراقها، رغم كل ما أسرّت به إليه عن نفسها، وعن عالمها الشائك!



(نحنُ.. سادةُ ذلك العالم الملعون!!)

منتصفُ ليلةِ الثامن من سبتمبر ٢٠٠٥م، مبنى مجهولٌ بأغوار الصحراء الغريبة..

لا تسمع حوله سوى صفير الرياح، وارتطام سفحات الرمال بهيكل السيارة، وإذا لم تتبهِ جيداً، وتغلق نوافذ السيارة جيداً؛ لسوف تُعمى عينيكَ حفات الرمال التي تحملها الرياح العاصفة عن رؤية أصابعك، وموضع قدميك.

توقّف محرك السيّارة رباعيّة الدفع عن الحركة، حيث قال السائق المثلّم بصوتٍ أجشٍّ مفاجئ:

— ها قد وصلنا يا باشا.

بينما غفا «عرفان» في اطمئنان، على أن يوقظه سائق السيارة حال وصوله لذلك الموضع غير المأهول.

(نحن المصطفون من سلالة البشر،
نحن مبعوثو الرحمة،
والمع الأفلاك..
لؤلؤنا لبقِي الألم المستديم،
لؤلؤنا لما خبِتْ جذوة الغضب من أعماق الصدور،
نحن راحة لكم، ولكنكم تجهلون قدرنا،
لا لشيءٍ؛ سوى أنكم حقى، مخبولون..
سنبقى كطيور الظلام،
نقتاتُ منكم على ما يُبقي فينا رمقَ الحياة، حتى تعقلون..
نحن سادة القبو،
بل سادة ذلك العالم الملعون.
نحن أسدُ العرين..
سادة القبو..
وملوِك هذا الزمان
من داخلِ ذلك القبو السري؛
سنحكم العالم قريباً!!).

هكذا أخذ «تيمور شومان» يتشدق بصوتٍ مبجوح، وبفم ذي أسنانٍ صفراء، وبشرةٍ شاحبة، وجبينٍ مجعد، وجسد ضئيل، كشبحٍ قد فرّ للتو من قبرٍ مغلق منذ قرون..

أخذ يترنح في انشاءٍ، ينث دخان سيجاره الغليظ، معرّفاً عن نفسه، وقد تحلّق حوله ستة رجال، وأربع نسوة، بوجوهٍ كالحة، مظلمة، رغم الضوء المنبعث من مصباح يتدلي من سقف القبو السحيق..

أخذوا يضحكون في اعتزازٍ زائف، كما لو كانوا يشاهدون عرضاً مسرحياً فكاهياً، بينما انتصبت قامةُ شابٍ فارع بصعوبةٍ بالغة، فقد استفاق للتو من أثرٍ مخدرٍ قد سرى بدمائه.. قد قام «عرفان» بتخديره بإذابة مخدرٍ سريع المفعول بكوبٍ من العصير، قد قدّمه له قبل أن يحمله، والسائق إلى داخل السيارة، حتى لا يتبينَ معالم الطريق إلى ذلك القصر الغائص بأغوار الصحراء قبل ساعات..

يتجلى على مُحيّا الشاب أثرُ الثراء والتنعم، وقد تحفزت جميع حواسه لإغماءٍ وشيكة عقبَ ما رأى ممّا أثار غثيانَه، وتقزّزه الشديد: دماء منتنة، وكوماتٍ عظام، قد مال لونُها إلى الزرقة، وبعضها إلى السّواد...

لاحظَ بعضُ الديدان تزحف صوبَ حذائه الأنيق، فاقشعرّ بدنه.. تنحّى بزاوية، وأفرغ ما ببطنه، فما رآه يفوقُ قدرةَ البشر «الطبيعيين» على كلّ حال!! فاللون الأحمرُّ هو ملك اللوحة الآن.. الجدران، المناضد، الأرض، والأيدي

كذلك؛ كلّها مخضّبة بالدماء، أشلاء هنا، وجلودٌ هناك، رؤوس بلا وجوه، ووجوه بلا ملامح، وأطراف قد فارتت أجسادها..

إلى أين أتى به «عرفان»؟! أيرى كابوساً مروّعاً ثقيلاً يبحم فوق صدره، أم أنّه الآن بكهف الشيطان؟!

كيف لذلك الشاب المدلّل «لؤي» أن يقبل بسيادة ذلك القبو الأحمر؟! وهل له أن يرفض ذلك العرض الأخير، أم يعود أدراجه إلى الفقر وعيشة الكادحين، أيقبلُ بذلك الإرث، أو يرجع إلى حيث لا يريد؟!!

كان «عرفان» يقف هادئاً، يراقب خلجات «لؤي»، كما لو كان حَكماً بمسابقة عالمية، لم يؤثّر به ما آل إليه حال الشاب من حيث اصفرار الوجه، ودوران الرأس، وزيع العينين..

كان يراقبه بدقّة، ثمّ قال متحدّثاً لأعضاء ذلك القبو المقرّز:

- فلترحّبوا بزعيمكم، ولد سيدتكم العظيمة «آسيا»!!

ثمّ استطرد يقول في لهجةٍ أمرّة:

- عرفوا عن أنفسكم، فذلك خليفة المرأة الفاضلة التي ندين لها بما أصبحنا عليه!

تبادل الجميع نظرات الرّيبة، حيث لم يروا ذلك الشاب قبل اليوم، ولكنهم يعرفون «عرفان» جيّداً، ويثقون به، فكم أبلغهم أوامر «آسيا» حال حياتها..

بدأ «تيمور» بدياجة أقرب لهلوسات المجانين، حول عالمهم الفريد، كما لو هبطوا من السماء كهديّة لأهل الأرض حتى يخلصوا الناس من عذابات البقاء فوق ذلك الكوكب!

«تيمور شومان»، طبيبٌ مفصول من الخدمة بسبب انتهاكاتٍ طبية، وأخلاقية مُشينة، حيث كان يتحرّش بمريضاته بعيادة علاج السمّة والنّحافة الخاصّة به، وقد تعرّضت بعضهنّ للاغتصاب تحت تأثير المخدر الذي يزكّمن به..

فرّ من يدي العدالة، وتلقّفته «آسيا»، فمثله هو الهدف المنشود، حيث لا مستقبل، ولا أخلاق لديه.. وقد استهوته لعبة القتل، والتّمثيل بالجثث، وحصد الأموال الطائلة.

تبّعهُ استشاريّ جراحة شهير، ممّن يصنّفونهم من «نجوم المجتمع»، طبيب بارع يشار إليه بالبنان.. وهو «يسري الجابري» مقصد صفوة المجتمع الراقي.. لم يكن الدكتور الكبير «جميل العزيزي» يقلُّ شهرةً عن سابقه، إلّا أنّه استشاري ضليع بتخصّص «النساء والتوليد، والعقم»، ورابعهم كان الطبيب الواعد «حلمي عبد الفضيل»، مسئول كبير بوزارة الصحة، ثمّ الخامس «ضاحي رشوان» وهو ممرّض مغمور بمعهد القلب.. تلاه الشخص السادس «ربيع فرغل» طبيب مبتدئ بوحدة غسيل كلى..

ثمّ طبيبة باطنة بنهاية العقد الثالث..

ثمّ ممرّضة ثلاثينية بمشفى عام..

ثمّ عاملة متقاعدّة سبق لها العمل بوحدة للأطفال المبتسرين..

ذكرن ثلاثتهنَّ أسماءهنَّ في سرعة، كجندياتٍ تؤدِّينَ تحيةً عسكريةً بوقتٍ قياسي، مُعرِّفاتٍ عن أنفسهنَّ، ولكنَّ «لؤي» كان قد غرق بإغواءة قد أصمَّت مسامعه عما قلنَّ!!

قضى «لؤي» ثلاثَ ليالٍ حبيسَ غرفته، يفكّر بشأن قبوله بقيادة ذلك الجمع الدموي من عدمه.. بينما يُقدِّم له «عرفان» الطَّعام، ويذهب في هدوءٍ تام..

كان الرّجل الأشيبُ يشعر بذلك الصّراع المعتمَل بنفس الشاب الذي ما عرفَ في حياته سوى التّنعّم بكل ما يريد دون عناء..

ولكن الآن.. عليه أن يقبل بولوج عالم «آسيا الميهي» الخفي، أو يرحل خالي الوفاض، بلا شيء.. حتّى بلا اسمه الذي منحتُه إيّاه المرأة التي صادقتِ الموت، وألِفَت الدّماء!!

بالليلة الثالثة، وقبل تفتّق الأفق عن شفق البُكور، كان الشاب قد حزم أمره، واتّخذ قراره.. لسوف يلجُ قبو الشيطان، ولكنَّ شريطة أن يشفي غليل صدره من «غادة»، تلك الفاتنة التي لم تبادله الحبّ، رغم كلّ ما أغراها به من مغريات!!

استبشّر «عرفان» وتهلّلت أساريره؛ فورَ علمه بقرار «لؤي»، ولكنّه عاد ليحذّره بقوله:

- ولكن، لا يُمكنك التراجع عن قرارك، وإلاّ ستدفع حياتك ثمناً لحنثك في وعدك.

حدّجه «لؤي» بنظرةٍ حادة، ولكن «عرفان» ظلّ يتحدث بالثبات ذاته:
 - إنّ هذا ليس تهديداً لك يا «لؤي» بيه، ولكنّه قانون مُسلّم به في عالمنا...
 «عالم سادة القبو»..، ثمّ استدرك «عرفان» كما لو كان قد تذكّر شيئاً، لم يخبر الشابّ به من قبل:

- مَنْ يعلم بأمرنا، ثمّ يتركنا؛ فالسّباعُ أولى به مِنّا!!
 همسَ «لؤي» متسائلاً بارتعاب:

- السّباع! عن أيّ سباعٍ تتحدّث؟!
 ضحك «عرفان» حتّى بانَتْ نواجذه، ثمّ ذهب دون أن يُجيبه.



(الأبواب الموصدة قد تُخفي وراءها الكثير!!)

(هل جرّبت يوماً أن تقفَ أمام بابٍ موصد، تراه للوهلة الأولى، ولا تعلم ماذا ينبغي خلفه؟!)

حدّثني عما سيعتمل في نفسك حياله!

هل ستجرؤ على دفعه، أو ركله؟!

أم ستمكثُ ردحاً من الزمان حتى يُفتَحَ أمامك من تلقاء نفسه؟!)

ضاقتُ «ميساء» زوجة اللّواء «علي أبي سيف» ذرعاً بتبدّل أحوال زوجها غير المعهودة عليه، فقد بات شاردًا من حين لآخر، يُجري اتّصالاً قصيراً، ويتحدّث بهمس، وما أن تدنو زوجته منه إلّا ويغلق الهاتف، وقد تغيّر وجهه، كأنّها يخفي سرّاً خطيراً..

لم تكنْ تتدخّل الزّوجة في عمل زوجها المشوب بالحيلة والحذر، والتّكتّم على قضاياه، وخباياه.. ولكنّها قد استشعرت بحاسّة الأنثى أنّ هناك أمراً يتعلق بامرأة أخرى.

— ماذا هناك يا سيادة اللّواء؟! أتتسلّى بمغامرة عاطفية جديدة كالمراهقين وأنتَ بهذا العمر!

سألته زوجته مستنكرة، تعلّم رجلُ العدالة، وبدا للوهلة الأولى كطفلٍ يوارى خطأ لا يريد أن يطّلع عليه أحد..

بكت «ميساء»، وقالت في نشيج:

— لم تفعلها وأنت بريعان شبابك، أتفعلها الآن؟! أأضحيت تراني عجوزاً بعد أن قضيتُ معك سنوات الصِّبا بتفانٍ وإخلاص؟! قاطعها:

— لا يا «ميساء»، ليس الأمر كما تظنين.

— إذًا، كيف هو الأمر يا «علي»؟! (هدرتُ غاضبة)

مما جعله يضطرّ إلى أن يعترف لها بخرقه للقانون للمرة الأولى والوحيدة بحياته، وقصّ عليها ما كان من المجري، وما وقع له على يدي ابنته التي أنكرها وأُمّها.

رمقته الزّوجة الحكيمة بعين الإكبار، وأثنت عليه:

— أنت رجلٌ بحقّ يا «علي»، كلّ يوم تكبرُ بناظري، ويشدّد حبيّ لك أيها الإنسان.

ثمّ قالت ما لم يخطر له ببال:

— بعد أن يهدأ الأمر، ويُنسى تمامًا؛ لا بُدّ وأن تأتي بهذه المرأة المسكينة، وابنتها، كي يعيشا معنا؛ لعلّي أقدم شيئاً لهما يعوّضهما عمّا لاقنا.

قبّل «علي» رأس زوجته، ممتناً لإنسانيتها وتعاطفها حيال المسكينتين الهاربتين.

غداة يوليو ٢٠١١م

مرّت سنواتٌ ستّ قاسيات على «أدهم الروبي» الذي لم يُعثر على جثة زوجته منذ اغتيالها بعام ٢٠٠٥م. لم يئأس من البحث والتحري في كل مكان ذهبّت إليه يوم وفاتها، ولكنّه لم يجد جديداً.

وبقيام ثورة الخامس والعشرين من يناير، ورحيل النظام السالف قد حُلّ البرلمان، رغم فوز «أدهم الروبي» بنجاح ساحق بمقعد بالدورة البرلمانية لعام ٢٠١٠م، بينما لم يربح «لوي» بالدورة البرلمانية نفسها حيث أهمل متطلبات أهل دائرته، ولم يبذل أدنى جهدٍ إيجابي يُذكر منذ فاز بعضوية البرلمان بالدورة الفائتة..

بينما كم كانت لأدهم من أيادٍ بيضاء على بعض المناطق العشوائية؛ حيث سعى على قدم وساق إلى تطوير بعض المرافق، وحلّ أزمات بعض المتضررين من البطالة، والبحث عن مساكن تأوي مَنْ لا مأوى لهم، ورغم ابتعاد «أدهم الروبي» عن مضمار السياسة وعضوية البرلمان إبان ثورة يناير التي حلّت البرلمان، وغيّرت مجريات حساباتٍ قديمة لا حصر لها، ورُغم اكتفائه بالعمل الميداني التطوعي لخدمة مَنْ كانوا بحاجة؛ إلّا أنّه قد تعرّض لمحاولات اغتيال عديدة قد باءت كلّها بالفشل.. حيث تعقّبت سيارة ذات ليلة، وحاول قائدُها الإطاحة بسيارته، ولكن السّحر قد انقلب على الساحر، وانقلبت سيارة الخصم المجهول، ولقي حتفه في الحال..

كذلك طاشت رصاصةً كنت تستهدفه عقب هبوطه من سيارته أمام مقرّ البرلمان مباشرةً، فلم تصبه..

كلّما نجا من الموت بذل الخير، وجدّ في خدمة مجتمعه؛ عملاً بما ردّده أبوه على مسامعه كثيراً..

- (صنائع المعروف تقي مصارع السوء)..

ثم يعود، ويتساءل في نفسه، في شجن:

- وماذا جنت «غادة» حتّى تموت ميتةً قاسيةً كهذه!!

ثم سرعان ما يستغفر، ويرجو المغفرة من ربه.

كم حاول والدّه أن يثنيه عن فكرة البقاء بمصر؛ فحياته تتعرّض للخطر من عدوّ مجهول لا يكفّ عن ملاحقته، فلم يرضخ لذلك الطلب؛ حيث رآه هروباً من تتبّع الجاني اللعين!

ولكنّه وحده الذي يعرف خصمه جيداً..

قاتل «غادة»، هو نفسه الذي يتربّص به، ويتحيّن الفرصة للقضاء عليه، ولكن يعوزه الدليل القاطع، فكيف السبيل إليه؟!



١٠ يوليو ٢٠١١م

بدأت «مَنَّة» تستفيق بأن تحرَّكت أطرافها في ببطء شديد، أحسَّت بأن الكون كله قد أظلم فجأة، فهل خبا بصرها؟!

كاد رأسها يتصدَّع على إثر ألم لا يُحتمل، وكأن مطارقٍ ثقلاً تتناوب الدَّق برأسها على وتيرةٍ رتيبة مزعجة!!

أصابها الهلع عندما لم تر شيئاً ممَّا حولها، فقد بدا المكان غارقاً في الظلام.. خدرٌ يسري بيديها، وذراعيها، غالبت جمودهما، وتحسَّست عينيها، فلامست عُصابة قد رُبِطت بإحكام حولهما، أدركت لحظتها بأنَّ خاطفها هو مَنْ فعل ذلك.. ولكن لماذا؟! ومَنْ هو؟! وإلى أين حملها مُخدَّرة؟!

نزعت العِصابة السوداء عن عينيها، ثم شرعت تستطلع المكان، كانت الإضاءة بالغُرْفة خافتة، ولكنها رأت الفراش الذي أُلقيت به قبل وقتٍ لا تعلم مقداره بعد!!

جدرانٌ باهتة، ولوحة كبيرة احتلَّت ثلثي الجدار المقابل لفراشها، حيث رُسم وجهُ امرأةٍ خمسينية، جامدة الملامح، كمن تحديق في الفراغ بنقمة، وامتناع.

حاولت «مَنَّة» أن تستوي قائمةً على ساقها، ولكنَّ رجليها قد تراخيتا، ولم تقويا على حمل جسدها المشوق. ودون سابق إنذار.. تسلَّل إلى أذنيها

صوت «سيمفونية أوبرالية كلاسيكية صاخبة» من الفتحة الضئيلة أسفل باب الغرفة المغلق، إذًا.. هناك أناسٌ بالجوار.. همَّت بالصياح، ولكن صوتها تخرج، لم تسعفها أيُّ من حواسها على الفكك من ذلك المأزق الغامض.

ثمة رنينٌ ينبعث من هاتفها القابع بحقيبتها، أحدهم يتصل بها، تسألت ورجفةً تسري بأوصالها:

- لماذا لم يسرق خاطفي حقيتي؟! وكيف يترك هاتفني معي بالغرفة ذاتها؟!

ألم يخشَ أنْ أَسْتَغِيثَ بأحدهم عبْرَ مكالمة هاتفية؟! يا له من شخص مُريب!!

انقطعَ رنينُ الهاتف، ثم عاد ثانيةً يشقُّ أجواء الغرفة، التقطته من بين سائر متعلقاتها الشخصية، أصابتها رعدةٌ عصفت بكيانها عندما طالعت اسم المتصل فوق الشاشة المضئية!!

إنَّه «مُسعد»، هو الذي يواصل الاتصال بها الآن!

كادت يغشى عليها، وتردّدت في الردّ؛ حيثُ شعرت بأنّ جسدها لم تعدْ به قطرةً من دماء!! لَقَّها صقيع الرّهبة، والمفاجأة.

فهل كان «مُسعد» هو خاطفها المجهول؟!

انقطع الرنينُ وهي مازالت تتخبّط بأفكارها وتساؤلاتها المتلاحقة، ولكنّه.. ها هو يتصل بها للمرة الثالثة!

ارتعشت سبابتها فيما تضغط فوق زرّ الرّد، وفي ارتعابٍ ألصقتِ الهاتف بأذنها..

لم تسمع صوت «مسعد».. ليس سوى صوتِ أنفاسٍ متهدّجة كتلك الأنفاس التي يتنفسها عداءٌ يركض بلا توقّف..

ولكنّ ثمة شيء لافّت للانتباه؛ لقد صاحبت تلك الأنفاس اللاهثة، سيمفونية أوبرالية صاخبة.. رجف قلبُها، وتلفّت حولها في دُعرٍ!!

إنّها السيمفونية ذاتها، تلك المنبثّة عبر الفتحة الضيّلة أسفل باب الغرفة!!

أنهتِ المكالمّة في الحال.. فلم يعاود «مسعد» الاتّصال!!

تساءلت في فزع، والعرق البارد يتصبّب من جبينها:

- لماذا يفعل بي «مسعد» كلّ ذلك؟!

لماذا لا يُفصح عمّا يريده من وراء تلك الأفعال الطائشة؟!

لم أعهده بكلّ ذلك الدّهاء، فهل خُدعتُ في شخصه إلى ذلك الحدّ؟!

أكان يكذب حين قال بأنّه يحبّني؟! ولماذا اختفى فجأة؟!

ولماذا يعود الآن كي يمارس معي لعبة القطّ والفأر؟!

حزمتُ أمرها، وقاومت وهنّها، وسارت نحو باب الغرفة.. وما أن أمسكت بمقبضه، إلّا وفُتح بسهولة.. دار رأسها ثانيةً، وعاد سؤال يفرض نفسه بذهنها:

- هل نسيَ خاطفي أن يُغلق الباب بإحكامٍ من الخارج؟! ألم يفكر في أنّي

قد أحاول الهرب؟!

لم تعرف بعد، هل هو شخصٌ ساذجٌ أبله، أم مجرمٌ مُحَنَكٌ يجيد نصب
الشُّراك؟!

سارت الهويّنى على أطرافِ أصابعِ قدميها، كلما تقدّمت خطوةً كلما صدح
صوت الموسيقى عاليًا جليًا..

حتى إذا وقفت أمام بابٍ موارِبٍ فحاولت اختلاس النظر من خلال
فتحتة، فلم تر شيئاً سوى لوحَةٍ كبيرةٍ مماثلةٍ لذات اللوحة التي رُسم بها وجه
المرأة نفسها التي رأتها بالغرفة الأخرى.

من خلال كوةٍ بالباب أمعنتِ النَّظر عسى أن ترى شيئاً لافتاً، ولكنّها لم
تفلح كذلك في رؤية شيءٍ سوى جدارٍ باهت، وإضاءة خافتة تضيء الغرفة
المقابلة.

دفعَت البابَ برفق، وتلفَّت يَمَنَةً ويسرَةً، فرأت جهاز «جرامافون»
قديم، تدور به أسطوانة موسيقية.. تلك التي تُصدرُ موسيقاها الكلاسيكية
بالأنحاء.

تراجعت عدّة خطواتٍ للوراء، بينما تجوس عيناها تستكشف المكان
حولها، فأذ بها تتعثّر بشيء..

استدارت في سرعة، مُتفاديةً السَّقوط أرضاً، فراعها ما رأت!!!
صرخت صرخةً مدوِّيةً، تردّد صداها حولها، أخذ جسدها يتنفّض،
ويتنفّض، فيما لا تقوى على الكلام، حين ظلّ ذلك الجسدُ البشري ذو الرأس

الحيواني الأشعث المُرعب ساكنًا، حيث يتكوّم فوق مقعدٍ لَيْنٍ منتفخ، يحملق بها بعينين زجاجيتين لامعتين!!

لم تفرّعه صرختها، ولم يشفق عليها، وبقي هادئًا يتلذذ بارتعابها. انتابتها نوبةٌ بكاءٍ حادة، وصرخت مرّةً أخرى، تسأله:

- لماذا يا «مسعد»؟! لماذا تفعل كلّ ذلك بي؟! وأنا التي لم تحبّ سواك؟! كم أبكاني فراقك، رغم أنّك ذهبت وتركتني دون أن تخبرني بأسبابك. لم ينبسُ ببنتِ شفة، وإنّما رفع رأسَ الأسد عن رأسه، فطالعها وجهُ الشاب الوسيم الذي التقته ليلة اختطافها..

لم يكن «مسعد»!!

كان وجهه مبللًا بالعرق، وشعره الأملس ينسدل ملتصقًا بهامته، ظلّ على هدوئه، بينما استبدّ بها الرعب، حتى أحسّت بأن رأسها يتصدّع مرّةً أخرى، فسألته:

- مَنْ أنتَ، وماذا تريدُ مِنِّي؟!

- أنا قدرك يا ابنة القبّاني! (هكذا أتاها ردّه باردًا كالجليد).

ثم قال بنظرةٍ غائمةٍ أخافتها كثيرًا:

- أنا الطّفل الضائع الذي أعياكم البحثُ عنه، فلم تعثروا عليه..

ثم ضحك ساخرًا:

- ألم تحدّثك جدّتك عن أخٍ لكٍ فقد قبل تسعةٍ وعشرين عامًا؟!

لم تكذ تصدق ما سمعت، فراحت تبكي فرحاً:

- شريف!!! أنت شريف أخي؟! «شريف رشاد محفوظ القباني»؟!
أمازلت على قيد الحياة!!

قفزت نحوه في سعادة غامرة، وهمت بعناقه، ولكنه دفعها في جمود، حتى
لا تقترب منه، قائلاً:

- كنت.. توقفت في ذهول، وهزت رأسها نافية فهمها ما يقصد..
نهض، وسار صوب لوحة السيدة المثبتة على الجدار:

- لقد كنت ذلك الشريف البائس، ولكني الآن الملياردير «لؤي نعمان
الراجح».. وكل الفضل يرجع لتلك المرأة العظيمة التي انتشلتني من مُستنقع
الفقر والبؤس الذي مازلت متخبطون به!
هدرت، تجري دموعها حسرة:

- ماذا تقول؟ أنت ابن «رشاد القباني»، و«سناء جودة»، هذا إذا كنت
أنت أخي «شريف» كما تقول.

ثم استطردت:

- ومازالت لك جدّة رؤوم تبكيك ليل نهار، وتأمل في العثور عليك قبل
أن تموت.

حدجها بنظرة دويّة باردة، ثم قال:

- ولكني لا أريد أن أراها، ولا أطمح إلى لقاءها.

ثم عاد يتأمل لوحة السيدة تارةً أخرى بنظرةٍ ملؤها الإعجاب والتقدير:
- لا أريد أن أنتسبَ إلّا لتلك المرأة العظيمة «آسيا الميهي».

ثم راح يستفيض وسطَ اندهاشها، وحملقتها به:

- هي خاطفتي، ورغم ذلك أنا أدينُ لها بالفضل، فلولا أن خطفتني من
بينكم؛ لصرتُ نكرة، بائساً، بالكاد أجدُ قوتَ يومي، ولربّما ذُقتُ الأمرين
حتى أحصل على قميصٍ بالٍ يستر جسدي.. إنها أمي، وسيدتي الموقرة، وأنا
وريثها الأوحده؛ فقد تركتُ لي ما يُبقيني ملكاً متوجّاً فوق رؤوس العالمين
مدى حياتي!!

نهرته «منّة»، مستنكرة:

- وطالما تزدرى عالمنا البائس، وتحترقه إلى ذلك الحد؛ فماذا تريد من ابنة
القباني الآن، وبعد كل تلك السنوات يا جلالة الملك؟! أجنّت بي إلى ذلك
المكان المريب حتّى تستهزئ بي، وبأهلك؟! أم تريدني أن أتصلّ من أصلي
مثلك؟!

قال في هدوء شديد:

- بل جنّت بك حتّى أطلعك على أشياء يتحتّم عليك رؤيتها، وأولها
«مسعد»!!

بلغ منها الغضبُ مداه، فقالت:

- وما شأنك أنتَ بمسعد، ومن أين لك أن تعرفه؟!

ثم قالت:

- لقد اتّصل بي «مسعد» قبل دقائق، وسمعتُ سمفونيتك بالقرب من هاتفه، فأين هو؟!

أحكم قبضته حول ساعدها الأيمن، ثم دفعها أمامه في قسوة، قائلاً:
- سترين كل شيء، تعالي معي.

لم يغمض للجدّة «بسيمة» جفنٌ؛ فلم تعدّ حفيدتها من العمل طيلة الليلة الفاتئة، ولم يصلها منها اتّصال بعد، فقصدت المشفى تسأل عنها، فأكد لها الجميع هناك بأنهم لم يروها منذ ليلة أمس..

وعندما سألت بسيمة عن الدكتور «وديع مكرم» أخبروها كذلك بأنه لم ياتِ اليوم!! فعادتُ إلى المنزل تترقب عودة الحفيدة الغائبة.

أجلسها إلى منضدة تتوسّط داخل غرفةٍ ثالثة، ومن فوق رفّ من رفوف مكتبةٍ ذاخرة بالكتب الأجنبية التي تتحدّث كلّها عن عالم الجريمة، وعن أشهر مجرمي التاريخ، والشخصيات الدّموية البارزة عبر العصور؛ التقطَ «لؤي» بعض الدفاتر المتخمة.. لقد حسبته «مئة» - بداية الأمر - مجرّد دفاتر، ولكن ما أن ألقى بها إليها، إلّا واكتشفت أنّها «ألبومات صور ضخمة».

قال لها في هدوء، وهو يسكبُ بعضَ الخمر بكأسٍ شفاف:

- تأملي تلك الصّور، ولكنّ قبل أن تطالعيها، تماسكي، ثمّ تأمليها جيّدًا.

فتحتُ دفتي الألبوم الأول، ذلك المعنّون بعنوان غريبٍ للغاية..

(إنجازات السيّدة العظيمة «آسيا الميهي»، الألبوم الأوّل!)..

«عرفان»، هو مَنْ عَنَوَنَ تلك الألبومات، وجمع صورها بنفسه..

وقعت عيناها على صفحتين متقابلتين؛ فصرختُ لا إرادياً؛ حيث كانت صورتين لشابٍ بداية عقده الثالث تقريباً.. كُتِبَ أسفل الصورة الأولى؛ حيث جلس الشاب الذي أحببتُ يوماً مقيداً بكرسي خشبي بجسدٍ سليم:

- «ماجد»، حبيّ الأول، والوحيد، قبل ذبحه بدقيقة واحدة فقط.

أمّا الصورة الثّانية، فُكِبَ أسفلها:

- «ماجد»، بعد القصاصِ منه.

ثمّ بصفتين متقابلتين أخرتين، كُتِبَ أسفل الصورة الأولى:

- «الضحية الثانية، غريمتي «نهي»، قبل نزع كليتيها».

وُكِبَ أسفل الصّورة المقابلة:

«نهي بعد أن ألحقها بماجد».

كانت لكلّ صورةٍ منها ذكرى لدى «آسيا»؛ لذلك هي التي كتبتُ التعقيب

على كل صورة كانت قد اغتالت صاحبها أو صاحبها.. وهكذا تم تصنيف صور الضحايا؛ «قبل وبعد»..

ضحايا بالمئات، لم تُكتب أسماء أكثرهم دلالة على أن «آسيا»، سيّدة الدماء، كانت تقتل ضحاياها بصورة عشوائية.. دون أن تربطها بأكثرهم أذى صلة؛ حيث لا تعرفهم، حيث لم يفعلوا ما يدفعها لقتلهم.. لا شيء سوى لتلذذها بقتلهم، ثم للتجار بأعضائهم.

ولكن لماذا كانت هذه السيدة تدون جرائمها، وتوثقها بالصّور والتواريخ هكذا؟!

لماذا كانت تسجّل دلائل إدانتها بنفسها؟!

ما السر؟!

تصفّحت «مئة» بعض الصّور، بينما تذرّف الدّموع، رغم أنها لم تكن تعرف هؤلاء الضّحايا، وإنّما دفعتها إنسانيتها الفطرية إلى أن تبكيهم، وكذلك إلى أن تبكي تحوّل أخيها الوحيد إلى وحش كاسر، أصابه الجنون نفسه الذي أصاب سيّده التي ينعتها بالسيّدة العظيمة!!

أغلقت الفتاة ألبوم الصّور، ثم ألقت به بعيداً، وغرقت في نوبة من الارتعاش والنّشيج، فإذ به يأمرها في غلظة:

— لم تنته بعد يا ابنة القبّاني، فلندعنا من إنجازات أمي العظيمة، ولتصفّح ألبوم إنجازاتي أنا..

صرخت «منة»:

- أنت مجنون، لا يمكن أن تكون إنساناً طبيعياً، أنت شيطان!!
ضحك ضحكةً مجلجلة، ثم قذف بين يديها بألبومه الخاص، يقول في صلف:

- بين دفتيه كل ما سيجيب عن أسئلتك!!
مسحت دموعها الغزيرة، وفتحت الألبوم،
فطالعتها صورة امرأة جميلة في طلة ساحرة..
وقد كتبت أسفل صورها، ما رسخ بذهنها:

- الضحية الأولى «غادة أبو هاشم»، حرم نائب البرلمان «أدهم الروبي»!
عقب مبرراً جريمته:

- لقد فضلت هذا «الأدهم» عليّ أنا «لؤي نعمان الراجح»، ألا تستحق الموت؟!!

لم تعقب على ترهاته الماجنة، فقد زلزلت الصورة التالية كيانه، وصدعته تماماً،
إنها صورةٌ للحبيب الغائب «مسعد»، إذا.. لم يكن «مسعد» هو الذي اتصل
بها عبر الهاتف!! وإنما كان المتصل المخادع هو «لؤي»، الذي احتفظ بهاتف
«مسعد» بعد اختطافه، وقتله..

نعم، لم يهرب «مسعد»، ولم يكن نذلاً؛ وإنما

كان ضحيةً من ضحايا ذلك المسخ المجنون.

لقد أصبح فؤاد «منة» فارغاً، ولم تعقب إلا بكلمة واحدة، صاحبها صرخة مدوية منها:

— لماذااااااااا؟؟!

أجابها في برودٍ شديد:

— كيف أن أسمح أنا الملياردير والبرلماني الشهير بأن يتزوج بأختي ممرضٌ مُعَدَمٌ مثل هذا الـ «مسعد» الحقير؟!!

صرخت مجدداً:

— أختك!!! منذ متى تعدني أختك؟! ثم من أوكلك بالتحكم في حياتي؟!!

عاجلها بتهديده الصريح:

— أخربي، وتابعي مشاهدة الصور في صمتٍ، وإلا ألحقك بحبيب القلب!

ألجمتها كلماته الحادة الباردة، فتكتمت لوعتها، بينما مازالت دموعها تجري، وأطرافها ترتجف، وواصلت مطالعة صور الألبوم الذي بين يديها، فإذا بها ترى الصورة التالية، وكانت صورة الطفل الجميل «فايز» ابن «جرجس» بائع الصحف..

ثم صورة «صفاء»، ابنة شادية ممرضة المشفى، ثم عشرات غيرهم لم تكن تعرفهم!! ثم صورة لجثة نزيل العنبر رقم ٣ بمشفى الوراق العام «خليل العجايبى» مسجى فوق منضدة معدنية، كتلك التي توجد داخل المشرحة!

ما زال «لؤي» يعاقر كؤوس الخمر، الواحد تلو الآخر، وما زال لم يلعب الخمر برأسه بعد، بينما هي تبكي وتطالع صور الضحايا الأبرياء.. ما تراه لا يتصوره عقل، ولا تتحمّله شابة مثلها، لو لم تكن معتادة على دخول غرفة العمليات بالمشفى لأغشي عليها، وما تحمّلت ما ترى.

واصلت مشاهدة الصّور، رغم بشاعتها، رغم قسوتها!

لعلّها تريد أن تكره ذلك الشّخص المعنوه بقناعة تالالالالمة، حتى تنتقم منه، وتخلص الكون من شره بقناعة تالالالمة كذلك.

لقد رأيت عشرات الضحايا الذين لم تكن تعرفهم، بينما يراقبها سفاك الدماء بهدوء يسبق العاصفة..

ولكن لماذا أدانت سيّدته الغامضة «آسيا» نفسها برصد تلك الجرائم بالصّور الفوتوغرافية، وبالتواريخ، وبعض أسماء الضحايا؟!

ولماذا يحذو ربيّها المدلّل «لؤي»، ويحتفظ بصور ضحاياه، أيأمن المحاكمة الرادعة إلى ذلك الحد؟!

وضعت ألبوم الصّور فوق المنضدة بيد باردة كالثلج، ثم وضعت رأسها بين يديها، وراحت تبكي كثيراً!

جلسَ قُبالتها، فيما يقول في هدوءٍ عجيب، ورائحةُ الخمر تفوح من فمه:

- أريدُكِ معي!

انتفضتْ واقفة، تصرخ:

- أنتَ مختلٌّ!

ألقي الكأسَ بكلِّ قوّته، فارتطمَ بلوحةِ الجدار، فنهض صوب اللوحة، فأسرّع يُزيل ما علق بها من رذاذ الخمر، الذي تناثر على وجه سيدة، فبكى بكاءً طفلٍ معتذرٍ، وهو يقول:

- معذرةٌ سيدتي العظيمة، سامحيني يا سيّدة العالم بأسره!

ثمّ قال، بينما يلتقطُ ألبوماتِ صور الضحايا، ويُعيدُها فوق أرفف المكتبة برفق:

- إنّ العظيمة «آسيا» كانت تنتشي فخراً بمشاهدة تلك الصور.. ذلك ما أخبرني به «عرفان» خادُمها الأمين، عندما أطلعني على تلك الألبومات الثقيلة.. لم أفهمُ بداية الأمر وجهَ المتعة في مشاهدة صور القتل من حين لآخر.. ولكنّي أدركت تلك المتعة المُبهرة بعدما ذبحتُ «غادة»، والتقطتُ لي «عرفان» تلك الصّورة الماتعة، التي وقفتُ خلفها أرتمي رأس الأسد، بينما هي غارقة بدمائها!!

ثمّ صاح في جنون:

- واهاهاه، يا لها من لقطات تمدّني بقوةٍ خارقة، ورغبة شرهة لذبح المزيد، والمزيد من السّفهاء.

غربت الشمس، وأسدلّ الليل سدوله، ولم تعد الفتاة.

«بسيسة» تبكي بين جيرانها في عويل:

— لم يبق لي سواك يا «مئة»، فأين أنت يا ابنتي؟! —

انهالت الاتصالات الهاتفية بالفتاة، ولكن ما من ردّ.. لقد تركت الهاتف بالغرفة الأولى قبل أن تتسلّل نحو مصدر الموسيقى.

لم تكن «بسيسة» تمتلك «موبايل»، ولا تعرف كيف تجري اتّصالًا هاتفيًا سوى من خلال الهاتف الأرضي، ولكنّ الجيران جميعًا قد تطوّعوا في البحث عن «مئة»، ومتابعة الاتّصال بها.

دفعها «لؤي» وسط ظلام دامس إلى صحراء مترامية الأطراف، خلف المكان الذي يضمّ صور «آسيا» بكافة الغرف، لم تر سوى الظلام، هبطا منحدراً تمّ تمهيدته حتى يتناسب والهبوط سيراً على الأقدام.

أحسّت «مئة» بالدوار، فالمنحدر طويل، إلى أن جعلها تشعر بأنّها تهبط صوب حفرة سحيقة.. كانت العتمة تزداد حلّكة، والسكون كذلك.

لم تعد تسمع صفير الرياح، ولا عواء الثعالب كما حدث قبل أن تهبط ذلك المنحدر الصّخري الممهّد في صورة عتبات درج.. أخذت تنزل الدّرجات غير المنتظمة في حذر بالغ، بينما يدفعها «لؤي» ويهبط الدّرجات بقدمين متمرّستين، قد خبرت أنّ ذلك المكان جيداً.

أفضت درجات السلم الصّخري إلى باب مُصفح كبير، لقد اضطّمت به، بينما يدفعها «لؤي» أمامه، بينما هي لا تكفّ عن توعّده، وتهديدّه بأنّها سوف تنتقم منه ذات يوم.

كان «لؤي» ما يزال يلوي ذراعَ الفتاة خلفَ ظهرها بقبضةٍ محكمة، لم تؤثر بها كئوس الخمر المتوالية التي تجرّعها قبل أن يتركها المنزل الغامض حيث أدلة الجرائم التي اقترفتها سيّدة الدماء، وخليفتها المجنون!

بيده الأخرى، كان يُمسكُ بجهاز تحكّم صغير «ريموت كُنترول»، بحجم علبة ثقاب تقريبًا، وما أن لامس إبهامه زرَّ الريموت، حتّى فُتح الباب المصفّح العملاق، ثمّ بلمسة زرٍ ثانية أغلق البابُ دونها.

لا أثر لمخلوق هنا، ولكن ثمة أضواءٍ هادئة، تستطيع من خلالها أن ترى طريقها جيدًا. أدارت رأسها صوب الباب المصفّح الكبير، فالتقطت عيناها أربعة أحرفٍ إنجليزية محفورة بدقّة فوق سطح الباب، يفصلُ بين كلّ حرفٍ منها نقطة سوداء..

(E . E . D . C)

رذهة تُفضي إلى أخرى، فأخرى، فأخرى، كما لو كانت قد صُمّمتُ أثناء حرب ضارية بين بلدين، والمصابيح الخافتة تبعثُ في نفسها أعلى درجات القلق، أحسّت بأنّ قدميها لم تعدا تتحمّلا خطوةً أخرى، ترنّحت، جذّبا إلى أعلى، يريد أن يوقفها ثانية.. فقاومتْ شعورها بالدّوار، وسارت خطواتٍ قليلات.

لم تتناول طعامًا ولا شربة ماءٍ منذ ليلة أمس، ولكنها لم تعدُ تحتّمَل، سقطت خائرة القوى أمامَ البوّابة الإلكترونية الثانية التي ظهرت أعلاها الحروف الإنجليزية نفسها؛ (E . E . D . C).

نضح أحدُهم فوق وجهها ماءً مثلجًا، فاستفاقت. كان الضوء بهذا المكان باهرًا، يكشف كلَّ شيء، ولكن ثمة رائحة خانقة، ومثيرة للغثيان.

فتحت عينيها في بطءٍ شديد؛ حيث الضوء الشديد المنبعث من المحوّل الكهربائي المزعج قد حال دون أن تتبيّن تفاصيل القاعة الشاسعة.. كانت ترى أناسًا، ولكن لا ترى وجوههم بدقّة.. ثمة قاسمٌ مشترك بينهم جميعًا - فيما عدا شخص واحد يختلف عنهم - حيث يرتدون جميعًا معاطف بيضاء! حدّثت نفسها:

- حمدًا لله، أنا بالمشفى!

ثمّ فركت عينيها، وهي تتمتم:

- ولكنّ ضوء المشفى ليس بتلك القوّة، أين أنا؟!

تناهى إلى مسامعها ضحكات ذلك الجمع الذي لم ترَ ملامحهم بعد!! فصاحت في ذعرٍ:

- أين أنا؟! وماذا تريدون مِنّي؟ ومن أنتم؟!

تعالّت ضحكاتهم الرّعاء، ولم يُجبها أحد.. اقترب منها أحدُهم، وأمال رأسها إلى الخلف قليلًا، ثمّ فتح فمها عنوةً بأن أطبق يده على صدغيها، ثمّ سكّب بعض العصير داخل جوفها، ثمّ تركها.

بدأت تستردّ وعيها، وأبصرت ما حولها.. أوّل شخصٍ استبانت وجهه كان الدكتور «وديع مكرم»، مدير المشفى.



(«شأنجو» و«الشیطان» وجهًا لِوَجْه!!)

ولكنّه كان بحالٍ يُرثى لها.. لقد كُـمَمَ فمُه، وأوثِقتْ يداه خلف ظهره بحبلٍ سميك، وبدأ مغشيًّا عليه، بعينين مغمضتين أسفل رباطٍ أسود ممائل، كذلك الرباط الذي رُبط فوق عينيها قبل أن تستفيق استفاقته الأولى.. بدا كرهينة يتأهب خاطفُها للخلاص منها!!

- دكتور «وديع»، ماذا فعلوا بك؟! (صرخت «منّة» في فرع)

اخترق صوتٌ إحداهنّ أذنيها:

- لا تحاولي؛ فهو لن يسمعك، مازال أمامه ساعتان على الأقلّ حتى يفيق!

هذا الصوتُ تعرفه «منّة» جيدًا، نعم.. إنّهُ صوت سيّدة تعرفها منذ سنوات! ولكنّ هذه المرأة تقف على بُعدٍ مسافةٍ منها، فلا تراها بدقّة، تهادتْ خطواتُ المرأة نحوها، تقول هامسةً في أذنها:

- أمازلتِ لا تريّني يا رئيسة الممرّضات؟!

جاست «منّة» بالوجه المائل أمامها، فمازالت الصّورة مشوّشةً قليلًا، حاولتْ أن تدقّق قدر استطاعتها بها حتى فزعتْ في دهشةٍ تقول:

- دكتورة «مها»؟!

ضحكت «مها» ضحكةً رنانةً، تبعها الحضور جميعًا يضحكون متهمّكين،

وضعت «منّة» كلتا يديها فوق فمها من أثر الصدمة، فقد تذكّرت تلك المرأة جيداً، إنّها المرأة المجهولة التي التقتّها أمام المشفى عندما طلبت إليها تمرير بعض جثث الموتى إليها..

تبعها أعضاء الفريق من الرجال بالتعريف بأنفسهم، لم يكن «عرفان» بينهم، ولم يعلق بذهن «منّة» أيّ من أسمائهم، فهي تراهم سلالة مغيرة لجنس البشر.

كان لـ «صبرة السيّد» منزلة خاصّة لدى سيّد القبو «لؤي الرّاجح»، فقد قامت من أجله بمهمّة جليلة لن ينساها؛ لذلك فقد كافأها لقاءها بمبلغ كبير؛ فهي نفسها المرأة العجوز التي شوهدت بصحبة «غادة أبي هاشم» ليلة مقتلها، إنّ «صبرة» لديها من الأقنعة ما يؤهلها لخدعة أحذق البشر؛ فقد ارتدت قناع سيّدة مُسنّة، واعتمدت على عكاز عتيق، وارتدت جلباباً رثاً، ممّا جعل «غادة» تشفق عليها، وتدخلها سيارتها، لما توسّلتها «صبرة» أن تقلّها إلى مكان ما.. وعندما مرّت السيارة بمنطقة نائية؛ قامت «صبرة» بتخدير «غادة»، وحملها بمعاونة رجلين أشداء إلى حيث قبو الشياطين.. بينما قاد سيارة «غادة» رجلٌ ثالث، وتركها بالطريق الصحراوي، لتضليل الباحث!!

لم تكن «صبرة السيّد» سوى عاملةٍ بقسم الحضانات والأطفال المبترسين بمجمّع طبيّ تخصّصي، وقد تقاعدت عن العمل منذ سنوات، وقد رشّحها أحد الأطباء فاسدو الذمّة للعمل ضمن طاقم السيّدة «آسيا» بنشاطها

المريب على ضمائه الشخصية، وقد بدأت «صبرة» انتهاكاتها ووأد ضميرها بسرقة بعض المواليد من «الحضانات» بالمركز الذي كانت تعمل به - وهي على حال من التنكر - ثم يبيعهم لغير ذويهم.. ولكنها وجدت نشاط «سادة القبو» يحقق لها مكاسب مالية طائلة، أضعاف ما كانت تحصل عليه من نشاطها القديم.

نهضت «منة» في ثاقل تتراجع إلى الخلف صوب البوابة الإلكترونية الملساء المغلقة دونهم، كل ذلك يجري أمام «لوي» الذي أسند رأسه إلى مقعد معدني بإحدى زوايا القبو؛ يشاهد مسرح الأحداث عن كتب، يرتب في هدوء للمفاجأة الأخيرة، تلك القنبلة التي أوشك على تفجيرها بالوقت المناسب.

أوما «لوي» إلى كل من «صبرة» و«ضاحي» الممرض إيباءً برأسه فحملا بقايا جثة بلا رأس مقسمة إلى أجزاء شتى - من تلك الجثث التي مازالت دماؤها دافئة - فوق سرير متحرك ذي عجلات «ترولي» إلى خارج قبوهم المخضب بالدماء، بعد أن ضغط «لوي» زرًا بجهاز التحكم الذي لا يفارق يده كسواره الذهبي الغليظ..

تبعهما «لوي» وهو يجزجر «منة» عنوة خلفهما، حتى توقفا أمام بوابة إلكترونية ثالثة تحمل الحروف الإنجليزية ذاتها؛ (E . E . D . C) ثم أشار إليهما بالانصراف، فلم يبق سواه هو و«منة»، ثم دفع الترولي بضعة أمتار حتى بوابة زجاجية صلدة بذراع واحدة.. كانت تلك البوابة الشفافة تنغلق على أفصاص ذات أعمدة حديدية..

زجاج البوابة الخارجية الصلدة كاتم للصوت، وقد تيقنت «منة» من ذلك لأن خلف الزجاج السميك، كان هناك.....!!

كان هناك، قطع كبير من..... من الأسود «السباع» الضارية!!! كانت السباع المتوحشة تفتح أفواهها، تزار، ورغم ذلك لم تسمع زئيرها خارج البوابة الزجاجية.. كل أسد بقفص مستقل، وكل قفص يحمل رقماً، أرقام الأقفاص كانت من رقم ١ بالترتيب حتى رقم ٨.

تصل إلى الأقفاص، وما حولها، تهوية جيدة متسرّبة عبر حفرة كبيرة، تمدّ هذه الأقفاص بضوء الشمس نهراً، فلم تغفل «آسيا» عن تلك الخاصية الهامة، وإلا فلم تكن لتلك الوحوش أن تحيا أسفل ذلك العمق البعيد من سطح الأرض!!

وقد جلبت عدداً من العمال للعناية بنظافة هذه الأقفاص، والاعتناء بها..

أغلقت الأقفاص الثمانية بمزاليج يمكن لأي شخص بالغ أن يسحبها فتُفتح من الخارج قبالة البوابة الزجاجية حاجبة الأصوات.

تساءلت الفتاة في نفسها مرتبة:

- أين كان يختبئ لي كل ذلك الفرع؟! أي عقل خارق هذا الذي صمّم ذلك المكان بتلك التقنية المذهلة؟!

وكأنه ينصت إلى صوت عقلها الباطن فيما يفتح البوابة الزجاجية بضغطة زر، ثم يُلقني بأجزاء الجثة من بين أعمدة الأقفاص إلى سبّاعه الجائعة، فذلك موعدُ العشاء..

قال، وعينه تشعان شراً:

- أكنتِ تتوقعين أن ترى مثل ذلك المشهد من قبل؟!

أرأيتِ كم كانت أمي العظيمة «آسيا» خارقة الذكاء؟!

ثم واصل حديثه بعد أن أغلق البوابة المعدنية، ثم الزجاجية دونها،
استرسل وسط دھولها قائلاً:

- عندما رأيتُ هذا المكانَ للوهلة الأولى فرعتُ مثلكِ، ولكنني لا أنكر
شدة انبهاري بتلك العقلية الفذة، التي صممتُ بتلك التقنية الدقيقة وسط
الصحراء الصماء..

وحوش لا يُسمع زئيرها..

وقبؤيُمكنا أن نحكمَ العالم من خلاله دون أن يشعر بنا أحد..

وأناس نُخلصهم من بؤسهم، أو نوقيهم جزاءهم لقاء ما اقترفوه من
خطأ حيالنا..

لقد صنعنا محكمتنا بأيدينا، ندين من نشاء، ونتخلص من نريد، فهل
هناك ما هو أروع من ذلك؟!

كانت تنصتُ إليه، ولا تجد ما تردّ به على تلك الخزعبلات، تراه مجنوناً
بحق.. فلكنّها قد تذكّر شيئاً فراح يعركُ جبينه الذي تلتطخ بالدماء العالقة
بيديه، ثم قال:

- أها، لقد نسيْتُ أَنْ أخبركِ أَنَّ «مسعد» مازال حيًّا!!

جحظتُ عيناها، وتسارعت نبضات قلبها، فعاجلها بقوله:

- ليس تمامًا كما فهمتِ..

لم تُعقّب، فكلّ ما سمعته منه منذ ليلة اختطافها، قد أعجزها عن التعقيب، فقال:

- أعني ي ي ي..... أعني أَنَّ بعض أعضائه قد انتقلت إلى أجساد أثرياء، دفعوا ثمنها مقدّمًا، أليس رائعا أن نسعى إلى أَنْ نُبقي على حياة الأثرياء، بأنْ نمنحهم أعضاءً من أجساد البؤساء الذين هُم عالةٌ على وجه الأرض؟!

ذلك هو منطقُ «آسيا» المغلوط..

منطقُ الجبابة، الذين نصّبوا أنفسهم آلهةً على الكون من دون ربّ العالمين!!

كان «لوي» يثرثرُ بينما يتنقلُ أمام الأقفاص الحديدية؛ حيث يتأهب كلُّ أسدٍ لالتهام ما يُلقيه له من أجزاء بشرية، كلّها أسودٌ دخلت البلاد بصورةٍ غير قانونية؛ حيث أدخلت إلى البلاد مُهَرَّبة بلا تراخيص.. إنّ المال يجلب كلَّ شيء، ولا يعترف بالقانون، ولا يحترمه!

واصلَ الحديث بلا توقّف، بينما أوشكت الفتاة الوديعَة على الجنون:

- أترينَ ذلك الأسدَ الرّابضَ هناك بالقفص الخامس؟!

اسمه «شأنجو»، وهو أضخم السباع الثمانية هنا، كم هو خيف، رأسه أسود الشعر كثيف، لقد افترس نمرًا ضخماً، وقضى عليه أمامي، عندما أمرت بإدخال النمر إلى قفص «شأنجو» لأستمع بمعركتهما معاً، وأختبرُ قوّة «شأنجو»..

لقد راهنتُ عليه، وكان رهاني صائباً!

إنّ «شأنجو» هو الأسد الوحيد الذي جلبته أمّي من دولة «تشاد» الإفريقية، كان شبلاً صغيراً، ولكنّ رأسه كان خيفاً منذ كان رضيعاً!

أما بقية السباع فقد جاءت من الهند!

رأس «شأنجو» يشبه كثيراً رأس الأسد الصناعي الذي ارتديته اليوم احتفاءً بك..

أتعرفين؟!

إنّ أمّي العظيمة «آسيا الميهي»، قد جلبت ذلك الرأس المخيف، وأهدتني إيّاه ليلة عيد ميلادي الخامس عشر.

كم كنت أبلهاً، أخافُ ذلك الرأس، وألعه كلما رأيته، ولم أكن أدركُ سرَّ اختيارها له دون غيره من الهدايا التقليدية التي تُهدى الأمّهات لأبنائهنّ بهذه المناسبات، ولكنّي الآن قد أدركتُ قيمته جيداً؛ فكلّما ارتديته رأيتني وحشاً كاسراً يضمحلّ الخوفُ من داخلي صوبَ كلِّ شيء.

سكتَ «لؤي»، ثم قال متلعثماً بلسانٍ ثَقِيلٍ، نالَ منه مفعول الخمر:

- ولكِنِّي لا أخاف سوى ذلك الأسد الجسور «شانجو»؛ فهو دائماً ينظرُ نحوي بترقب، كما لو كان يتمنى افتراسي من بين الجميع هنا.. عيناه تُحدِّثني بأنَّه يريد أن ينالَ مِنِّي، لا أدري لماذا أحسَّ بذلك!!

ثم ضحك في هيسْتيريا، وقال:

- أأخبرك سرّاً؟!

إنَّه هو الأسد نفسه الذي التهمَ ما تبقى من «مسعد»، وأيضاً هو نفسه الذي التهمَ جسد العجوز الأعرج الذي يُدعى «خليل العجايبى»، أليس اسمه كذلك!!؟

ثم تابع ساخراً، وهو يواصل الضَّحك في جنون:

- لا بُدَّ وأنَّ تُحِبِّينَ ذلك الليث؛ فبعضُ بدنه ممَّن تحبِّين.. أثلُمها كابوسه المرعب الذي أقحمها به، فباتت كجمادٍ لا ينطق، يدفعها فتسيرُ دون مقاومة.. رأسها يدور، تفكرُ في تلك الثَّغرة التي تُخرُجُها من ذلك الجحيم، ولكن كيف؟! ولو استطاعتِ الفرارَ فكيف ستحرّر الدكتور «وديع» من بين أيديهم؟!!

التهمتِ الوحوش كافةَ أجزاء اللحم، فخرج، وأغلقَ البوابات، ثم دفع بالفتاة أمامه مجدداً.

سارتُ «منَّة» مستسلمة، لم تُعد تقاومه بإرادتها، ولكن لماذا؟! بعد انقضاء رحلتها الشَّاقة بقبو الشياطين، عاد بها «لؤي» كسجينةٍ، لا بُدَّ من

أن تبیت بزنانة فردية موحشة عقاب لها على جريمة لم ترتكبها، دفعها إلى ذات الغرفة حيث وجه سيّدته المبجلة «آسيا» يحدّق بها في جمود، وغضب، وجدت طاولة صغيرة تحمل طعاماً شهياً قد أُضيفت إلى الغرفة.

أشاحت «منّة» بوجهها بعيداً عن الطعام؛ حيث «البوفتيك» الذي أثار في نفسها شيئاً من الغثيان رغم رائحته الشهية؛ فلم تعد لديها القدرة على تناول اللحوم بعد أن رأت ما رأت بالقبو.

ولكنها عادت تنظر إلى الطعام ثانية، وأخذت تلتهمه حتى لم تبق منه شيئاً! لم تكن مقلتا «آسيا» باللوحة إلا كاميرات مراقبة دقيقة، هكذا أخفت «آسيا» قبل موتها كاميرات المراقبة عن الملاحظة، وذلك هو سر وجود لوحة تحمل وجهها المتحجّر بكافة غرف المكان، وقد أطلعت مدللها «لؤي» على كافة أسرارها، فيما عدا سر القبو الذي تركت لعرفان مهمة إبلاغه به.

جلس «لؤي» يراقب «منّة» دون أن تعلم، وأثار تعجّبه إقبالها على تناول الطعام بهات الشهية الملحوظة!!

لم تر الفتاة كاميرات المراقبة، ولكنها كانت من الذكاء بمكان حتى تتوقع بديهاً، وجود كاميرات مراقبة في كلّ غرفة من غرفات ذلك المكان العجيب؛ لذلك كانت حذرة إلى أن جعلت «لؤي» يطمئن إليها، ويتولّد لديه شعورٌ مبدئيّ بأنها سوف تقبل بعرضه، وتنضمّ إلى فريقه الدموي.. فبالإضافة لإقبالها على تناول الطعام؛ فهي لم تبحث عن هاتفها الذي أصبح بحوزته؛ حيث لم يُجب عن أيّ من عشرات الاتصالات التي وردتها من أهالي منطقتها

الذين بحثوا عنها بالأنحاء فلم يجدوا لها أثراً، فالتفوا في رحمةٍ ومواساةٍ لجدتها المسكينة، يثبونها الأمل في عودتها سالمة قريباً!!

لقد كان المكان - حيثُ باتت ليلتين متعاقبتين - يقعُ بأغوار الصَّحراء، وهو أشبه باستراحةٍ من طابقٍ واحد، يُحيطها سورٌ عتيق من الأحجار البيضاء، وبوابة إلكترونية كذلك، لا تعرف الفتاة أين هي تحديداً، ولا متى ستعود إلى بيتها وعملها بالمشفى، ولا كيف يمكنها الهرب من ذلك السجن المقيم؟!

وما تناولت الطعام إلا لكي تبقى على قيد الحياة.. حتّى تبدأ في تنفيذ خطتها التي ستدمر كلَّ شيء، أو تؤدّي إلى فنائها هي نفسها بهذا المكان المعزول عن العالم المحيط!



(دليل الصّحراء الغامض !!)

أطفأت «مِنة» المصباح بعد أن سحبت مزلاج غرفتها من الداخل، واسترخت فوق الفراش وسط ظلام دامس! وهي التي لم يستهوها الظلام مطلقاً، فمثّلها تعيش بالنور، وتعمل بالنور، وليس لديها ما يدفعها إلى أن تواريه بالظلام..

عاشق الظلام؛ إمّا أنه خائف أو هارب..

وهي لم تخف، ولم تقترب ما يدعو إلى الهرب، ليس هناك ما يُخيف أكثر ممّا سمعتُ ورأت ليلة أمس!

كانت تظنّ - وهما - بأنّ العفاريث والأشباح هي مصدرُ الارتعاب الأوحده على وجه الأرض..

ولكنّها الآن على يقينٍ بأنّ الإنسان هو المخلوقُ المخيفُ الأشرسُ بين جميع المخلوقات!!

حسبَ «لؤي» أنّها قد غطّت في نوم عميق، حيث لم تُظهر له كاميرات المراقبة بغرفتها سوى العتمة، فخلد إلى النّوم بعد أن تناول بعض الطعام الذي أعدّه «عرفان»، ثمّ تجرّع زجاجة خمر كاملة، ثمّ خار جسده مستسلماً للنوم!! راودتها فكرة التسلّل صوب غرفة «لؤي» عسى أن تجد أجهزة التحكم الخاصّة بالباب الرئيسي المفضي إلى الفضاء الصّحراوي الفسيح، ولكنّها تراجعته، تقول في نفسها:

- إنه ليس بهذه البلاهة، إذا حاولت أن أهرب الآن فسرعان ما سيكتشف أمري.

ثم سألت من عينيها دموع حارة، كما لو سألت من أعماق فؤادها الملتاع لخاتمة «مسعد» البشعة، وراحت تُحدثُ نفسها بلا صوت:

- أنا لستُ متشبّثة بالحياة إلّا من أجل جدّتي، ولو حامتُ شكوكُ ذلك المجنون حوّلي لسوف يلقي بي فريسةً للوحوش!!

ثم شدّت من أزرِ نفسها هامسة:

- اثبتي يا «مَنّة»، اثبتي!

ثم غفّت عيناها، فرأت - فيما يرى النائم - «مسعد» يرتدي حُلّة بيضاء ناصعة، قائم بشاطئ نهر جارٍ، يتلأأ مأوه كالأماس، ثم ينحني، ويملاً كفيه من ذلك الماء الرّقراق، ويدعوها لكي تشرب من بين يديه:

- هَلَمّي يا حبيبتِي، تعالي..

فتشرب، بينما عيناها تلتقي عينيهِ، وتنهلُ من الماء بين يديه، حتّى تحسّ بحلاوة الماء بحلقِها كالشَّهدِ المصفى.

شربتُ حتّى ارتوتُ، ثم رأْتُ «مسعد» يلوح لها مبتعداً، وابتسامته الرائقة تضيء وجهه البريء.



أفزعُها طرقاتُ قبضته البغيضة، وما زال الشفق يتسلل في تكاسلٍ نحو الأفق، فقطعتُ عليها لذة الحلم، وحرمتها وجه «مسعد» المشرق!

وضعتُ «منّة» غطاء رأسها؛ فهذا الشيطان لم يكن، ولن يكون لها أخًا بأيّ حالٍ من الأحوال، ثم استقبلته بابتسامةٍ واسعة أثارت دهشته، فجالت برأسه علامات تعجبٍ لا تحصى!

حارَ في أمرها، وتساءل في نفسه.. ما الذي بدّل حالها؟! وما الذي جعلها تهشّ في وجهه بكلّ ذلك القبول؟! أليست هي التي كانت تزدرية أمس، وتبغضه؟! أليست هي نفسها من نعتته بالجنون، والشّيطة؟!!

لا بدّ وأنها تخفي شيئاً من الأسرار، لم يُطق «لؤي» صبراً، فسألها:

- ماذا بك! أنا هو المجنون، أم أنت؟!!

في تغابٍ مقصود استنكرت بمرح:

- ولم تقول ذلك يا «لؤي»؟!!

أصابه الذّهول، إنّها تدعوه بالاسم الذي يحبّ، لا باسم «شريف» الذي يكره!!

باغتته بما يشبع فضوله البادي بمقلتيه:

- لا داعي للتعجّب يا أخي، أليس اسم «لؤي» هو المفضّل لديك؟ لذا

ما الدّاعي إلى أن أدعوك باسم لم يكن لك؟ وما الدّاعي إلى أن أذكّرك بأناس لم تعرفهم، ولم تشبّ بينهم؟!!

ثم استدركت، تبتسم في رقة:

- كم كنت مخطئة! لقد فكرت ملياً في كل كلمة قلتها لي أمس، فوجدتُك على حق؛ هذه حياتك، ولا شأن للإنسان سواك بها، أن تصبح «لوي»، وتعترف بفضل تلك السيِّدة، التي قدّمت لك كل ما تملك؛ فهذا أمرٌ لا غبار عليه!

حملق بها في صمتٍ، ثم سأها:

- أمرك عجيب يا ابنة القباني، في ليلة واحدة تصبحين بكلّ ذلك النضج؟! أو مأت مؤكدة:

- بل قد يتبدّل حال الإنسان في لحظة واحدة، لا خلال ليلة كاملة.. نحن البشر، أعجبُ المخلوقات فوق ظهر ذلك الكوكب.

رمقها بعين الإعجاب، وراق له ما قالت، فسأها:

- وهل تبدّل موقفك كذلك من مسألة العمل معي، أم تسيرين على سطرٍ، وتتركين آخر؟!

في عجالة، كانت إجابتها مُعدّة، وحاضرة:

- إن ليلة أمس قد جعلتني فتاةً أخرى، حتّى لكأنني لم أعد أعرف أين ذهبت «منّة» الرجعية القديمة!

- إذاً، ستنضمّين إلى فريقنا المُبهر!!

- نعم، وبكل تأكيد، ولكنننن.....

غام وجهه، فسألها:

- ولكن ماذا؟!

في صوتٍ ملؤه التوسل، قالت:

- - لي لديك رجاءٌ أولاً.

قال في الحال:

- أعرّفه، تودّين أن أطلقَ سراحَ الدكتور «وديع مكرم»، أليس كذلك؟!

أومأت مؤكّدة، وهي تبكي:

- ورجاءٌ آخرٍ أخيرٍ من فضلك.

زوى ما بين حاجبيه، فقالت:

- اتركني أذهب؛ كي أطمئنّ على جدّتي، فكما تدينُ بفضل السيدة «آسيا» في

تربيتك، أنا كذلك لن أنسى معروفَ جدّتي؛ حيث لم أجدُ من يحنو عليّ سواها.

في حدّةٍ، سألها:

- وماذا يؤكّد لي أنّك سوف تَعودين من تلقاء نفسك، وبكامل إرادتك؟!

ثمّ راح يهدّدها بصوتٍ أجش:

- إذا فكّرتِ في خداعي فلسوف أعثرُ عليكِ حتّى ولو كنتِ بنهاية

العالم، وحينئذٍ سوف أمزّقكِ إرباً، وأطعمُ قططي المتوحشة من جسدكِ أمام ناظريك.

أقسمتْ له أنّها ستعود باليوم نفسه، ولكنها تحشى أن تموت جدّتها حسرةً

عليها.

فقال وقد تغير وجهه واكتسى بالصّرامة:

- سأجعل عيني عليك، إياك أن تبرحي منزل جدّتك إلى مكان آخر،
ولّا فلن تشرق شمسُ الغد على جدّتك هذه، أمّا أنتِ فسوف أنكلُ بكِ إلى
أن تتميّ الموت!

طأطأت رأسها في رضوخ تامّ، تقول بصوت خفيض:
- لك ذلك.

أقلّتها سيارة دليل الصّحراء المثلّم، ذلك السائق الذي كلّما رفعت رأسها
وجدته يحدّجها بالمرآة في ترقّب شديد، كمن يخشى أن يخسر كنزاً ثميناً..

كان الدليل شاباً مفتول العضلات، قويّ البنية، ذا بشرةٍ سمراء - بدا لونها
واضحاً من خلال ساعديه العاريين، وما يحيط بعينه من سمرة ملحوظة
- صبغتها شمسُ الصّحراء بصبغتها المميّزة، له مقلتان سوداوان مميزتان،
يحيطهما بياض عينية رائعاً صافياً.. لم يتفوّه بكلمة واحدة طوال الطريق..
كان ذلك الدليل يعلم جيداً أنها أخت سيّده «لؤي بيه»، ورغم غلظة «لؤي»
ومجونه، إلّا أنّه أوصى ذلك الدليل بالحرص عليها حتّى يوصلها إلى وجهتها
بحيّ الوراق، ويراقب منزل جدّتها جيداً، وإذا خرجت الفتاة من المنزل،
فعليه بالاتّصال به على الفور، وإعادتها إليه حيث مقرّه الحالي بقلب الصّحراء
بأيّ ثمن، ثمّ أكّد عليه بأنّها سوف تستقلّ سيارته بتمام السابعة مساء اليوم.
أبدى الدليل السّمع والطاعة التامة، فأنقذه «لؤي» مبلغاً كبيراً من المال
نظير تلك المهمّة.

الوراق، ١٢ يوليو ٢٠١١م، الثانية عشرة ظهرًا، منزل «رشاد القباني»..

تنحى الدليل على مقربة من الشارع الذي تقطن به «منة»، وراقبها، ورأى بنفسه كيف استقبلها الجيران استقبالًا حافلًا، وعلت الزغاريد، وهتف الناس جميعًا:

- يا أم رشاد، لقد عادت حفيدتك، لقد عادت «منة»، أبشري يا «أم رشاد». عانقتها جدتها بشوق، وبدموع فرح منقطعة النظير، فقد ردت إليها روحها بعودة حفيدتها الغالية، ولا حقتها أسئلة جدتها، والجيران:

- أين كنت يا «منة»؟!

لماذا لم تحبيي على اتصالاتنا يا ابنة الطيبين؟!

لماذا؟.. لماذا؟.. لماذا؟!

أرادت الفتاة أن تغتنم كل ثانية، وإلا فلن تعود إلى حياتها مرة ثانية، فطمأنت الجيران الذين اكتظت بهم جنبات المنزل المتواضع، رغم أنها لا تتقن الكذب إلا أنها اضطرت إلى أن تقول:

- لقد سقطت هاتفي، ولم أجده، ولقد استدعيت مع الدكتور «وديع» إلى العمل مؤقتًا بمشفى بمحافظة ساحلية؛ حيث وقع حادث، وكان المشفى بحاجة ماسة إلى طاقم طبي متطوع لإسعاف المصابين!!

ثم أمسكت برأسها، وهي تقول بصوت واهن:

- أشعرُ بضداعٍ شديد، من بعد إذنكم أريد أن أنا؛ حيث لم أنم منذ أول أمس!

دعا له الجيران، وعلى رأسهم الشيخ «شعبان»، إمام الزاوية، بالشفاء والصحة، ثم انصرفوا جميعاً.. بينما أقبلت الجدة على سجادة الصلاة تؤدّي ركعتي شكرٍ لربها، لعودة حفيدتها سالمة.

بدلت «منة» ملابسها في عجاله، فيما تضرب فوق لوحة الكمبيوتر القديم خاصتها، تبحث عن شيء من خلال متصفح البحث «جوجل».. كانت تبحث في سرعة بالغة، تصارع الثواني، والدقائق.. تهلل وجهها بينما غمرت مقلتيها فرحة، هي وحدها من تعرف سرّها، ثم التقطت ورقة وقلماً، ودوّنت بعض العناوين، وأرقام الهواتف، ثم طوّتها، ووضعتها داخل حافظة جلدية تحتفظ بها بصور فوتوغرافية قديمة صغيرة الحجم لأبيها وأُمّها وأخيها «شريف» قبل اختطافه بعمر الثالثة، لقد حصلت على هاتيك الصور من جدتها قبل أعوام خلت.

حانت منها التفاتة ناحية رفّ خشبيّ مثبت بين جدارين من جدران حجرتها المتواضعة؛ حيث طالعت «راديو» خليل العجايب، ذلك التذكار الذي أوصى من حوله بالمشفى بأن يعطونها إياه إذا حان الأجل قبل أن يودّعها، انسلت دمعاً من عينها حالما تذكرته، ومصيره الأليم!!

مسحت دمعتها، ثم خرجت بسرعة تقول لجدتها التي كانت قد انتهت للتو من الصلاة:

- جدّتي، أسرع، وأحضري لي المال الذي ادّخرته معك كلّ!

الجدّة في تعجّب:

- المال كلّهُ!!؟ إنّهُ «تخويشة عمرِك» يا حبيبتي، فماذا ستفعلين به؟ وأين ستذهبين، ألم تقولي إنّك تريدين النوم؟!

قالت «منّة» في اضطراب بالغ:

- سأشرح لك فيما بعد، أرجوكِ يا جدّتي، أعطني كلّ المبلغ المدخّر؛ فإنّها مسألة حياة أو موت!

- ماذا بكِ يا صغيرتي؟!

- أرجو ووكِ يا جدّتي، أسرعِي، وإذا جاءكِ أيّ إنسان كائنًا مَنْ كان ليسأل عنيّ، فقولي له «إنّني نائمة، وأنتِ لا تستطيعين إيقاظي قبل السادسة مساءً».

الجدّة في فزع:

- ولكنّ لماذا؟ ولمن ستُعطين ذلك المبلغ الكبير؟!

جرت دموع «منّة» وهي تقبّل يدي جدّتها «بسيمة»:

- أتوسّل إليكِ يا حبيبتي، لا تسلّيني عن شيءٍ الآن، افعلي ما قلتُ لكِ، أرجو ووكِ!

أومأت الجدّة موافقة، ودلّفت إلى حجرتها، ثمّ سرعان ما عادت وفي يدها كيسٌ بداخله (ثلاثة وعشرون ألفَ جنيه) ..

دَسَّتِ الفتاة الكيسَ داخل حقيبتها، وعانقت جدّتها، ثم ذهبت، وهي تقول لها:

- لا تنسي يا جدّتي، قولي لكلّ مَنْ يسأل عني إنّي نائمة، أرجوكِ.

لم تخرج من باب البيت، فإنّ عينا دليل الصّحراء الملثم سوف تتعقبها، وهي تعترم العودة من الأماكن التي تقصدها قبل الغروب.

عبرَ أسطح بيوت الجيران تسلّلت، حتّى غادرت الشارع الذي تسكن به من خلال أزقة خلقيّة ملتوية، ابتعدت عن المنطقة، وغابت بين الرّحام بسوق يعجّ بالزبائن، كانت تغذّي السير قُدماً، تُهرّول، بينما تتلفّت من حين لآخر؛ تخشى أن يكون الدليل قد لمحّها حال مغادرتها بيت جدّتها، لهثت، ولهجت بحمد الله.

أقلّها «تاكسي»، قائده ثرثار، ذو عينين زائغتين، ظلّ يحاول أن يختلق معها عدّة أحاديث، ولكنّها لم تكن تعقب على ما يقول، حتّى باغتها بسؤاله:

- أظنّني رأيْتُكِ من قبل، ألسنِ رئيسة ممرضات مشفى الوراق العام؟!

أحسّت بقلبها يسقط بين قدميها، هدرت فزعة:

- توقّف هنا، أنزلني فوراً.

تلكاً السائق السّخيف حتّى لبّى طلبها، فألقّت إليه بعض الجنيّهات، ثمّ انطلقت كالسّهم صوب سيارة أجرة أخرى، كان يقودها عجوز تبدو على وجهه سياء الصّالحين..

أخبرته بوجهتها الأولى من واقع الورقة التي دَوَّنت بها العناوين، التي نقلتها من خلال شاشة حاسوبها بالمنزل، فأوصلها في وقتٍ قياسي؛ حيث أشارت الساعة بيدها آنذاك إلى الواحدة والنصف وخمس دقائق، وطلبت إلى السائق أن يبقى بانتظارها..

لم تجد بُغيثها بالعنوان الأول، فأقلَّتْها السيَّارة إلى العنوان الثاني، فلم يكن هو العنوان المنشود كذلك..

الوقت يمرّ، وقد أوشكتُ كافّة الشركات على الانتهاء من مواعيد عملها الرسمية..

دلفتُ كمنّ مسّها صاعقٌ كهربائي، يتنفّض جسدها، ويتحشّج صوته، وهي تسأل أحدَ الموظّفين الذي كان يجمع أغراضه استعدادًا للانصراف بعد خمس دقائق تقريبًا؛ حيث سينهي دوامه بتام الساعة الثانية تمامًا، وكانت الساعة تشير إلى الثانية ظهرًا إلا أربع دقائق:

- من فضلك، أهذه هي شركة (E . E . D . C) ؟!

أجاب الموظّف بلامبالاة دون أن ينظر إليها:

- أأنتِ أميَّة، لا تعرفين القراءة؟!

ثمّ قال في سخرية، وهو مُنهمكٌ في جُمع بعض الأوراق:

- أيجبُ أن نصمّم لوحةً توضيحية باسم الشركة أكبر من تلك اللوحة التي

تشغل نصفَ البناية المكوّنة من عشرة طوابق حتى يُمكنك رؤيتها بوضوح؟!

اختنق صوتها بالدموع، وهي ترجوه بقولها:

- أرجوك، لا وقتَ لديّ، أجبني، إنّها مسألة حياة أو موت!!

صوّبَ الرجل ناظريه نحوها، وأحسَّ أنّ ثمةَ أمرًا غيرَ طبيعي يجري، فقال:

- اهدهني أنستي..

ثمَّ أجاب في نوعٍ من التعاطف، والتجاوب:

- هذه بالفعل هي شركة (E . E . D . C) للبوابات الإلكترونية، والأبواب الجرّارة، والنوافذ بكافة أنواعها.. وتلك الأحرف الأربعة، هي اختصار لاسم الشركة الأمّ، وهي شركة إيطالية الأصل، ولكن اسمها اسمٌ إنجليزي، هو (Elca electronic doors company)، وهذا الفرع هو أحد فروعها المنتشرة بمعظم بلاد العالم؛ فما هو طلبك بالضبط؟!

على الفور قالت، وهي تنشجُ رغماً عنها:

- أريدُ أجهزة تحكم بديلة، فقد فقدتُ «أجهزة الرّيموت كنترول» الخاصة بالأبواب التي قامت شركتكم بتركيبها لنا.

سألها، وقد بدا مُمتعضاً فيما يطالع ساعته:

- ومنَ أنتم؟ أعني.. ما هو عنوانكم الذي رُكِّبَ به أبوابنا الإلكترونية؟!

امتقعَ وجهُ «مّته»، وازدردت ريقها في توترٍ ملحوظ، وصالَ ذهنُها وجال بحثاً عن ردٍّ لا يكشف هويّتها، ولا شيء عن قبو «لؤي» وعصابته، ولكنها

سرعان ما اهتمت إلى ردّ جعل الرجل يتجاوز عن ذلك السّؤال، فمسحت دموعها، وتظاهرتُ برباطة الجأش، وهي تقول:

- لا يُمكنني أن أخبركَ بالعنوان، فأنا أعملُ بجهةٍ سياديّة هامةٍ بالبلاد، وأيّ معلومةٍ حول العنوان قد تُعرّضني وإياكَ لخطرٍ جسيم!!

شحبَ وجهُ الرجل، وقال:

- آسف يا سيّدي، لا أستطيع أن أفيدك، فقد حان وقتُ الانصراف الرسمي، شرفينا غداً، فلربّما نستطيع مساعدتك.

ماذا عليها أن تفعل الآن، والخطرُ يقتربُ بمرور الوقت من جدّتها، ومن الدكتور «وديّع»؟! لا بدّ وأن تفعل شيئاً، وإلا فلن تواتها مثلُ تلك الفرصة ثانية!

همّ الرّجل بالانصراف، فيما يجيبُ على اتّصالٍ واردٍ من زوجته:

- حاضر يا حبيبتي، لن أتأخّر، أعدّي المائدة.

ركضت «منّة» خلفه، وتشبّثتُ بذراعه، متوسلة:

- ساعدني، رجاءً، مستقبلي العملي في خطر، وسأعطيك المبلغ الذي تريد.

أنهى الرّجلُ المكالمة، وقد أغراه ما قالت، فعاد إلى مكتبه، ثم فصلَ أسلاك كاميرات المراقبة، خاصّةً بعد أن انصرف جميع الموظفين، وقد وعد السّاعي بمبلغ معقول لقاء تكتّمه الأمر، ثم عادَ إلى حيث تجلس الفتاة، وسأها مباشرةً:

- إذا أريتكَ صور البوّابات التي تصمّمها شركتنا هل تستطيعين تحديد

التصميم، الذي تريدن أجهزة تحكّم له؟!

تهلّلت أساريها، وصاحت في فرح:

- نعم، نعم، بكل تأكيد.

أعاد تشغيل حاسوب الشركة القابع فوق مكتبه الصغير، وبدأ يعرض عليها كافة صور منتجات الشركة من الأبواب الإلكترونية منذ افتتاحها بمصر قبل عشرين عاماً، وحتى تلك الساعة، بينما الرّجل على تلك الحال إذ أخذ هاتفه يومضُ باسم أطلقه على زوجته، وقد سجّل رقمها بهذا الاسم؛ «الزّنانة»!!

مضى ما يقرب من خمس وأربعين دقيقة، حتى انفرجت أساري الفتاة، وهي تطالع في سعادة صوراً ماثلة للبوابات المعدنية الملّساء التي رأتها بالقبو، ولكنها لم تعثر بعد على صورة لبوابة زجاجية ذات زجاج سميك كاتم للصوت، واستمرّ البحث، وبدأ الاضطراب يتسرّب إلى نفس كل من الموظف الذي ستصعد زوجته أمر تأخّره عن موعد الغداء إلى أمها «حماته»، وكلّ عذاب قد يهون لديه دون وصلات التّبكيّ والسّخرية والشّجار التي تتحيّنها حماته الملاك!!

وكذلك إلى نفس «منّة» التي يتحتمّ عليها العودة إلى منزل جدّتها قبل الساعة السادسة والنّصف على الأقلّ، وها قد بدأ الاختناق المروري بشوارع وسط البلد الرئيسيّة!

بعد مُضي ساعتين وثلاث، عثرا على البوّابة الزجاجيّة المنشودة، فتنفّسا الصّعداء!

أجرى الموظف عدة اتصالات بأمين مخازن الشركة الذي كان نائماً، واستدعاه للعودة إلى الشركة على الفور، أسهم الزحام المروري، وعدم حصول أمين المخازن على فترة نوم كافية، كتلك التي قد اعتاد عليها قبل أعوام؛ إلى تأخره عن القدوم إلى الشركة حتى الساعة الخامسة تقريباً.

ثم أعطاه الموظف مواصفات تلك البوابات بدقة، وأخيراً حصلت «منة» على أجهزة التحكم المطلوبة نظيرَ عشرين ألف جنيهٍ كاملة، كان بالطبع لأمين المخازن من ذلك المبلغ نصيبٌ مفروض!

لم تعترض الفتاة على المبلغ المبالغ فيه نظيرَ جهازي تحكم لا غير - أحدهما خاصّ بالبوابات المعدنية، والثاني من أجل البوابة الزجاجية السميكة - فحياة الدكتور «وديع مكرم» يرخّص لأجلها كلّ غالٍ، كذلك حياة جدّتها الغالية.

طلب إليها الموظف عدمَ ذكر أي شيء حول مساعدته لها، ولا عن المبلغ الذي نقدته إيّاه، فأكدت له ذلك. ولم تتبقّ مُعضلةٌ أمام «منة» سوى الوقت..

الوقت يتسرّب كالزّمال الناعمة من بين الأصابع!!

عادت إلى السائق العجوز لتجده قد غلبه النّعاس، أيقظته بطرق هادئ على زجاج النّافذة، التي أسند رأسه إليها، رغم قلقها الشديد، ثم انطلق بها صوب الورّاق، هبطت بناحية نائبة عن بيتها، حتّى لا يعلم دليل «لؤي» بخروجها، وقد كانت فوق سطح الجيران بتمام الساعة السابعة إلا دقيقتين.

ضغطت زرّ جرس البيت، ولن تدخل رغم الجوع والظمأ اللذين استبدا بها؛ وإنّما عانقت جدّتها، قائلة:

خذي يا حبيبتي، هذا ما تبقى من المال، لا تسأليني الآن عن شيء، فسوف أتأخّر عن العمل.

لا تقلقي، فقد أغيب أسبوعاً، أو أقل، أو أكثر، لا أدري بعد.

ثم انسابت دموعها، وهي تقول، بينما تُولي ظهرها جدتها:

- ادعي لي كثيراً؛ فأنا بحاجة ماسة إلى دعواتك الآن.

ثم عادت لترتمي بين ذراعي جدتها التي بادلتها العناق وسط الدموع، وهي تقول:

- عسى أن ألقاك قريباً!!

دست جهازَي التحكم الصغيرين بين جوربها وساقها؛ فسوف يفتش «لوي» الماكر حقيبتها خلسة.. وعليها ألا تترك وراءها دليلاً يُخل بثقته بها فيمكر بها، وبجدتها، وبالذكّور «وديع» كما هددها صباح أمس.

ثم هبطت الدرج، تسير على مهل إلى حيث قبع الدليل بانتظارها داخل سيارته.. قبل أن تصل إلى السيارة، وبينما راح الدليل يُدير المحرك عندما رآها تقترب؛ إذ تذكرت شيئاً هاماً، فاستأذنت من الدليل ملثم الوجه أن يسمح لها بشراء شيء تأكله من حانوتٍ بالشارع ذاته، متعللة بأنها لم تأكل شيئاً منذ الصّباح الباكر.. فتعجّب، وتساءل: كيف لها أن تُمضي ما يزيد عن ست ساعاتٍ بيت جدتها، ولم تتناول الطّعام؟! ولكنه لم يعقب خشيةً أن تتعرّف عليه بعد ذلك من خلال صوته، وقد تشي به يوماً للشرطة، فأثر السكوت، واكتفى بإيماء الموافقة برأسه.

أمّام محلّ البقالة، أخرجت الورقة التي سبق ودوّنت بها عناوين شركات البوابات الإلكترونيّة، تلك الشركات الثلاث التي تتشابه أسماؤها ببعض

الحروف الإنجليزية، ومزقتها، ثم ألقت بها أسفل قدميها دون أن يتنبه «الدليل» إلى ما فعلت..، فتنفست الصعداء، وقد زال الجبلُ الجاثم فوق صدرها.

لم يكن «لوي» ليرتد في قتلها، إذا عثر على تلك الورقة بحقيبتها.. ابتاعت بعض المقرمشات، وزجاجتين من المياه المعدنية، وقدّاحة، قد ألقت بها داخل كيس الطعام.. ودلفت إلى داخل السيارة، ثم عرّضت على قائد السيارة تناول بعض مما ابتاعت من مأكولات سريعة، فأشار بيده فيما معناه؛ «لا أريد»، فشرعت تتناول بعض «البسكويت»، وتشرب «زجاجات المياه المعدنية الصغيرة»، حتى إذا ما أحاط الظلام بالسيارة؛ إذ التقطت القدّاحة، ثم دسّتها فوق ساعدها الأيمن أسفل «البدي» الذي كانت ترتديه أسفل ثوبها الفضفاض.

ظلت تفكر فيما يخبئه لها «لوي»، حتى غلبها النوم بالمقعد الخلفي بالسيارة.. مما أثار الأسئلة بذهن ذلك الدليل الغامض، فحدّث نفسه:

— «ماذا وراء هذه الفتاة؟ كيف لها بعد أن أمضت ساعات بيت جدّتها أن تعود جائعة، وتغطّي في النوم سريعاً هكذا؟! »

كان الدليل يشعر بالجوع الشديد، والظمأ كذلك، فلم يجد ناظره عن باب بيت جدّتها، فلقد حذره «لوي» من فقد أثر الفتاة، وبما أنّ هدف الدليل هو المال، وعدم ترك ذلك العمل الذي يدرّ عليه ربحاً وفيراً؛ فقد تحمّل الجوع والظمأ طيلة ساعات مراقبته للبيت من وراء زجاج سيارته الثمينة، وعندما

عرضت عليه «منة» الطعام، ودَّ لو تناول أيَّ شيء يُسكِّتُ قرقرةَ بطنه، ولكن عند تناول الطعام كان سيضطرُّ إلى أن ينزعَ لثامه عن وجهه، ولسوف ترى الفتاة وجهه بوضوح.. وهو الذي كان يحتاج أشدَّ الاحتياط لكيلا يقع ذلك الأمر!

انتشى «لؤي» عند رؤيتها؛ حيث كان بانتظارها أمام البوابة الخارجية للاستراحة:

- يبدو أنني سأثق بك!!



(في أجواء مدينة الملائكة!!)

«موط»..

«موط».. هي «مدينة الملائكة»، هكذا يسمونها منذ أن اختفى بها المسيحيون من بطش واضطهاد الرومان قديماً.. تلك المدينة التي يمتد تاريخها إلى ١٠٠٠ عام قبل ميلاد المسيح «عيسى» عليه السلام.

«موط».. مدينة ساحرة، تقع وسط الصحراء الغربية المصرية بمحافظة الوادي الجديد، تبعد عن صخب العاصمة المصرية «القاهرة»، حتى لكأن زائريها يشعرون بأنهم قد انتقلوا إلى عالم أخروي هادئ، لا يمت لعالم الدنيا المزعج بصلة!

تبعد تلك المدينة الساحرة عن العاصمة بما لا يقل عن ٨٠٠ كيلومتراً تقريباً، وهي عاصمة واحة «الداخلة».

سميت «موط» نسبة إلى «موت» زوجة الإله «آمون» بالعصر الفرعوني.

الشيخ «زارع»، اسم أشهر من النار على العلم كما يقولون؛ حيث يجمع في شخصه بين الورع والكرم والحكمة، لقد صادق الصحراء فمنحته فيضاً من أسرارها، وأجمع جميع أهالي الواحات على محبته وتوقيره، حتى السائحون الذين يمرون بدروب «موط» لا يتوانى عن إهدائهم علب التمر المميز بلا مقابل.. داره مشرعة الأبواب أمام الضيوف من كل حدب وصوب.. يأخذ

جميع أهل الواحات بمشورته، هو سيّد القبائل، التي ما تسيدّها إلا بتواضعه، ومساندته الجميع.

عابرو الصّحاري عبر العصور كثر؛ حيث وجدوا بها ضالّتهم، ما بين التّقيب عن المعادن، وتجارة السلاح، والاتّجار بالمخدرات التي تنوء بها ظهور إبّليهم، لكنّ كان الشّيخ «زارع» نشاطه الخاص الذي توارثه أبّا عن جدّ؛ أسماه أبوه «زارعاً» حتّى يظلّ يداً تغرس شتلات النّخيل، ويحني رطباً جيّاً، يصل إلى أفواه الملايين من أغوار جنوب البلاد إلى أقاصي الشّمال، ومن شرقها حتّى غربها، فكان اسماً على مُسمّى «الزارع الجوّاد».

النّخلة.. هي أمّ الفلاة؛ حيث تلقي إلى أهالي الواحات بالتمر، ويأخذون منها اللّيف، حتّى نوى التمر قد صنعوا منه أطيب أنواع القهوة.

لولا النّخلة ما كانت الواحة، لولا النّخلة ما طابت الصّحراء لبشر، لولا النّخلة ما كان الظلّ، وما سُقيت منازلهم، عشق «زارع» النّخيل، وتعلّم منه العطاء، علّمه النّخيل حبّ الله، وعشق الجمال، فأورث قلبه الرّضا.. رزق بولده الوحيد «عيّاش» بين ابنتين آيتين في الحُسْن والرّقّة، هما «نعب، ورُبا».

لم يقتف «عيّاش» ابن الشّيخ «زارع» أثر أبيه، فعزف عن مهنة أبيه وأجداده؛ حيث رغب بالمكسب السريع، المحفوف بالمخاطر، ولكن لعلّه وجد الأجر يستحقّ المغامرة، فغامر!

ولكنّ «رمّاح» ابن أخ الشّيخ «زارع» كان سنده من دون الابن الذي جاء من صُلبه..

فلمْ يَأْنَف «رَمَاح»، رعي الغنم، ولمْ يَأْنَفْ طُلُوعَ النَّخْلِ، وجمع التمور،
مازال «رَمَاح» يحلم بالليلة التي تجمعُه بَابنة عَمَّه الصُّغرى، «رُبَا»، ريجانة
الواحة، وبدر السَّماء!

خطبها من أبيها؛ فقال له الشَّيخ الحكيم:

- لو لمْ تطلبها بنفسك لزَوَّجْتُكِ إِيَّاهَا رَغْمًا عَنْكَ؛ لأنَّكَ رجلٌ بِحَقٍّ يا
«رَمَاح».

ثم طأطأ الشَّيخ رأسَه فيما يجوس بأصابعه بالرَّمال:

- لَيْتَ «عِيَّاش» كان مثلك، ولكنَّه تَمَرَّدَ على حياتنا، وسحَرَتْهُ المدن
وأهلُها من دوننا!

يقولُ «رَمَاح» بوجهٍ باسمِ كعادته، وصوتٍ يفيضُ رَحمةً وشفقةً:
- هُوْنٌ عَلَيْكَ يَا عَمَّ «عِيَّاش» ما زال صغيرًا، دَعَه لَلْأَيَّامِ فتعلَّمَه ما لمْ يَـ
بعد.

أقبلتُ «رُبَا»، تشدُّ وشاحها فوق ثَغْرِها الدَّقِيق، تقول على استحياء:
- الطَّعام جاهزٌ يا أبت.

بينما رانتُ منها التفاتةٌ نحو «رَمَاح»، فالتقتُ مقلتاها، ففاضتُ يَنابيع
الشوق، وتَفَجَّرَتْ بَوْحًا بها يعتَمَلُ بالقلوب من دون كلمة واحدة.. فالعينُ
تفصح عن خبايا الصِّدور، وتقول الكثير.. ولكنْ ليس لكافَّة البشرِ هبةُ
الإنصات لبوحها الرهيف!

- هيا يا «رمّاح» لتناول الغداء، لقد تعبت معي اليوم يا ولدي.

- يا ليت كل التعب معك ولأجلِك يا عمّاه.

خطرث «رُبّا»، ابنة الشّيخ «زارع» الصّغري كاللّدى يتقاطر على وجه الفلاة، فتربو تحت قدميها، وتخرج الخير حيثما حلّت!

ولدت بموسم حصاد التّمر، ذلك الموسم الذي لم ير والدها الشّيخ «زارع» أفضل منه؛ حيث فاض المحصول وتضاعف، وكأنّ معجزة من السماء قد نزلت بأرض الواحة «الداخله» بأسرها، وبمدينة «موط» على وجه الخصوص؛ فباركت الرمال، وحبلت قمم النخيل بالعراجين المثقلة بالتّمر بكافة ألوانه وأنواعه!

لذا؛ ما فتى الشّيخ يدعوها بـ «وجه الخير» تارة، وبـ «قدم السّعد» تارة أخرى، يراها «رمّاح» كنجمة التّمعث وسط سماء معتمة، كزهرة عاطرة انفلق عنها الصخر فأيقن من رآها بأنّ هنا حياة مازالت تولد، وتتجدّد.

أنشد يترنّم يسامر القمر وحيداً، والصحراء تردّد معه:

- أيّا «رُبّا»، يا عالية المقام

كيف للصبّ من دونك مُقام؟!

أيّا غصن زيتون يروم السلام

إليك من قلبي جميل السّلام! بموسم الحصاد، سيجتمع شمل الحبيّين.. عندما يحين حصاد التّمور، تتوالى الأفراح، وليال السّمر الملاح.. بات «رمّاح» يرقب أعالي النخيل؛ عسى أن يغدو الحصاد قريباً!!

بحلول المساء، أراحت «رُبا» رأسها فوق وسادتها، تستدعي مخيلتها وجه «رمّاح» المليح الذي ينضح رجولة وورعاً، وعيناه اللتان تقطران حباً خالصاً لها؛ فابتسمت، وتنهدت، وقد فاض فؤادها له حباً؛ ولسان حالها يناجي طيفه:

- أيها الساكن بالقل،

يا عابر الأحداق؛

أما أنختَ لدينا الرّحال؟!

فيما راحت أختها الكبرى «نبيع»، التي تكبرُها بخمس سنوات، تداعب طفلها الصّغير، الذي لم يكمل عامه الرّابع بعد، وتقول له:

يا «وليد»، ليشتدّ عودك يا صغيري، وتكبر،

وتصبح رجلاً صالحاً مثل أبيك في كلّ شيء.

ثمّ فاضت عينها بدموعٍ حارة، أغرقت وجنتيها الرائقتين.

انتبهت «رُبا» من شرودها، واعتدلت، تعانق أختها الثّكلى «نبيع»، قائلة:

- ربّي يربط على قلبك يا حبيبتى.. لقد رحل «طلال» قبل مولد «وليد»،

أي قبل خمس أعوامٍ تقريباً، فإلى متى ستظّلين تبكينه؟!

نشجت «نبيع»، وهي تضمّ صغيرها إلى صدرها في حنو:

- إلى آآآآآآآآ آخر رمقٍ في عمري يا «رُبا»، إنّ مثل رجلٍ كطلال لا يُنسى،

لقد فارقتني روحي معه حينما رحل.

استطردت «رُبا» ابنة السابعة عشر، تقول:

- ولكن صفوة رجال الواحات يتمنون ظفرك يا ابنة شيخ الواحات، مَنْ لا يتمنى زوجةً مثلكِ، ومصاهرة الشيخ «زارع» يا أختي؟!

ثم واصلت إقناع أختها ببدء حياة جديدة:

- ودّعي الماضي يا «نعب»، أنسيه يا أختاه، وابدئي حياةً جديدة، لعلّ السعادة تقف ببابك، ولكنكِ لا ترينها من بين دموعك الغالية تلك يا حبيبتي.

في حزمٍ قاطع، قالت «نعب»:

- لا يا «رُبا»، أنا لم.. ولن أحب رجلاً مثلما أحببتُ طلالاً.

ثم رمقت وجه طفلها الجميل، وقبّلتها قائلة:

- «وليد» هو ابني وزوجي، وكلّ حياتي يا «رُبا»، سأعيش من أجله، ولن أتزوج بعد أبيه رحمه الله.

ثم كفكت «نعب» دمعها، وهي تبسم في صدق:

- فرحتي الحقيقية يا حبيبتي ليلة زفافكِ إلى «رمّاح» - ابن عمنا - فهو رجلٌ مخلصٌ بحقّ.

لقد عوّضنا الله به عن أخينا «عيّاش» الذي يمكث أياماً وأشهرًا لا يأتي لزيارتنا، ولا يمرّ بديارنا مرور الكرام؛ للسؤال عن أحوالنا.

مساءً يوم ١٣ يوليو ٢٠١١م..

مستودع «لؤي» بقلب الصحراء الغربية، الثامنة مساءً..

دعا «لؤي» «مَنَّة» إلى العشاء بغرفته وسط الأضواء الخافتة، بينما أخذ يحتسي كئوس الخمر وسط دهشتها؛ حيث تركها تخلصاً للنوم اليوم حتى انتصف النهار، دون أن يجبرها على الهبوط إلى القبو مثلما فعل قبل أمس.

لم يتحلَّ بالرَّأفة التي تجعله يمنحها فرصة الرَّاحة تعويضاً عما لاقت على يديه من صدمات متعاقبة؛ وإنما أراد أن يدعها تستجِم بعض الوقت استعداداً لأمرٍ جليل، لم تتناول شيئاً من العشاء، وعاجلته بسؤالها:

- ماذا عن وعدك لي؟!

تظاهرَ بعدم فهم ما تقصده، فقالت تداعبه ضاحكة:

- ألم أطلب إليك أن تحرّر الدكتور «وديع»، إذا ما وقَّيتُ لكَ بوعدِي وعدتُ الليلة إليك؟!

- بلى، ولكن.....!

- ولكن ماذا يا «لؤي»؟! (سألت في قلقٍ بالغ..)

أجابها وهو يحكُّ ذقنه الحليق، ويمطّ شفّتيه:

- «لنهار عيون» كما يقولونَ يا «مَنَّة».

ارتدت قناعاً زائفاً لابتسامةٍ واسعة، وقالت:

- عندك حقّ، «الصّباح ربّاح»، كما يقولون أيضاً يا أخي.

كان يسمح لها بأن تدعوه بلقب «أخي» لحاجته إليها، ورغبته في إقحامها بعالمه الإجرامي، لخبرتها التمريضية الواسعة، أو لعلّه أراد أن يشعر بشعور الأخ «غير الوحيد» لمجرّد تجربة ذلك الشعور ليس أكثر، ولا بأس من أن تدعوه بكلمة «أخي»، مادام ذلك اللقب لن يتجاوزهما إلى مسامع الآخرين.

قال مُعقّباً:

- وأيّ صباح يا صغيرتي! بتمام العاشرة صباحاً؛ (بعد غدٍ)، سوف يصلنا خير كئيسيسيسيرٍ يفوق كافّة توقعاتك.

ازدردت ريقها في هلع، وسألت:

- كَ، كَ، كَكَكِيفَ، لا أفهم؟!!

- فلتستريحِي غداً فقط، ثمّ بعدَ غدٍ، بتمام العاشرة صباحاً سوف يصلنا عددٌ كبير من الأطفال المخدّرين، لقد جلبناهم من «سنغافورة»، و«الفلبين»، و«أفغانستان»، و«ماليزيا»؛ داخل صناديق شحنٍ كبيرة. عليك أن تُرينا مهاراتك الطبية في تشريح جثثهم.

ثمّ قال، وهو يقهقه في زهو:

- ولنرى ذبحهم بيديك الجميلتين قبلها؛ فهذا اختبارُ الولاء الأكبر لي ولعالمنا الرائع؛ «عالم سادة القبو»!

سألته في مرح، وهي تجاهد في إخفاء فزعِها الصَّارخ:

- أيمتدّ نشاطك إلى تلك البلاد؟! يا لك من نجمٍ ساطع في سماء
العظاء!

قال في غرورٍ وبلاهة:

- بل إلى كافّة بلاد العالم لو أردتُ، لي أذرع كأذرع الأخطبوط بكافّة
البلاد.

ثمّ سأها مستنكرًا:

- أحسبين أنّ طاقم القبو هذا هو فقط من يعمل لحسابي؟!!

لم تتفوّه بكلمة حتّى تدعه يفصح عن وجهه الخفيّ، ودهاليزِ نشاطه
المُشين، فقال في صلف:

- إنّ من التقيت بهم بذلك القبو، ما هم إلّا صفوة من يعملون معي،
ولكنّ كما قلت لك إنّ لي أذرعًا في كلّ مكان.

ثمّ قال، وهو ينظر بعينيها مباشرةً، ممّا أثار داخلها شعورًا مختلطًا من
الخوف، والبغض، والغثيان:

- بالمشافي، بالمصحّات، بالمعامل، بالصيدليات، بغرف العمليات
الجراحية، ومراكز الولادة، بعيادات أشهر الأطباء بكافّة التخصصات؛ دائمًا
هناك أناسٌ تُشتري بالمال.

وهناك.. حول رياض الأطفال، وحول المدارس، والجامعات، وبالمواصلات العامة، بالحدائق، بالشوارع، في كل مكان؛ مَنْ جندتهم حتى يأتون لي بالصغار، والمراهقين؛ حيث الأعضاء التي لم ينل منها الوهن والعِلل، حيث نأخذها ونرسلها إلى دول أمريكا، وأوروبا، لمن يحتاجون إليها، ويبدلون الثروات من أجل الحصول عليها.

ثم قال مؤكّداً ما قاله، كأنّها يردّ على نفسه بينما يُوصلها إلى غرفتها، ويُغلق الباب، ويمضي صوب غرفته:

- أجل، هناك أناسٌ على أهبة الاستعداد إلى أن يبيعون حتى بناتهم، وزوجاتهم، لا ضمايرهم وحسب، لمن يدفع الثمن!!

تجمّدت الدماء بأوصالها، وارتعدت فرائصها، وهي تتساءل في نفسها:

- كيف يُمكنني أن أنقذ هؤلاء الأطفال من بين مخالب هؤلاء الشياطين!!؟

سمَح لها بمغادرة الغرفة لتخلد إلى النوم، ولكنها أطفأت ضوء الغرفة، وراحت تفكر وسط الظلام حتى لا يكتشف أنها لم تنم حتى الصباح!!

وتحسّست موضعاً جهازياً التحكّم بين جوربها وساقها، فوجدتها حيث وضعتها تماماً.. بينما تحسّست موضع حقيبتها فوق «الكومود» الملاصق للسرير، فلم تجدها.. فأيقنت بأنّ الشيطان «لؤي» قد أخذها معه بخفّة يدٍ، كلصّ محترف دون أن تلحظ هي ذلك.

لهجتُ بالحمدِ لله، على أن ألهمها فكرة التخلّص من الورقة التي تحمل عناوين شركاتِ الأبواب الإلكترونية قبلَ دخول سيارة الدّليل المنوط بإعادتها إلى هنا، إلى قلب الصحراء.

لم ينمَ بعدَ أن فُتّش حقيبتها، وبعثَرَ محتوياتها فوق منضدةٍ مستديرة تتوسط غرفته، فلم يجدَ بها شيئاً يدلّ على حنكة تلك الفتاة، أو مكرها.. فاطمئنّ متيقناً من سذاجتها، ثم أعاد الحقيبة صباحاً بذاتِ خفّة اليد إلى غرفتها؛ حيث لم تكن الفتاة بالغرفة، وإنّما كانت داخل «دورة المياه» الملحقة بالغرفة، ثم رجعَ سريعاً إلى غرفته سريعاً، وقال وسط ضحكاته الساخرة:

- يا لكِ من طفلة ساذجة يا ابنة القبّاني، ويا لي من محظوظ حيث لم أنشأ بمجتمعكِ الحقير؛ وإلا لصرْتُ غيباً مثلكِ يا رئيسة مرضات المشفى العام! وردّته مكالمّة دولية من «عرفان»، تبشّره بتأكيد الصفقة، وأنّ كلّ شيء سوف يتمّ بموعده..

«عرفان»، ذلك الجندي المجهول الذي كان يبرم الصفقات الدموية الخارجية، منذ مرض سيّدته «آسيا»، ثم رحيلها، وحتّى ذلك اليوم، بعد أن استخرجت له «آسيا» بنفوذها الكبير، وعلاقاتها الواسعة؛ أوراق بطاقة هويّة، تُثبت بأنّه «عرفان زكي الحدّاد»، كما استخرجت له كذلك جواز سفر «باسبور» دولي، ورغم أنّها منحتة بتلك الهويّة الجديدة فرصة الهرب إلى خارج البلاد، إلّا أنّه أثر البقاء إلى جوارها، لربّما أحبّها، ولكنّه لم يُصرّح لها بمكنون قلبه حتى وفاتها!

قفَل «عِيَّاش» عائداً إلى الدِّيار، فوجد والدَه الشيخ «زارع» يؤمّ عدداً من رجال القبيلة في صلاة العشاء بالفضاء الممتدّ أمام دار سيد القبيلة، ألقى نظرةً عابرة نحوهم، ثمّ دلفَ إلى داخل الدار دون أن يطرق الباب..

فزعت «نبيع» أثناء مرورها بباحة الدار؛ إذ رأت ظلَّ رجلٍ منتصبٍ القائمة بحجرة أخيها «عِيَّاش».. صاحت:

- مَنْ أَنْتَ، وكيفَ دخلتَ هنا يا هذا؟!

خطا نحوها خطواتٍ من دون صوت، وهو يقول في هدوء:

- هذا أنا، أخوكِ يا «أمّ وليد».

لامته في غضب:

- أخيراً تذكرتنا يا ابن شيخ القبيلة؟!

رماها بنظرةٍ خالية من أيّ تعبير، ثمّ قال في برود:

- كنتُ ماراً بالجوار، فقلتُ؛ لمَ لا أبيت الليلة هنا؟! فهل أجرمتُ؟!

ردّت «رُبا» في وداعة:

- «نبيع» لا تقصد ما فهمت يا أخي، كلّ ماهنا لك أننا بتنا نفتقدك كثيراً!

هدرَ في رعونة:

- وهل أتركُ مستقبلِي حتّى أتغنّ بجواركم هنا بالواحة؟!

- أو تصف بقاءك معنا بتلك الواحة الساحرة بالعفن؟! (قالها الشيخ

«زارع» مستنكراً ما قال ابنُه للتو)

تلعثم «عياش»، وغمغم بكلماتٍ غير مسموعة، كان يلعن نفسه أن عاد إلى الواحة، فيما دلف «رمّاح» إلى الدار، الذي اخترق أذنيه صوتُ عمّه هادرًا قبل أن يصل إلى عتبة بيت عمّه، يريد محادثته بأمرٍ يتعلّق بعملهما الوشيك حول جُني المحصول، وتوزيعه، فيما يرجو عمّه الشيخ «زارع» أن يهدأ، ويدعه يتحدث إلى «عياش» قليلًا، بينما توارت «رُبا» بحجرتها حياءً عندما رأت «رمّاح» يُحدّث أباها، ثم لحقت بها «نبيع» كذلك..

لم يفلح «رمّاح» من قبل في تليين رأس «عياش» العنيد، ولا ثنيه عن طريقه الوعر الذي اختاره بإرادته.

قال «رمّاح» لعياش ابن عمّه قبل أن يغادر:

— يا «عياش»، ليس هناك مَنْ هو أحَنّ من الشيخ «زارع»، وجميع أهل الواحات يشهدون له بذلك، أنت وحدك الذي لا تراه كما نراه جميعًا..
ثم تابع:

— يا «عياش»، ليست السعادة بالعمل وحده، خاصّةً إذا كان ذلك العمل يُبعدك عن ذويك، ويجعلك لا تعرف قدر العائلة.

قاطعهُ الشاب النافر من جذوره:

— يكفيه أنّك تلازمه يا «رمّاح»، لن أفني عمري في صعود النخل، وجمع التمور، ورعي الغنم مثلك!!

ثم زفر في ضيق:

- أنا لا أقصد الحطّ من شأنك يا «رمّاح»، ولكنّ سبيلي غير سبيلكم بالحياة، أريد ألاّ أعيش حياة عادية، إنّ الأثرياء والسّياح الذين أقلّهم عبر الواحات، والفنادق، والمزارات السياحية؛ ليسوا بأفضل منّي.

أردف «رمّاح» متفهّمًا ما يريد قوله:

- ليس هناك من هو أفضل منك يا ابن العمّ، فأنت ولدُ الشيخ «زارع»، ولكن لنا كلنا عليك حقّ، لا بدّ أن يكون قومك على رأس قائمة اهتماماتك، توّدنا ونودّك، لا نريد منك شيئًا آخر.

ثمّ أطرق «رمّاح»، وقال بنبرةٍ يغلفها الشجن:

- لا يعرف قيمة الأب والأهل إلّا من فقدهم مثلي يا «عيّاش»، يومًا ما ستتذكّر ما أقول لك، وأخشى ما أخشاه يا أخي أن تدرك ذلك بعد فوات الأوان!

لقد نشأ «رمّاح» يتيم الأب كوليّد ابن «نبح» تمامًا، وسرعان ما لحقت أمّه بأبيه، فلم يجد يدًا تحنو عليه، ولا قلبًا يحتوي طفولته البريئة إلّا لدى عمّه «زارع»، لذا سار على خطاه، وعمل معه يدًا بيد، في حين تنكّر «عيّاش» لدفع عائلته، وآثر التغريد خارج السّرب لهثًا وراء المال وحسب!!

استطاع الشّاب القنوع «رمّاح» أن يُقنع عمّه «زارع» بأن يصبر قليلًا، فعيّاش مازال شابًّا ليس له خبرة أبيه الدّاخرة بالحياة، ولعلّ الله سيرده إلى رشده قريبًا..

ثم غادر «رمّاح» دار عمّه، وقد تناسى «عياش» كلّ ما قاله له «رمّاح»، وضرب بكلّ كلمة نصّحه بها عرض الحائط، ثم تناول بعض التّمر من مخزون المحصول الفائت، ثم تجرّع بعض الماء من قربة ماء بباحة البيت، ثم ارتقى فوق فراشه غائصاً في نوم عميق، حتى أيقظه متّصل يريد منه أن يُقلّه إلى مكان ما، نهض الشاب في تكاسل، ثم نضح بعض الماء في وجهه، ثم ترك الدار دون أن يسترضي والده، ولو باعتذار بسيط يُطيّب به خاطره.



نهض الشيخ «زارع» من مجلسه بالمضيقة الواسعة؛ حيث لم يهجع منذ أدى صلاة فجر اليوم، وراح بدافع أبويّ خالص يطلّ على حجرة ابنه البكري ليطمئن عليه، ولكنّه وجد فراشه خاوياً، ولكن ثمة شيء يبدو أنّه سقط من «عياش» سهواً..

إنّها ورقة، راجعها «عياش» في سعادة قبل أن يغلبه النعاس، ولم ينتبه إلى أنّه لم يُعيدها إلى حافظته قبل أن يغادر البيت صباحاً!!

التقط الشيخ «زارع» الورقة ليكتشف أنّها «بيان حساب بنكي»، يُفيد بأن ابنه «عياش» قد بلغ رصيده الحالي بالبنك «تسعة ملايين وثلاثمائة ألف جنيه»..

توجّس الشيخ خيفةً، ونالت منه الحيرة؛ فعياش لم يعمل كسائق ينقل السّياح بين الأنحاء، وبعض المواطنين بسيارته - التي لم يكن يملك ثمنها - منذ ستة أعوام تقريباً، وما يتقاضاه من أجر كسائق متنقّل حسب الطلب لا يُمكن أن يجعلّ لديه كلّ ذلك المبلغ الضخم!!

لقد رفض «عياش» إجابة سؤال والده عن صاحب تلك السيارة، وكيف حصل عليها إبان حصوله عليها، وتلثم آئذ قائلاً:

— لقد اشتريتها بالتقسيط!

فكيف يسدّد الشاب أقساط السيارة، وبالوقت ذاته يمكنه ادّخار كلّ ذلك المبلغ الكبير؟!



(إنَّ اللثامَ لا يحجبُ الوجوه، وحسب؛ إنَّما يحجبُ الحقائق أحياناً!)

لقد مضى «عَيَّاش» كي يُقِلَّ سائحًا من فندق، «سوليمار موط إن Sol Y Mar Mut Inn»، وهو فندق من فئة فنادق الخمس نجوم، يقع بالواحة؛ في رحلة سفاري برِّيَّة بالصحراء الغربية تمتد ليومين على التَّوالي لقاء مائتي دولار أمريكي..

فقد أصقلَّ التنقُّل بالحافلة خلال سنواتٍ بخبرةٍ واسعةٍ بدهاليز الصَّحراء، وثغراتها الوعرة؛ حتى لكأنَّ خرائط الصحراء قد طُبعتْ برأسه بأدقِّ تفاصيلها!!

تنقَّل بالسائح، ما بين «آبار ناصر»، و«آبار بولاق» السياحية مرورًا ببرك البطِّ البكيني، وبرك الطيور المهاجرة بالقرب من الفرافرة، ومشاهدة غزلان الصحراء، وThعالبها، وزيارة «الآبار الرُّومانية القديمة».. ومعبَد «دير الحَجَر» الذي شيَّده «نيرون» أشهر أباطرة الرومان بالحجر الرملي.. وإلى الشَّمال، شاهدنا قرية «القصر» الإسلاميَّة، وهي أوَّل الأماكن التي استقبلت القبائل الإسلاميَّة عند وصولها الواحات سنة ٥٠ هجرية، وبقايا مسجدِها الأوَّل الذي أُقيم بالقرن الأوَّل الهجري.. والمنذنة المتبقِّيَّة من مسجد قديم، ومكونة من ثلاثة طوابق بارتفاع يصل إلى ٢١ مترًا.. ومساجد العهد التُّركي، ومساجد العهد المملوكي.. والجبَّانة الرومانية المنحوتة في الصخر، والتي يُطلق عليها اسم «المزوَّقة»، وقد نُقشتْ

عليها نقوش زاهية تمثل خيرات الواحة من نخيل، وشعير، وطيور، والتحنيط، والثواب، والعقاب، كما نُقِشت عليها نقوشٌ تمثلُ إله الزرع، وإله الماء.. وأخيرًا، خُتِمتِ الرّحلة بزيارة عيون المياة الرومانية، وعيون المياة المعدنية الساخنة التي يقصدها السّائحون بهدف الاستشفاء؛ حيث تصل درجة حرارة المياة بهذه العيون إلى ٤٢ درجة مئوية، وحوض سباحة «بئر موط» أبرز معالم السياحة العلاجية بالواحة!! كم هي ساحرة واحات الصحراء الغربية؛ حيث تجمعك بكافة الأزمنة في آنٍ واحد، فتجعلك تُعايش حضاراتٍ شتّى، كما لو كان الزّمن قد عاد بك إلى ما قبل آلاف السنين، ولكنّ ظلَّ لِعَيَّاش رأيّه المغاير!!



ظهيرة يوم ١٧ يوليو ٢٠١١م.. ومفاجأة بالصحراء

قفل «رمّاح» عائداً إلى الديار من الواحة الخارجة، يقود السيارة «نصف النقل»، التي يملكها عمّه الشيخ «زارع» في سرعةٍ جنونية، فيما يُقلّب ناظريه في هلع بين الطريق خشية الاصطدام ببعيرٍ أو بسيارةٍ مارّةً بالاتّجاه المعاكس، وبين جثّة فتاة تفوح منها رائحة منفرة، ولكن ذلك لم يصرفه عن أداء واجبه الإنساني حيالها.. يكاد يُجزم أنّها تحتضر!!

لم يقصد مشفى من مشافي الواحات؛ حيث المسافة الهائلة الفاصلة بينه، وأقرب مشفى تُقدّر على الأقلّ بخمسة عشر كيلومتراً، وقد تموت الفتاة؛ لذا قرّر أن يحملها حتى «موط» حيث دار عمّه «زارع»، التي لم يُغلق بابها في وجه محتاجٍ أو مصابٍ منذ عقود.

صاح «رمّاح» فيما يحمل فتاةً بمنصفٍ عقدها الثالث تقريباً، ينادي عمّه الشيخ «زارع» الذي كان جالساً يتلو ما تيسّر له من القرآن الكريم بباحة البيت فوق حصيرٍ من الخوص، قد نسجته «نعب» و«رُبا» في مهارة:

- عمّاه، يا عمّ، أغثنا يا عمّي!!

هُرِعَ الشيخ يستقبله، ويدعوه إلى الدّخول بمنّ يحملها إلى المضيّفة.. وسط نظرات الهلع والترقّب التي نضحت بها أعين الشيخ، وابنتيه..

أَرَقْدُوا الْفَتَاةَ فَإِذْ بِهَا تَتَنَفَسُ بِيْطَاءَ كَانَ عَلَى وَشِكِّ أَنْ يَتَوَقَّفَ تَمَامًا، كَانَتْ بَعْضُ حَبَّاتِ الرَّمَالِ مَازَالَتْ عَالِقَةً بِأَهْدَابِهَا، وَتَمَلُّاً مَا بَيْنَ شَفَتَيْهَا، وَتَتَنَاثَرُ فَوْقَ جِيدِهَا الْمَبْلَلِ بِالْعَرَقِ، وَرَائِحَةُ خَمْرِ كَرِيهَةٍ تَفُوحُ مِنْ مَعْطَفِهَا الْمَتَسَخِّ!

لَمْ يَخْفَ عَلَى شَيْخٍ حَصِيْفٍ أَشْيَبَ الشَّعْرَ وَاللَّحْيَةَ، كَالشَّيْخِ «زَارِعٍ»، أَنَّ تِلْكَ الرَّائِحَةَ الْمُنْبَعِثَةَ مِنْ مَلَابِسِ الْفَتَاةِ هِيَ رَائِحَةُ خَمْرِ مَعْتَقٍ بَاهِظِ الثَّمَنِ، رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَذُقْ قَطْرَةً وَاحِدَةً مِنَ الْخَمْرِ طِيلَةَ حَيَاتِهِ.. وَلَكِنَّهُ يَعْرِفُ تِلْكَ الرَّائِحَةَ جَيِّدًا مِنْ خِلَالِ جَوْلَاتِ السَّائِحِينَ، وَبَعْضِ الْمَهْرَبِينَ الَّذِينَ يَحْتَسُونَهَا عِبْرَ الصَّحْرَاءِ.. فَهَوَاءُ الصَّحْرَاءِ يَنْقُلُ الرَّوَائِحَ عِبْرَ الْمَسَافَاتِ الشَّاسِعَةِ كَمَا يَنْقُلُ الصَّيْدِي، وَأَغَانِي حُدَاةِ الْقَوَافِلِ!!

اِقْتَضَبَ جَبِينَ الشَّيْخِ، وَزَوَى مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَهُوَ يَتَسَاءَلُ فِي نَفْسِهِ:

- مَا الَّذِي يَمَلَأُ جَسَدَ هَذِهِ الْفَتَاةِ بِرَائِحَةِ الْخَمْرِ؟! لَكَأَنَّهَا كَانَتْ تَسْبِحُ بِحَوْضٍ مَلَأَنَ بِالنَّبِيدِ!!

نَضَحَ الشَّيْخُ «زَارِعُ» الْمَاءَ فَوْقَ وَجْهِهَا، فَلَمْ تَسْتَفِقْ، وَسَرَّعَانَ مَا جَلَبَتْ «رُبَا» خَرَقَةَ نَظِيفَةً مَبْلَلَةً بِالْمَاءِ، وَأَخَذَتْ تَزِيلُ الرَّمَالِ الْعَالِقَةَ بِوَجْهِ الْفَتَاةِ، لَقَدْ غَطَّتِ الرَّمَالُ أَسْنَانَهَا الْأَمَامِيَّةَ كَذَلِكَ، ثُمَّ رَفَعَتْ «نَبْعَ» رَأْسِ الْفَتَاةِ قَلِيلًا، ثُمَّ أَخَذَ الشَّيْخُ «زَارِعُ» يَسْقِيهَا الْمَاءَ، سَعَلَتْ فِي شِدَّةٍ، فَاَنْدَفَعَ الْمَاءُ مِنْ فَمِهَا مَمْزُوجًا بِالرَّمْلِ، تَهَلَّلَ وَجْهُ الشَّيْخِ الْوَقُورَ، وَهَمَسَ:

- الْحَمْدُ لِلَّهِ.

في فزعٍ سألت «نبيع»:

— أترى أنها ستنجو يا أبي؟!

قال الشيخ في ترقب:

— إن شاء الله.

بدا جليًا للجميع أن الرمال قد ملأت حلقها، وفتحتي أنفها كذلك،
مما يؤكد أنها فقدت وعيها قبل ليلة كاملة على الأقل وسط عواصف
الصحراء!!

دلَّ معطفها الطبيّ الأبيض المائل للصّفرة بفعل الرّمال والأتربة، على أنها
ليست من الجوار، حيث لا توجد من بين فتيات الواحة من تعمل بمجال الطب!
أخذت تسعلُ حتّى احمرَّ وجهها، ففتحت عينيها في ثقّل شديد..

اشتدّت الرياح حول سيارة «رمّاح» بمنطقة غير مأهولة تقع بين واحة
الغرافرة، والخارجة، فجأة.. هكذا هي رياح الصحراء لا تنبئ بقدومها
مُسبقًا، ممّا حدا بساكني الصّحراء وعابريها إلى أن يحتزّزوا لها، ويأخذوا
احتياطاتهم تحسُّبًا لهبوبها.

لاحت له جثة لشخص منبطح على وجهه وسط الرّمال، يرتدي معطفًا
أبيض اللون، مائلًا للاصفرار؛ فهُرِعَ نحوه حيث نشأ بين يدي الشيخ

«زارع» على إغاثة المصابين.. راوده الأمل في إنقاذ ذلك الشخص، فلربما مازال حيًّا!!

تناوبت «نبح» ورُبا ابنتا الشيخ «زارع» رعاية الفتاة، ولازماتها طيلة يوم وليلة كاملين، حيث سقينها «دبس التمر»، أو «عسل البلح» الذي تجيدان ككل نساء الواحة استخراجَه من البلح بموسم الحصاد!

دبسُ البلح، مشروبٌ يشبه العسل الأسود، ولكنه قاني اللون، لا غنى لأهالي الواحات عنه لذلك لا يخلو بيتٌ بالواحة منه..

تحمله القابلاتُ «السيدات اللواتي تَقُمن بتوليد نساء الواحة» من أجل الحوامل، والمرضعات، والواضعات «النساء اللواتي قد وضعن حملهن» حديثًا، فهو مقوِّ عام، سريع المفعول، يقي من الهزال، ويعالج أمراض الضعف العام، وأمراض الجهاز التنفسي كالربو، والحساسية، ويساعد في نمو الأطفال بصحة جيدة، ويعمل على نضارة بشره النساء؛ فليس بغريب على فتيات الواحة

- وخاصةً ابنتي الشيخ «زارع» - أن يبقى وجههما دائمًا النَّضرة، والملاحه.

مع نسمات صباح اليوم التالي، أفاقت «منة»، بين «نبح» و«رُبا»، فأسرعت «رُبا» تزف البشرية الطيبة إلى أبيها..

بين يدي الشيخ وابنتيه و«رمّاح» قصّت «منّة» ما حدث تفصيلًا؛ فقد اطمأنت إليهم؛ فمن ينقذ حياة فتاة غريبة مثلها ويكرم نزلها هكذا؛ لا يمكن أن يكون سيئًا.

كانت تحكي وهي تنتفض فزعًا، وترجوهم بين الفينة والفينة أن يكتمن أمرها حتى تعود إلى حياتها سالمة؛ فلعلّ هناك من يقتني أثرها، ويريد الفتك بها!!

قصّت عليهم كل شيء منذ أن تفتّحت عيناها على وجه الجدة «بسيمة»، وما كان من حتف أمها، ثم أبيها حسبما علمت من جدّتها أنفًا.. ثم احتواء الدكتور «وديع مكرم» لها كأب حنون، وطبيب بارع قد تعلّم منه الكثير.. ولقاءها الأوّل بمسعد، ثم اختفائه بأعقاب ثورة يناير.. وما آل إليه حال «شادية»، واستوداعها مشفى الأمراض العقلية عقب اختفاء ابنتها.. وفجعة «جرجس» بائع الصحف، وزوجته في طفلها الوحيد.. واختفاء «خليل العجايبى» في ظروف غامضة، ثم هروب «رضوى»، وتوتّر «عزيزة»، وإنكارها صلتها بالأمر.. انتهاء بظهور الشيطان المدعو «لؤي»، وتقديسه للشيطانة «آسيا» التي اختطفته صغيرًا، وأغدقت عليه بالمال حتى جعلته لصيق عالمها، وعبداً أسفل قدميها، ثم كيف زجّت به إلى قبو الدماء، وعالم الوحوش التي تلتهم جثث البشر! وأذرع الخطبوط التي اقتنصت مئات الأبرياء خلال وقتٍ وجيز، حتى جعلت من العاصمة «القاهرة» وضواحيها

مسرًا للجريمة، ورّعت الناس بأنحاءها..

كان الشّيح «زارع»، وابتاه، وابن أخيه؛ ينصتون إليها بقلوب راجفة،
فما يستمعون إليه هذا لم يكن لهم أن يشاهدوه بأشع أفلام الرعب..
التمسوا صدق الفتاة التي لم تخلُ حكاياها من دموع جاريات، وفزع مازال
ينتفض له جسدها النحيل.. لقد أفقدها الخوف والرّكض بالصحراء كثيرًا
من وزنها.. ثم قصّت عليهم أحداث اليوم الأخير لها بقبولوي، وعصابته..

يوم «الخامس عشر من يوليو ٢٠١١م»!!!



(لعلها ليست النّهاية؛ وإنّما هي البداية)

لا تنم وأنت تظنّ - مُحققًا - بأنك خارقُ الذكاء الأوحْدُ بين الجميع،
فلربما هناك جسدٌ ضئيلٌ يحمل رأسًا يقبع به عقلٌ فذٌّ، فلا تغترّ أيّها المسكين!
وقد أعذرَ مَنْ أنذرَ..

الخامس عشر من يوليو ٢٠١١م، السابعة صباحًا، نجبا «لؤي» البعيد..
- استيقظي أيتها الكسولة.

كان يقفُ بمحاذاة فراشها مباشرةً، يحملق بها بعينين واسعتين لامعتين،
ففزعّت، ممّا أضحكّه، وهو يقول:

- أمّا سمعتِ بقول أحد المفكرين؛ «إنّ أصحاب الأهداف العظيمة لا
ينامون حتى شروق الشمس»؟!

- يا له من شخص غريب الأطوار، أحيانًا أحسّه أبله البلهاء، وأحيانًا
أُخر أجده أخبث الخبثاء.. تارةً أشعرُ بأنه أجهل أهل الأرض، وتارة
- كالآن - أجده مثقفًا واسع المعرفة! (تحدّثت في نفسها في تعجب..)
سحبّت الحجاب الذي يلفّ رأسها، فقال ساخرًا من حجابِ رأسها الذي
تحرص على ارتدائه دائمًا:

- لماذا تضعين ذلك الشيء المقرز فوق رأسك؟ أتستحين مني؟ ألسْتُ أخاك كما تقولين؟!

لم تعقب، وظلّت جالسة بفراسها دون حركة، فقال:

- اطمئني، فرغم عدم اقتناعي بأننا أخوان إلا أنني قد مررت بعلاقات نسائية لا تُحصى.

تخلّى عن تحفّظه بالحديث، وقال:

- لقد أمضيتُ مئات الليالي الحمراء برفقة نساء من كافّة الجنسيات، حتى عزفتُ عن اشتهاهنّ..

ثم قال، والشرّ يطلّ من عينيه:

- إنّ شهوة الدّماء ألذّ وأمتع، أنا أتلذذ بسفك الدماء دون أيّ ممّا سواها من شهوات!

ثم تابع:

- أنا لم أصلّ صلاةً واحدة طيلة حياتي، ولا أعترف بما يسمّونه حلالاً وحرماً، لا أعترف سوى بما يمتعني وحسب!

ثم راح يهذي:

- لا أدري لماذا عندما أجدك، أثرثر كثيراً، وكأنّ ما بداخلي يتفلّت إليك دون إرادة مني، ألربما تجري بأجسامنا الدماء نفسها؟!

ثم مطّ شفتيه قائلاً، وهو يُلقي بناظريه إلى صورة «آسيا»:

- لقد جاءت لي بكلّ متع الحياة، دلّلتني كثيراً، ولكنّها لم تأت لي بكتابٍ واحد يتحدّث عن الدّين، ولم تُحدّثني يوماً عن ربّكم!!

أسرعت «منّة» تقول في دهشة:

- ربّكم!!! أليس لك ربّاً أنت أيضاً؟!

ضحك فيما يدنو منها مجدداً:

- أنا لا أعتقد بأيّ دين، لا أعترف بربّ المسلمين، ولا بمعبود النّصارى، ولا بعقيدة اليهود، ولا بنيران المجوس، ولا بمعبودات أيّ فئة من البشر، ولا حتى بما يسمونه «الإلحاد»!! أنا بلا مُعتقد.

ثم ابتسم كالمخبول، وراح يحدق في وجه «آسيا»، قائلاً:

- لا أعتقد إلّا بهذه!!!!!!

لقد صدقَ حدسُ «منّة» حيث تيقّنت من أنّه يُقدّس هذه المرأة تقدّيس العابد لمعبود!! واحتسى زجاجة خمرٍ معتّقة كاملة فور استيقاظه، ورغم ذلك لم يتهاوى بدنه بعد!!

هذا كائنٌ عجيب، يبدو في نظراته كالمسخ، يعيش بمنطق من لن يموت أبداً، ويبغض العالم كزاهدٍ قد عافت نفسه الشهوات رغم أنه ممتلئ بالشهوات؛ شهوة الدّماء، وشهوة الانتقام...

شهوة الانتقام تُخرّجك من صنف البشر إلى صنف المسوخ!

انتظرها حتى ارتدت معطفاً أبيض اللون، أحضره لها، كالذي كانت ترتديه بالمشفى، ثم دعاها إلى الاحتفال بين «سادة القبو»..

هبطاً إلى حيث كان طاقم القبو بانتظارهما..

كان القبو نظيفاً، خالٍ تماماً من الجثث والأشلاء، لقد تولّت «صبرة» و«ضاحي» أمر تنظيفه جيداً يوم أمس؛ استعداداً للاحتفال بالصفقة البشرية الآسيوية الجديدة!

تقارعت الكؤوس، وقد أوشك يومهم العظيم على بدايته.. بقيت ساعة واحدة تقريباً على حفلة الدماء، والجنون المستعر.

ستصل دفعةً جديدةً من مئات الأطفال المخدّرين داخل صناديق جاءت عبر البحر، فوق سطح باخرة يقودها شياطين لا يقلّون جنوناً عن «لوي» وزبانيته!!

كيف ستحتسي الخمر معهم؟!

هكذا تساءلت مضطربة، فيما ترى أمامها كلّ مَنْ بالقبو يحتسونها كما لو كانوا يشربون الماء على الظمأ!!

غافلتهم، وتظاهرت بمشاركاتهم الاحتفال، وأخذت تضاحكهم في مَرَحٍ، وتشاكِسٍ «رضوى» والدكتورة «مها» على وجه الخصوص قائلة:

- لماذا لم تدعواني إلى ذلك النعيم من قبل؟! يا لكما من أنانيّتين!
ضحكتا، وقالتِ الدكتورة «مها»، التي لم تكن لتسمح لها بمخاطبتها بغير
«دكتورة مها»:

- كنّا نظنّكِ سترفضينَ وتجلين لنا المتاعب!!

بينما قالت «رضوى»:

- كنتُ أحسبُكِ مثالية، مُعقّدة، ليتني فهمتكِ جيداً مبكراً!

كلّما احتسوا الكئوس، سكبتُ لهم «منّة» المزيد، والمزيد، وهي تقول لهم:
- إنني منذ اليوم بخدمتكم جميعاً.

ساعة يدها تشير إلى التاسعة والنّصف، فيما ثقلت رؤوسهم، وزاغت
أعينهم، بينما راح «لؤي» يصيحُ في جنونٍ صاخب، وهو يرفع يده عالياً
بالكأس:

- نخبُ سيّدتنا العظيمة «آسيا»، الحاضرة معنا اليوم بروحها المقدسة!
خُيّل إليه أنّ «آسيا» تجلس أمامه فوق عرشٍ من ذهب، تبسم له، وتباركه
بقولها:

- بل نخبُ سيّد سادةِ القبو، سيد العالم؛ «لؤي الراجح»!

أخذت «منّة» تضاحكهم، وتظاهر بأنّها ثملةٌ مثلهم، وترشّهم بالخمير
كطفلةٍ تشاكس أطفالاً آخرين برؤسهم بالماء بحوض سباحة.

بأدلوها اللعبة، تعالت ضحكاتهم الهستيرية، ثم تهاوت أجسادهم فوق المقاعد المعدنية، يتقاطر الخمر من ملابسهم..

في غفلة منهم جميعاً، وبينما اتخذت «منة» مجلسها بمقعدٍ بزاوية نائية بالقبو، إذ أخرجت القداحة من جيب معطفها المبلل، ثم انحنت إلى الأمام، ومدت يديها إلى جوربها الرقيق، مزقته بأظافرها، ثم أمسكت بجهاز التحكم الصغير الأول، فالثاني، تنبه إليها «تيمور شومان»، وباغتها بسؤاله:

- ماذا بيديك؟!

لقد حسبته ثملاً كمن حوله، ولكنه كان كجاسوس متربص يعد الأنفاس، ويرصد الحركات..

اعتدلت قائمة، بينما رماها الطاقم بأسره بنظراتهم الحائرة:

- إنها.....

أثار اضطرابها شكوكهم، رغم رؤوسهم المثقلة، فنهضوا كالأشباح على قلب رجل واحد، يسيرون نحوها، يريدون كشف أمرها!!
فقال في نفسها:

- حيث لا مجال للهرب، فلنمت جميعاً معاً.

أيقنت بأنهم لن يتركوها، ولربما سيمثلون بها كما يفعلون بضحاياهم، فأضربت النار بالقبو المغلق دونهم!

حدّثت نفسها:

- لعلّها محاولة!!

ضغطت زرّ جهاز التحكّم، بينما تسرع النيرانُ نحوها زاحفة كالأفاعي؛ فلم تُشرع البوّابة الإلكترونية بعد.. أيقنت أنّها هالكة لا محالة، ثمّ سرعان ما تذكرت أنّ ذلك الرّيموت، هو ريموت البوّابة الزجاجية السميكة، تلك التي تحيط بأفصاص قطع السّباع، وليس هو جهاز التحكّم الخاصّ ببوّابة القبو.. خلال بضع لحظات ستتشب النيران أظافرها بجسدها.

حدّثت نفسها ثانية:

- لعلّ لحظة واحدة هي الفارقة بين الحياة والموت!!

وبضغطة زرّ بالرّيموت الثاني فُتحت بوّابة القبو، وقفزت في خفة أعلى ألسنة اللهب التي نالت من موضع قدميها، فانطلقت صوب البوّابة الزجاجية، ففتحتها كذلك، ثمّ سحبت مزليج أفصاص الوحوش في حذر.. كان «شانجو» يتأهّب للانقضاض على باب القفص بجسده العملاق عندما رأى «منّة» تقترب من قفصه؛ لذا فتحت مزلاج قفصه مؤخراً، ثمّ راحت توارب الأبواب؛ حتى تبيّن الأسود منفذ الخروج.

ماذا لو لحق بها «شانجو»، أو فردّ آخر من أفراد القطيع المفترس؟!

لم تأبه بذلك الاحتمال؛ فقد كانت تملؤها ثقةٌ في النجاة لا تعلم لها مصدرًا سوى إيمانها برَبٍّ يجيب المضطرَّ إذا دعاها.

راحتِ الفتاةُ تعدو بأقصى سرعةٍ صوب البوابة الخارجية المفضية إلى المنحدر الصخري المدرج، لعلَّ السَّباع تركض الآن بأثرها قيد قفزة، أو اثنتين منها.

أغلقتِ البوابةُ بجهاز التحكُّم الذي مازالت أصابعُها الرقيقة تقبض عليه..

في تلك الأثناء، هُرع «تيمور شومان» - الذي لم تلمسه النار بعد - صوب براميل ملأى بالمياه كانت مُلحقةً بالقبو، ودفعها أرضًا يريد إخماد النيران، وقد أفلحت فكرته، ثم أخذ يغمُر طاقم القبو بالماء؛ فاستنقذهم قبل أن يلتهمهم الحريق..

شوهتِ النارُ وجوههم، فبدوا - حقًا - كالمسوخ، وبينما يصطرخون، وقد احترقت الملابس التي يرتدونها، فبانت جلودُهم ملتهبة؛ إذ كان قطع الوحوش - وبمقدمتهم «شانجو» - أمامهم مباشرةً، وقد أسالت رائحةُ الشواء لُعابَ أفراد القطيع الثمانية.

ركضت «منة» بالفلاة القاحلة بعد أن نجت بأعجوبة من بينهم، وابتلعتها
الصحراء، فيما وصلت شاحنة كبيرة محملة بالصناديق، تتبعها سيارة أنيقة،
يقودها «عرفان»!

ظلت تركض حتى إذا ما نال منها النصب سارت حتى تجد في نفسها
القدرة على الركض ثانياً.

الصحراء لا تنتهي، كيم بلا ضفاف، إلى أين ستقودها قدمها؟! لا
تدري.



منتصفُ ليلة الرَّابع عشر من يوليو..

أجرى «لؤي» اتّصلاً بدليل الصّحراء الذي يثق به، ولكنّ هاتف الدليل كان خارج التّغطية، فاتّصل «لؤي» بدليلٍ احتياطي آخر، واتفق معه على إيصال رجلٍ إلى القاهرة بالصباح الباكر.

وقد وصل الدّكتور «وديع مكرم» مشفى الورّاق غائباً عن الوعي، وحالته متردّية تماماً!

هكذا تمّت المفايضة بنجاح كما أراد «لؤي» بالضبط.. فلم تكن «منّة» لترضخ له، وتقبل بالعمل معه؛ إلّا بتهديد حياة شخص ذي منزلةٍ غالية بنفسها، كالدكتور «وديع»..

ومن منطلق «يا روح ما بعدك روح»، ما أن استعاد الدكتور «وديع» بعضَ عافيته؛ إلّا تقدّم ببلاغٍ رسميٍّ بمديرية أمن القاهرة، يبلغ فيه عن عصابة إجرامية قامت باختطافه، وكذلك باختطاف رئيسة ممرضات مشفى الورّاق العام، والتحفّظ عليهما بمكانٍ مجهول.

بقي بلاغُ الدكتور «وديع» «محلّك سر»؛ حيثلم يستطع أن يعرف موقع المكان الذي اختطفاه.. ولا يُمكن لقوّات الأمن أن تبحث عن سرابٍ دون طرفٍ خيطٍ تتبعه!

ساعدت كل من «نبح» و«رُبا» ضيفَة الواحة على الاغتسال، وتبديل ملابسها بملابس بدويّة الحياكة والتّطريز - راقّت لها كثيرًا - ثمّ عادت كي تقصّ على الشيخ وابنتيه و«رمّاح» - مُنقذها الشّهم - ما لاقّت من رياح وهجير، وظمأ بالصّحراء.

أطرق الشّيح «زارع» ينصّت إلى كلّ كلمةٍ أدلّت بها الممرّضة الشابة، ثمّ أثنى عليها قائلاً:

- أنتِ بطلةٌ حقيقيّة يا ابنتي، لقد صارعتِ أهوالاً لا يتحمّلها أعتى الرجال.. ولقد خاطرتِ بحياتكِ من أجل إيقاف سيلِ دماء الأبرياء.. وواجهتِ الموت المحقّق ببسالةٍ، ثابتة على مبادئك، باقية على فطرتكِ الطاهرة..

- لقد خُدع الشّيح العجوز!! (قالها الشّيح في أسفٍ)

- ومَن ذا يستطيع خداعك يا كبير الواحة؟! (عقّب «رمّاح»..)

قال الشّيح «زارع»:

- أنا أعرف موقعَ ذلك المكان المجهول؛ حيث عصابة القبو الذي تحدّث عنه يا ابنتي. إنّ ذلك المكان لم يكن سوى مستودع سلاح قديم، كان جنرال روسي الجنسية يُدعى «رُوديون»، جاء إلى مصر على ظهر سفينة الشحن الحربية

الروسية «ميزدورينيك»، تلك السفينة التي أفرغت رؤوساً نووية محدودة في ميناء الإسكندرية، حيث كانت «الاتحاد السوفيتي» يمدّ مصر برؤوس نووية محدودة التدمير إبّان حرب أكتوبر عام ٧٣، كنتُ كبذو الصحراء جميعاً.. أخشى الاقتراب أو المرور من نطاق ذلك المستودع الغائص بأعماق الصحراء.. بينما أرعى غنمي، وأتبع الكلاء «العُشب»؛ فقد ذاع بالأنحاء أنّ ذلك المستودع محاط بالألغام..

ضحك الشيخ، وهو يمسك بلحيته البيضاء الناصعة، وقال:

- لقد خدعنا الروس بكذبة الألغام، فلم ندن من مستودعهم قط، بعد ذلك، سمعنا بأنّ هناك شخصيّة مصرية بارزة قد اشترت ذلك المستودع والأرض الملحقة خلفه.. ولكن لم نحاول أن نعرف الحقيقة على نحو أكثر وضوحاً.. فلا يخشى الرّعاة خطراً بالصحراء قدّر خشيتهم أن تلامس أقدامهم لغماً..

ولكن الآن.. قد تيقّنت بأنّ ذلك المكان لم يكن به لغمّ واحد؛ بدليل أنّك مررت به - وسائر طاقم القبو كذلك - به عدّة مرّات، وخرجت منه دون أن ينفجر لغمّ واحد به، حقاً.. إنّ الكذبات المحبكة قد تلاقي التصديق ردحاً من الزمن!!

ولكن تبقى الكذبة كذبة على كلّ حال.

رمق الجميع الشيخ «زارع» بعين الإعجاب، فهو البدوي المثقف، واسع الخبرة، دومًا يُدهش مَنْ يتحدث إليهم بقصصه وذكرياته التي تسحر الألباب، وتخطف الأسماع.

تنهّد الشيخ قائلاً:

- «إننا فخورون بك يا ابنتي، ولي كل الشرف لو تقبلين بي أباً لك، و«نعب» و«رُبا» و«رمّاح» إخوتك.

اغرورقت عيناها بدموع الامتنان، وقالت:

- «إني مدينة لكم بحياتي يا عمّ الشيخ.

ثم حاولت الفتاة الوقوف فجأة، ولكنّ قدمها لم تحملها، فعادت إلى جلستها، وقالت:

- لي رجاءٌ وحيد لديك يا شيخ «زارع»..

قال الشيخ في تأكيد:

- مُريني يا ابنتي.

قالت في رجاء:

- جدّتي، قد يقضي عليها القلق إذا لم أعد إليها، أتعشّم يا عمّ الشيخ أن ترسلني إليها.

هشَّ الشيخ مبتسماً في وقار، وقال:

- على الرَّحْب والسَّعة يا ابتي، ولكن أراكِ لن تتحملي مشقَّة السفر اليوم، غداً بإذن الله سوف أَقلُّكِ إليها، وبنفسي لو أَحْبَبْتُ!

عندما اقترب «عرفان» من حيث مستودع الدِّماء، قام بمهاذفة «لؤي» كثيراً، ولكن ما وجد إجابةً.. تعجَّب للغاية، فتلك الصَّفقة تفوق أيَّ صَفقةٍ سابقةٍ تمَّ إبرامها منذ بداية نشاط «آسيا» في مجال تجارة الأعضاء البشرية، وحتى اليوم.. فكيف لهذا المدلل «لؤي» أن يفسد كلَّ ما أنجزه «عرفان»؛ من سفرٍ، وتعاقدٍ، وتسليم ملايين الدولارات إلى مُورِّدي الأطفال من بلاد شرق قارة آسيا؟! كان عليه أن يلغي الصَّفقة قبل أن يُبذل من أجلها ما بُذِلَ من مالٍ وجهد!!

زفرَ «عرفان»، وانتفخت أوداجُه، وتوعدَّ «لؤي» هادراً:

- سأقتلك أيُّها اللعين حالما أعثرُ عليك!!

ثم أخذ يمرّ ببعض المشافي التي تمتهن «تجارة الأعضاء البشرية» في سرية تامّة، حيث يوزَّع عليها شحنة الأطفال الشرق آسيوية، مروراً بخاطفي الأطفال الذين يعرفهم جيداً ولا يعرفهم «لؤي» نفسه، ولم يرههم من قبل، إنَّ العقل المدبّر الفعلي بعد رحيل «آسيا» هو «عرفان»؛ أمّا «لؤي» - فرغم غطرسته، وعُجْبِه بنفسه - فما هو إلّا «بطل من ورق».

توزعت الشحنة بشقّ الأنفس، وبأقلّ من نصف المبلغ الذي دُفع بها، ولم يُكشف أمرها، ولكن «عرفان» كان قد اعتزم الخلاص من ربيب «آسيا»، التّافه الخائب بأقرب فرصة سانحة.



أفسح الفضاء الصحراوي، والاستلقاء بضوء القمر، أسفل آلاف النّجمات، ووسط لفحات الهواء النقي؛ للشابّ العشريني المتمرد أن يفكر في هدوء، ولربما إلى أن يراجع حساباته المترسّبة منذ سنوات، بلا مراجعة، حتى باتت كالجرّح الملوّث الذي لا مناصّ عن فتحه وتطهيره، حتّى لا يؤدي بحياته إلى هوةٍ لا مخرج منها!

لقد جمع من الأموال الملايين دون أن يفكر ساعةً، من أين اكتسبها، ولا بأي شيء، ولا متى سيتمتع بها!

ما أحمق الإنسان عندما يركض خلف المال، فإذا ما حصل عليه؛ أدّخره، واحتلّ نفسه الشُّح؛ فكنّز المال حتى تأتي عليه القوارض، فلا تترك منه سوى بقايا ورق، لا قيمة لها..

فكلّما تضخّم الرّصيد بالبنك؛ كلّما قترّ «عيّاش» على نفسه، وأهله، وضمّن به على طفلٍ يتيم كوليّد، الذي هو ابن أخته «نعب»، وصديقه الأكبر «طلال» الذي غادر الدنيا دون مرضٍ، أو حادثة.

- لقد مات «طلال» يا «عيّاش» على فراشه، ويجوار «نبح».. لقد زاره الموت، في هدأة الليل دون أن يشعر به أحد.. تُرى لو مِتَّ يا «عيّاش» الليلة؛ فهل ينفعك مالك المكتنز؟! هل سيبكيك أحد، أو يرثيك بكلمة، أو يحكي عنك ذكرى طيبة؟!

وقفت كلمة «لا» تتردد في خاطره عقب كل سؤال يسأله لنفسه، فقرّر العودة مع تباشير الفجر إلى دياره، عسى أن يجد بنفسه الرغبة القاطعة في البقاء، وإصلاح نفسه، وعلاقاته بمن يحبّونه، ويرجون حياته بقرهم!

رجع «عيّاش» إلى داره، فكان البيت بالصباح الباكر يهجع وسط الهدوء التام، إلّا من ثغاء الماشية بالخطيرة، ورُغاء الإبل الهاجعة أمام البيت فوق الرمال، حيث النسيم العليل، المنعش للنفس..

لمح «عيّاش» شخصاً مسجى بالمضيقة، ألقى عليه نظرة من كذب، فلعله أحد أقاربه، أو أصدقائه القدامى بالواحة، هؤلاء الصبية الذين كم شاركهم اللعب، والاختباء خلف جذوع النخيل، وكم سابقهم، فسبقهم عدواً فوق الرمال.. وكم راهنهم على أنّه سيكون له حظوة الحصول على أول ثمرة، تُلقى بها نخلة بالواحة، فكان ذلك، وكم سبّح معهم تلذذاً بالاستحمام بالبرك الرومانية الدافئة، عندما كان والده يصحبه إلى هناك، كي يشبّ صحيحاً فتياً، وكم كان يجوب الأسواق برفقة أبيه و«رمّاح» لبيع المحصول الوفير من التمر، بشتّى القرى والمحافظات...

قال «عياش» في نفسه، معاتبًا:

- أنسيتَ كلَّ ذلكَ يا «عياش»؟! أجفوتَ الأبَ الحنونَ، وأختيكَ الرقيقتين، و«رمّاح» صديقَ العمر، وابنَ العمِّ الذي لو أصابكَ سوءٌ لأفتدأكَ بحياته؟! يا لكَ من ناكِرٍ قاسي القلبِ يا «عياش»!!

كانت المَ - ضيفَة غارقة في العتمة، ولكن ثمة ضوءٌ «ذُبالة» خافت، يبعث بضوءٍ هادئٍ بالقرب من ذلك النائم النحيل!

اقترَبَ في حذرٍ حتى لا يُفزعَه، طالع وجهه من كُثب..
صرخَ دونَ وعي:

- أنتِ!! ما الذي جاء بكِ إلى هُنا؟!
فزعتُ صارخة، وهي تغطّي شعرَها بيديها:
- مَنْ أنتِ!! وماذا تريد؟!!

انطلقَ كالسَّهم إلى باحة البيت، فإذا ببنياته الفارع، يصطدم بجسد أبيه
فارع القامة..

سأل الشابُّ أباه، في دعر:

- مَنْ الذي جاء بهذه إلى هنا يا شيخ «زارع»؟!!

— أَوْ تَعْرِفُهَا؟!

حدَّجَه أبوه بنظرةٍ فاحصةٍ عندما سأله ذلك السؤال؛ فلقد لاحظ الشيخ الأريب اضطرابَ ابنه، وامتقاعَ وجهه، غير المعهودين عليه.. فهو سيّد اللامبالاة، الذي ما كان يأبه بضيفٍ، ولا يسأل يوماً مَنْ جاء به، ولا عمّن ذهب؟!

تلجّج الشاب في صوت متهدّج:

— ل.. ل.. ل.. ل.. لا، لا، لا أعرفها!!

أمّا «منّة»، فقد انتابها الخوف، فمَنْ هو ذلك الشاب؟ ولماذا انتابه الغضبُ والذّعر عندما رآها هنا في عقر دار الشيخ «زارع»؟!

ألحَّ «عيّاش» على أبيه في السؤال، بينما يجلس أمام أبيه كمن ارتكب جريمة نكراء:

— مَنْ جاء بهذه الفتاة إلى هنا يا أبي؟!

— وماذا يعنيك بهذا الأمر يا «عيّاش»؟! (سأله والده في استنكار..)

غمغم «عيّاش»:

— لا شيء.

لم ينسَ الشيخ الحكيم ورقةَ الحساب البنكي الضخم الخاصّ بعيّاش، ولكنه لم يفاتحه بالأمر الآن، فثمّة رابط بين الممرضة الشابة و«عيّاش»، ولكن ما هو!!! خاصّةً وأن الفتاة لا تعرفه!!

قال الشيخ «زارع»:

- يا ولدي، هذه فتاةٌ مناضلة، كادتْ تهلك في سبيل إنقاذ آخرين من جحيم محقق يتربص بهم! لقد قدّمت للإنسانية خدمةً جليلة، وأنقذت أجيالاً من الهلاك، لو لم تحملها الأرض حملتها فوق رأسي!

سأله «عيّاش»، في سخريةٍ لاذعة:

- إلى هذه الدرجة!! وماذا فعلت هذه المناضلة إذا؟ هل فتحت عكا؟! أيقنَ الشيخ بأنّ «عيّاش» يُضمر لهذه الفتاة كراهيةً ما، ولسوف يدرك سرّها قريباً!

فقال الشيخ، في لوم:

- أتتهكّم يا ابن «زارع»؟!

ثم استطرد بتقريرية جادة:

- سيُعيدها «رمّاح» إلى بيتها اليوم بعد ساعات.

شحبَ وجهه «عيّاش»، وقال في سرعة:

- لا.. لا تسمح لرمّاح بذلك حتّى لا يتعطّل عملكما معاً.. أنا الذي

سأصحبها إلى حيث تريد!

تفرّس الشيخ في عيني ابنه بنظرةٍ فاحصة، ثمّ سأله:

- ولماذا أنت؟! ألسّت بحاجةٍ إلى الراحة بعد أن قضيتَ ليلتين بالصحراء؟!
حملق الشابّ في وجه أبيه في تعجّب، يريد أن يسأله؛ «من أين عرفتَ
بذلك؟!»..

فأجابه الشيخ في ذكاءٍ حادّ:

- لا شيء بالصّحراء يخفى على أبيك يا بُني!!

ألحّ «عياش» في إصرار، وقال:

- - لن يُقلّها إلى هناك سواي.

تأكّد للشيخ أنّ «عياش» يُضمر لهذه الفتاة شراً ما؛ فقال في تسليم:

- ليقضي الله ما يشاء.



خاتمة..

أطلق أحدهم رصاصةً وجدت طريقها إلى ذراع «عيّاش»، كما لو كان مُطلق الرّصاصة قنّاصٌ محترف!!

لقد جاشت الرّيبة بصدر الشيخ «زارع»، خاصّةً عندما رأى ابنه «عيّاش» يُحكّم اللّثام فوق وجهه، ويحاول إخفاء ملامحه بدقّة من الممرضة الشّابة «منّة»، التي لاحظت السيّارة رباعيّة الدّفع باهظة الثّمن بلونها الرّمادي الداكن، امتقع وجهها، وقالت في نفسها:

- إنّها السيّارة نفسها التي أفلّتني إلى بيت جدّي بأمرٍ مباشر من «لؤي»!!
ثمّ ألقت الفتاة بناظرها نحو الشّاب المثلّم، الذي كان ينتظرها أمام مقود السيّارة، ففزعت، ودار رأسها وهي تهمسُ في دُعر:

- إنّهُ دليل الصّحراء، أحد أذرع الشّيطان «لؤي»!!

كان صوتها واضحاً إلى حدّ أن سمع الشيخ «زارع» كلّ كلمة تفوّت بها اللّتو..
ورغم يقينه التّام الآن في أنّ ابنه كان يعمل دليلاً بالصّحراء تحت إمرة سادة القبو، إلّا أنّه طمأنها بقوله:

- هيّا يا ابنتي، اركبي السيّارة؛ فهذا هو ابني «عياش»، فلا تقلقي!

أطاعت الشيخ، رغم توجّسها من ذلك الدليل المجهول الذي لم تر وجهه إلا بالصباح الباكر، حيث لم تتمكّن من رؤية قسمات وجهه بوضوح!

قاد «عياش» سيّارته في سرعة، حتى إذا ما كان ببقعة قريبة من مستودع القبو؛ إذ أوقف السيّارة، وأمر الفتاة أن تهبط في هدوء رافعة يديها إلى أعلى، وهو يصرخ بها قائلاً:

- لقد رأيّنتي، وعرفت عني كل شيء تقريباً، لا بُدّ من قتلك قبل أن تشي بي، نعم.. أنا دليل «لؤي» بيه بالصّحراء.. وأنا الدليل الذي أوصلك إلى بيت جدّتك، ومكث يراقبك، وعاد بك ثانية إلى حيث المستودع القديم..

و«منّة» ترتعش، وتتوسّله أن يتركها من أجل جدّتها، وهي لن تذكره لمخلوق فوق وجه الأرض مهما حدث!

وفيما كان يُحكّم «عياش» قبضتيه فوق الزناد؛ إذ انطلقت رصاصة من مكان قصي، لتستقرّ بذراع الأيسر، لقد انطلقت الرصاصة من فوهة بندقية الشيخ «زارع»!

لقد أنقذ الشيخ الممرضة الشابة في وقت عاصب!!

سقط المسدس - «غير المرخص، الذي أهده «لؤي» لعياش» قبل ثلاثة

أعوام تقريباً» - من بين يدي الشاب المثلث، وشقت تأوّهاته أجواء الصّحراء،
فيما راح ينزف دمًا غزيرًا عقب إصابته بذلك العيار النّاري.

- لم يا عمّا؟!

قالها «رمّاح» الذي ركض بأقصى سرعته نحو ابن عمّه المصاب، وضمّ
رأس «عيّاش» إلى صدره، وبكي بكاءً حارًّا.

فقال الشيخ، والحسرة تعتصر فؤاده:

- لن أدعه يغدو قاتلاً يا «رمّاح»!!

ثم استطرد الشيخ قائلاً:

- إن قتل الأبرياء جُرمٌ فادح، لا يُقرّه عرف ولا دين!

نقل «رمّاح» «عيّاش» إلى مشفى «الدّاخله العام» بواسطة سيّارة «عيّاش»؛
حيث أُجريت له عملية جراحية عاجلة لم تسفر عن نتيجة سوى أن توقف
ذراع «عيّاش» عن الحركة إلى آخر عمره.

بينما قاد الشيخ «زارع» سيارته «نصف النقل»، وإلى جواره «منّة» ترتعد
فرائضها ممّا حدث.. وقد أقنعها الشيخ بضرورة الإذلاء بكلّ ما قصّت عليه
بمديرية أمن القاهرة.

أمام اللّواء «علي أبي سيف» أدلى الشّيخ «زارع سلام الواحاتي» و«منة رشاد القبّاني» بكلّ ما يعرفانه عن «سادة القبو»، انتهاءً بما حدث لعيّاش.

وقد تشكّل فريقٌ عالي المستوى من المسؤولين بوزارة الداخلية للتحقيق بالقضية، على رأسهم اللّواء الدؤوب «علي أبو سيف»، الذي لم يألُ جهداً في الاهتمام بالقضية.

وتّم التوصل إلى عدّة بؤرٍ يتزعمها أطباء مشهورون، ومسؤولون كبار بالدولة؛ تمتهنّ «تجارة الأعضاء» خلف ستارٍ من مناصب، و شركات، ووظائف لا تُمتّ لذلك النّشاط الإجرامي الدخيل على البلاد.

كما تمّ الإيقاع بشبكةٍ كبيرة من المهريين الذين كانوا على وشك إدخال البلاد شحنة جديدة من الأطفال المخدّرين المجلّوبين من قارات آسيا وأفريقيا، واتّسعت دائرة البحث والتحري، حتى تمّ مسح شاملٌ للقرى والمحافظات التي سجّلت محاضر الشرطة بها حالات تغيبٍ لأطفال، وفتيات، وفتيان المراهقين، والشباب، وعليه تمّت مداومة بعض العصابات المبتدئة بذلك المجال الوحشي.

وبتكثيف التحريات الدقيقة، ثبّت أنّ «عيّاش» ما كان سوى سائقٍ ودليلٍ «لؤي نعمان الرّاجح»، وزبانيته بالصحراء؛ دون أن يتنامى إلى علمه شيء عن نشاطهم الدّموي!!

وأخذ بالاعتبار بأنَّ كلَّ من الشيخ «زارع سلام الواحاتي» وابنه «عياش زارع الواحاتي» و«منة رشاد القباني»؛ شهودُ إثباتٍ بالقضية.. وقد تمَّ التَّكتمُ على أسماء «شهود الإثبات» من قِبَلِ وزارة الداخلية حيث لم تَفدِّ بها بالصَّحف ولا بالمحطَّات الفضائية؛ حفاظًا على حياتهم من ترصُّد بعض أذئاب تلك العصابة المتشعِّبة بأنحاء البلاد!

فقد سعى اللواء «علي أبوسيف» إلى الحفاظ على سرِّيَّة أسماء شهود الإثبات بكلِّ جهده لكيلا تصل إليهم الأذرعُ المتبقِّية لعصابات «آسيا» التي مازالت تعيثُ فسادًا بالأنحاء، وإكرامًا للشيخ الفاضل «زارع الواحاتي»، وتقديرًا للدَّور الهامَّ الذي قامت به «منة القباني» في كشف بعض مُلابسات تلك القضية، ومساعدة العدالة في القبض على بعض أطرافها البارزين.

تمَّت كذلك مdahمة المستودع حيثُ الغرف المثبته فوق جدرانها صور «آسيا»، وتمَّ العثور على ألبومات صور الضحايا، وأُرفقت بسجلِّ القضية الكبرى.. ونُشرت صورُ الأطفال المفقودين بالصَّحف، وأُعلن عنها ببعض المحطَّات الفضائية..

ونكَّتِ الجراحُ الدفينة مع عرض صور المتغيَّين، ولكن كان ذلك ضروريًّا رغم وقَّعه الأليم على أهالي الضحايا؛ فلعلَّ لوعتهم ستهدا قليلًا حين كُفوا عن البحث عن أبنائهم على أملِ عودتهم!!

مِنِ الدَّوَاءِ مَا هُوَ أَشَدُّ مَرَارَةً مِنَ الْعَلَقَمِ؛ وَلَكِنْ لَا غَنَى عَنْهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ!

وكانت الحلقة الأخيرة بسلسلة التحريات، والبحث بتلك القضية التي شغلت الرأي العام، ولاقت اهتماماً ومتابعةً من كافة أطراف الشعب المصري؛ هي «مداهمة قبو الدماء، والاستراحة الملحققة به» بأغوار الصحراء الغربية على مسافة لا تقل عن ثلاثين كيلومتراً من مدينة «موط»، ما بين الواحيتين «الداخلية» و«الخارجية».. بمداهمة مسرح الأحداث الدامية، وبمعاونة عددٍ من مسؤولي وزارة الزراعة؛ تمّ العثور على أشلاء ضئيلة متعفّنة من أجسام طاقم «سادة القبو» - حسبما كانوا يلقّبون أنفسهم -..

وجديرٌ بالذكر؛ أنّ قطيع السّباع قد نفقَ عن آخره، فيما عدا الأسد التّشادي الضخم «شانجو» الذي أجهزَ على السّبعة وحوش بمفرده، وقد تمكّنت وزارة الزراعة من الإيقاع به والتّحفظ عليه بمساعدة عددٍ من مدربي السّباع بالسّيرك القومي، وبعض الأطباء البيطريين، الذين قاموا بتخديره بجهدٍ جهيدٍ بعد أن تعرّض فردان من أفراد الطّاقم المنوط بالإيقاع به لإصابات بالغة الخطورة، ومن ثمّ تمّ تسليمه بترخيص قانونيٍّ إلى «حديقة الحيوان بالجيزة»!

تمّ إصدار أمرٍ عاجلٍ مباشرٍ من «المجلس العسكري» الذي تولّى إدارة شؤون البلاد بالآونة الأخيرة عقب أحداث ثورة يناير ٢٠١١م بتفجير المستودع «القبو»، وملحقاته بالدّيناميت، ثمّ ردّمه كأنّه لم يكن!!

كما أنشئت «نقطة تفتيش مروية فوق ذلك المستودع المردوم، مما يسر على المسؤولين، استتباب الأمن على مساحة شاسعة من الصحراء المصرية الغربية..

وقد توصلت تحريات الباحث من خلال شهود عيان، ومن خلال بعض المتطوعين من الشباب الذين قاموا بعمل صفحات تنشر صور الأطفال المفقودين؛ بأن الطفلة «هاجر» حفيدة السيدة «أمنية» قد شوهدت برفقة متسولة بميدان «عبد المنعم رياض» بالقاهرة، وأكدت تلك المعلومة ما نشره بعض الناشطين الفيسبوكيين من صور للطفلة، وقد بدا عليها الإعياء الشديد؛ حيث كانت تشير للمازة بيديها كإشارات الضم والبكم تمامًا؛ تريد أن تقول لهم.. «إني جائعة»..

لقد بدت الطفلة خرساء، صماء، شاحبة، ممزقة الثياب، ذات قدمين مسودتين من أثر السير حافية خلف متسولة معتمة الوجه، يتجلى الشر على وجهها الكالح الدميم..

كان واضحًا للغاية أن الطفلة ضامرة، نحيلة من أثر الجوع الشديد، وأنها قد تعرضت لجريمة ما، أدت إلى فقدانها القدرة على النطق والسمع.. فيا ترى ماذا حدث لها؟!

وما أن انتبعت المتسولة «خاطفة هاجر» إلى شاب يلتقط صورة للطفلة هاجر؛ إلا وأسرع في فزع تمسك بساعد الطفلة، وتركض بها بعيدًا، فرارًا

من قبضة الشاب الذي تيقن من اختطاف تلك المتسولة للطفلة، وراح يلاحقها راکضاً خلفها..

ولكن المتسولة الحقيرة قد غابت عن ناظريه وسط الزحام!!

مازالت «هاجر» ومئات الأطفال مثلها مخطوفين، ولم يستدلّ على مكانهم بعد، ومازالت السيدة «أمينة» - التي أكّدت أنّ الصور المنتشرة عبر صفحات الفيس بوك لحفيدتها «هاجر» - ترجو عودة حفيدتها سالمة!



مشفى الداخلة العام، ٢٣ يوليو ٢٠١١ م..

تمائل «عياش» للشفاء، ولكن ذراعه الأيسر قد توقّف عن الحركة تمامًا، وكان والده الشيخ «زارع الواحاتي» يعوده بمركّده بالمشفى يوميًا بصحبة «رمّاح».

وعندما وجد الأب الحكيم أنّ الوقت اليوم هو الأنسب لوضع آخر النقاط فوق حرفها المُبهم، قام بسؤال ابنه «عياش» مباشرة، ممّا جعل «عياش» يضطرب:

- وماذا عن رصيدك البنكيّ الذي يوشك على بلوغ العشرة ملايين جنيهه يا «عياش»؟!

لم يكن الشاب يتوقّع بأنّ أمر ذلك الرصيد قد تناهى إلى علم والده، فتلعثم، ولم يجد ما يقوله، فعقّب الشيخ «زارع» في جدية:

- يا ولدي، إنّني على يقين من نقاء معدنك رغم طيشك، ولكن هذا المال وإن كنت حصلت عليه نظير عملك كدليل لتلك العصابة بالصحراء دون علمك بنشاطهم الفعلي؛ إلّا أنّه يبقى مالا ملوثًا بالدماء.

ثم قال في أبوة، ورجاء:

- تخلّ عن ذلك المال، وعُدّ «عياش» ابن الواحة، وابن الشيخ «زارع» الذي ما طعم، وما أطعمك إلّا من حلال!

فقال «عياش»، وهو يُقَلِّبُ ناظره بين وجه أبيه، ووجه «رمّاح» ابن عمّه:

- افعل ما تراه يا أبي، فكلّ ثروات الدّنيا لن تغني عنكم!

جال الشيخ «زارع» بمجالس جميع فقهاء الدّين الذين يعرفهم بالواحات، ولقد استحسنوا ما رأى من إنفاق كلّ المبلغ المالي الذي يمتلكه ولّده في خدمة مرافق الواحات، وتمهيد الطّرق الآمنة أمام السيّارات المارة بالصحراء برصفٍ مزيدٍ من الطّرق، وإنشاء رياض الأطفال، وإقامة مدرسة للتعليم الأساسي من أجل بنات الواحة.

حتماً، سيتبدّل وجه الحياة رغم أنفه؛ إذا باتت لدينا العزيمة لذلك!

وتتجدّد دماء شباب مصر بجيلٍ واعد من شبابها التّابعين الذين بزغ نجمهم بسماء الحياة السياسية، والاجتماعية؛ فقد ارتقى البرلماني السابق «أدهم الرّوي» إلى منصبٍ سفير مصر بالولايات المتحدة الأمريكية، وتمّ تكريمه هناك بمؤتمرٍ شاهده العالم أجمع، وعندما سأله مذيّع أمريكي بوكالة CNN الإخبارية:

- لمن يمكنك أن تهدي الجائزة التي حصلت عليها؟!

التمعت عيناه بدموع شوقٍ وحنين، وطاف بأفقه وجه زوجته، محبوبته
الراحلة «غادة أبو هاشم»؛ فقال بصوتٍ ملؤه الحب، وتخنقه العبرات:

— إلى امرأةٍ لن تتكرّر، ولن تعودَ بأيِّ حالٍ من الأحوال.

عادت «منة» إلى بيت جدّتها، وإلى عملها بتفانٍ بالمشفى، جنبًا إلى جنب
الدكاترة المخلصين؛ الدكتور «وديع» والدكتور «مروان»، الذي مازال يتمنّى
قبولها به زوجًا، وبابنه «هيثم» ابنًا لها!

عندما عادت منّة إلى بيتها، بعد أن قفل الشيخ «زارع» إلى دياره؛ استقبلتها
الجدّة بسعادةٍ غامرة، وسارعت تسألها:

— ما لكِ شاحبةً هكذا يا «منة»، يبدو أنّ العمل الجديد كان شاقًا عليكِ؟!

تلعثمت الفتاة، ولم تفصح بكلمة حول مغامرتها التي كادت تُودي بحياتها
بالصحراء الغربية، قائلة:

— هذا صحيحٌ يا جدّتي، لقد كان أشقَّ عملٍ بحياتي!!

فلَمْ تدرِ «بسيمة» بشيءٍ ممّا كان!

نهضت الجدّة «بسيمة» قبيل أذان الفجر لتجد «منة» شاردةً بالشُّرفة؛ تطلّ
على الشارع حيث تقطنان، وتقلّبُ ناظرها بالشُّوراع، والحارات، والأزقة،

حيث تحمّل هؤلاء البسطاء الطيّبون الكثير من الآلام؛ فربتت فوق كتفها وعانقتها، كما لو كانت تشعر بما يعتمل بنفسها..

كانت «مِنَّة» قد ألقت برأسها فوق صدر جدّتها الرؤوم، بينما تنصّت إلى إذاعة القرآن الكريم فيما تبثّ تلاوة شجّية لفقرة «تلاوة ما قبل صلاة الفجر» من خلال جهاز الرّاديو العتيق الذي بقي لها تذكّاراً من «خليل ديمتري العجايبي»، ذلك التّذكّار الذي ستظلّ تحتفظ به طيلة حياتها!

تفيض عينا «مِنَّة القبّاني»، فيما تتذكّر شيطاناً جاء إلى الدّنيا في صورة بشر، كانت تحسّبه منها، وتخالّ أنّها منه؛ وقول الله تعالى يتردّد عبّر الأثير يخرق مسامعها؛

- (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)



هل انتهتِ المأساة؟!!

هل توقّف السلب والنهب، والمحسوبية والفساد؟!!

هل بُترتْ كافة أذرع الأخطبوط التي زحفتْ وتمددتْ حتى توغّلت بعقر

ديارنا؟!!

هل انتهت «تجارة الأعضاء البشرية»؟!!

هل توقّف تهريبُ الحيوانات المفترسة «كالأسود، والذئاب، والضباع»،

والزّواحف السّامة «كالأفاعي»، والحيوانات الفتّاكة «كالتماسيح»، دونَ

ترخيص إلى داخل البلاد؟!!

هل سقط كلّ المجرمين؟ والمتهريين من الضّرائب؟!!

هل .. وهل .. وهل .. وملياراً هل، وهل، وهل؟!!

هل أنستكم أحداثُ الرواية «عرفان»؟!!

أينَ هو يا تُرى؟!!

ألم أقل لكم ..

— «لعلّها ليست النهاية؛ وإنما هي البداية»؟!!

لعلكم ستسألون .. - بداية ماذا؟!!

فأجيبكم: بداية اليقظة، بداية الحذر «رغم أنه لا يمنع وقوع القدر»، وإنما الاحتياط واجب..

أليس كذلك؟!

ما زال «عرفان» حرّاً طليقاً، وكم من مجرم مثله ما زال طليقاً بيننا، ولكنه سيسقط، ذات يوم سيسقط؛ فدوام الحال من المحال، هكذا الدنيا تدور يا أحباب.

دعوني - الآن - ألتقط أنفاسي قليلاً، وأقول لكم:

- لقد أرهقتني هذه الرواية كثيراً، وبصدق..

لقد وجدتُ الواقعَ أشدَّ إرهاقاً ورُعباً!!

والآن؛ سأكتبُ الأسطرَ الأخيرةَ من هذا العمل، وأستودعكم الله حتى نلتقي مع «عمل جديد» إذا كان بالعمرِ بقية.

(لا تَنفُتُوا بِالْغُرَبَاءِ!)

أحبّكم، وأتمنى لكم السلامة دائماً..

أسماء إبراهيم الصيّاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ